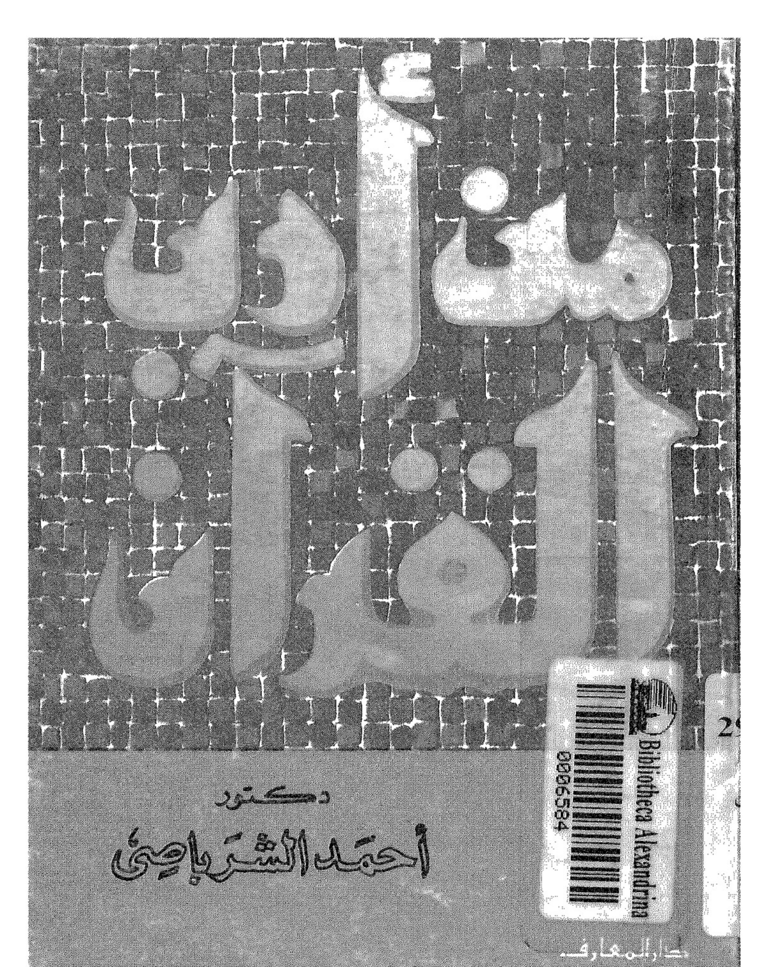

من أدب القرآن
دكتور
أحمد الشرباصي
دار المعارف

مِنْ أَدَبِ القُرْآنِ

الدكتور أحمد الشرباصي

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

وأستفتح بالذى هو خير : « ربَّنا عليْكَ توكلْنا، وإلَيْك أَنَبْنا ، وإليْكَ المصيرُ » .

شعاع من نور القرآن

« وكذلكَ أوحينَا إليكَ قُرآناً عربيًّا ، لِتُنذِرَ أُمَّ القُرى ومَن حولَها ، وتُنذِرَ يومَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ : فَرِيقٌ فى الجنَّةِ وفريقٌ فى السَّعِير ، ولو شاءَ اللهُ لجعَلَهُمْ أُمّةً واحدَةً ، ولكنْ يُدخِلُ مَنْ يَشَاءُ فى رحمتِه ، والظَّالمونَ مَالَهم مِنْ ولِيٍّ ولا نَصيرٍ . أمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِه أولياءَ ؟ فاللهُ هُوَ الولىُّ ، وَهُوَ يُحْيِي الموتَى ، وَهُوَ عَلَى كلِّ شَىءٍ قديرٌ » .

[سورة الشورى : ٧ — ٩]

تصدير

هذه طائفة من الفصول تعرض علينا – فى إيجاز وتركيز – صوراً من « أدب القرآن » .

وحين نقول : « أدب القرآن » يمضى بنا المفهوم الذى نريده من الكلمة ، حتى يطول مداه ، ويتسع مغزاه ، وتتنوع ألوانه . .

ففى هذه الصور أدب نفس ، وأدب درس ، وفيها كذلك أدب حس ، وأدب روح . والقرآن المجيد صاحبُ اقتدارٍ أصيل وفريد على أن يكون ملتقى لألوان باهرة من البيان : « لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

ونحن إذا استنبأنا معجمات اللغة العربية – لغة القرآن – وجدنا لكلمة « الأدب » أكثر من معنى ؛ فأصل الأدب هو الدعاء ، أو الدعوة إلى الطعام .

والأدب هو حسن الأخلاق وفعل المكارم .

والأدب هو تعلم رياضة النفس ومحامد الأخلاق ، وهو يقع على كل رياضة محمودة ، يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل .

والأدب هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً .

والأدب هو الذى يتأدب به الأديب ، وسُمِّىَ به لأنه يأدب الناس

(أى يدعوهم) إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح .

والأدب هو الظرف وحسن التناول . وهو نوعان : أدب النفس ، وأدب الدرس .

وحينما نستعرض نماذج من أدب القرآن سنجد أن الروضة القرآنية روضة نقية غنية بضروب من القطوف والثمار التى تُمتع ببيانها ، وتروع بتصويرها ، وتجذب بتأثيرها ، وتُشبع بغذائها وريّها ، وتنفع بحكمتها وعظتها ، حتى يصدق فى شأنها ما يُنسب إلى سيدنا ورائدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيما يرويه الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود فى شأن القرآن المجيد : « إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض ، فتعلموا من مأدبته » .

فكأن القرآن صنيع صنعه الله تعالى للناس ، فيه خيرات ومنافع ، ثم دعاهم إليه تفضلاً ورحمة .

فإذا ما تأذن توفيق الله — تباركت آلاؤه — لصاحب هذا القلم أن تجرى أنامله بهذا الفيض من ينبوع القرآن الحكيم الذى يهدى للتى هى أقوم ؛ كان ذلك أملاً حلواً تطمح إليه همة الإنسان ، ورجاء من الأعماق بأن تكون هذه النماذج دافعاً إلى عناية مضاعفة موصولة بأدب القرآن كتاب الرحمن ، الذى يشرفنى ويسعدنى أن أحيا به ، وأعيش له .

وعلى الله قصد السبيل .

أحمد الشرباصى

الإنسان في القرآن

حينما قال اللغويون : الإنسان يطلق على الذكر والأنثى من بنى آدم ، أرادوا تعريفَ ذلك الكائن الحى المسوَّى من لحم ودم ، وأعصاب وألياف ، ولكن كلمة « الإنسان » كسبت من استعمالها مع الأيام مجموعةً من المعانى صار بها ذلك الإنسان « إنساناً » ، حتى إن العامة نفسها تقول : إن فلاناً رجل « إنسان » ، أى يتصف بصفات تجعله أهلاً لحمل ذلك الوصف الكريم الأصيل .

ولقد ذكر الراغب الأصفهانى فى « مفردات القرآن » أن الإنسان سُمِّى بذلك لأن الله خلقه خلقةً لا قوام له فيها إلا بأُنس بعض أفراده إلى بعض ، ولذلك قيل : الإنسان مدنى بالطبع ، من حيث إنه لا قوام لأبنائه إلا إذا كان بعضهم لبعض ، ولا يمكن لفرد منهم أن يقوم وحده بجميع أسبابه .

والإنسان القويم فى الناس هو إنسان العقل والعلم والإيمان والعمل ، وهو شيء كبير فى جوهره وأثره ، وإن بدا ضئيلاً فى جسمه وحجمه ، ولم ينل كائن من المخلوقات ما ناله الإنسان من تشريف ، ولقد بدأت سلسلة

التشريف الإلهى للإنسان – كما حدثنا القرآن – بأن خلق الله بيده آدمَ عليه السلام ، وهو الأب الأول للإنسان ، وأطلق عليه اسم « الإنسان » كأنه عَلَم له ، وكأنه النموذج الدال على سلالته وذريته ، فقال القرآن : « ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مَسْنُون » . وقال : « وبَدَأَ خَلْق الإِنْسَان مِنْ طِين » وقال : « الرَّحْمَنُ ، علَّم القرآن ، خلق الإنسان ، علّمه البيان » .

ولم يكتف الله جل جلاله بأن يخبرنا ويحدثنا عن خلقه آدم كمظهر من مظاهر قدرته ، بل حدثنا أيضاً عن حكمته فى هذا الخَلْق ، فإذا عنوان آخر من عناوين التشريف لهذا الإنسان ، وإذا هو يختاره خليفةً فى كونه ، وتغيب هذه الحكمة حيناً عن الملائكة الأطهار ، حتى يعلن الله عنها بعد قليل فى هالة من الاحتفال والتكريم : « وإذْ قال رَبُّك للْملائكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرْضِ خَليفةً ، قالُوا أتجْعلُ فيها من يُفْسِدُ فِيها ويَسْفِكُ الدِّماء ، ونَحْن نُسبِّح بحَمْدِك ونُقَدِّس لَكَ ؟ قالَ إنِّى أَعْلَمُ ما لا تعلمون » .

(سورة البقرة الآية ٣٠)

هذا الخليفة هو آدم أبو الإنسان ، أو الإنسان الأول ، فقد حسب الملائكة أن هذا الخليفة سيكون مثل من كان قبله فى الأرض من أحياء ، ولكن الله صحح لهم فهمهم فقال : « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

وإذن فالمشيئة العليا تريد – كما يقول بصير من المفسرين – « أن تسلِّم لهذا الكائن الجديد فى الوجود ، زمامَ هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ، وكشف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز

وخامات ، وتسخير هذا كله - بإذن الله - فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه .

وإذن فقد وُهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات المذخورة ، كفاء ما فى الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ووُهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية .

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التى تحكم الأرض ، وتحكم الكون ، والنواميس التى تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كى لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة .

وإذن فهى منزلة عظيمة منزلة هذا الإنسان ، فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة ، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه العظيم .

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوى الجليل : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ما تم فى الأرض على يد هذا الكائن المستخلَف فى هذا الملك العريض » ! .

* * *

وإنسان القرآن إنسان قد أفاض عليه ربه نعمة العلم ، ويالها من نعمة ، وتزداد قيمة هذه النعمة حين نتذكر أن الله قد أفاض عليه هذه النعمة فى فجر ميلاده ، والحياة على الأرض لم تبدأ بعد : « وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثمَّ عرضَهم علَى الملائكةِ فقالَ أنبئونى بأسْماءِ هؤلاءِ إنْ كنتم صادقِين . قالُوا سبْحانك لا علِم لنَا إلاَّ ما علَّمتَنا إنَّك أنْتَ العَليمُ الحكِيمُ . قالَ يا آدَمُ أنبِئْهُم بأسْمائِهم فلَمَّا أنْبأهُمْ بِأسْمَائِهم قالَ ألَمْ أقُلْ لكُم إنِّى أعْلَمُ

غيْبَ السَّمٰواتِ والأرْضِ وأعْلَمُ ما تُبْدونَ وما كُنْتم تَكْتُمون »

(سورة البقرة : ٣١ – ٣٣) .

وما أروع أن يقدّم الله جل جلاله هذا الإنسان الذى خلقه بيده ، على الملائكة ، ويعلمه ما لا يعلمون ، حيث أودع فى نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، وعلمه كل شيء يزينه أن يعلمه ، وطلب من الملائكة أن يذكروا علمهم ، فإذا هولا يبلغ مبلغ العلم الموهوب لآدم أبى الإنسان .

وتكون النتيجة الطبيعية لهذا التفضيل أن يُقِرَّ بها الملائكة ويعترفوا ، وأن يعبروا عن هذا الاعتراف بإظهار فضل آدم عليه كما أمر ربهم وربه : « وإذْ قلْنَا للملائكةِ اسْجُدوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليسَ أبى واسْتكْبَر وكان منَ الكافِرينَ » . (الآية ٣٤ من سورة البقرة) .

وهكذا بعد أن ظهر فضل آدم بالعلم ، أراد الله أن يظهر تكريمه فأمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم سجود إظهار للفضل ، لا سجود عبادة ، فأطاعوا جميعاً وكانوا منصفين ، إلا إبليس فسق عن أمر ربه وعصى ، فكان من المجرمين الملعونين !

وسجود الملائكة للإنسان ممثلاً فى أبيه الأول – آدم – يعد أروع صورة للتكريم ، فقد ارتفع الإنسان بهذا التكريم فوق الملائكة ، وهم عباد مكرمون ،، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولقد آتاه الله قبل ذلك فضل الخلق الإلهى له ، وفضل نفخ الروح فيه ، وبعد ذلك فضل العلم والمعرفة .

وأكد القرآن الكريم كثيراً وطويلاً نعمة العلم هذه ، فقال تلك الآيات :

« عَلَّم الإنْسانَ مَا لَمْ يَعْلم » . (سورة العلق ٥) .

« وعلَّمكَ ما لمْ تكُنْ تَعْلَم وكان فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » .
(سورة النساء ١١٣) .

« وقل رب زدنى علماً » . (سورة طه ، الآية ١١٤) .

« يَرْفع اللهُ الَّذِين آمنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم دَرَجات » .
(سورة المجادلة . الآية ١١) .

« قُلْ هَلْ يَستَوِى الَّذِين يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يعْلَمُون » . (الزمر – ٩) .

« كذلك نُفصِّل الآياتِ لقَوْمٍ يَعْلَمُون » . (سورة الأعراف – ٣٢) .

« إنَّما يَخْشَى اللهَ من عباده العلماءُ » . (سورة فاطر ٢٨) .

* * *

وإنسان القرآن العالم يجعل الله له رائداً وقائداً هو العقل قرين العلم ، ولذلك تكررت مادة العقل ما يقرب من خمسين مرة فى كتاب الله الحكيم ، مثل : أفلا تعقلون . لعلكم تعقلون . إن كنتم تعقلون . أفلم تكونوا تعقلون ؟ وما يعقلها إلا العالمون . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . . . إلخ إلخ .

ولقد روى الحكيم الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف عقل الرجل ؟

فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير ، وتسألنا عن عقله ؟ !

فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم .

وعن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ، ويرده عن ردى ، وما تم

إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ .

قال : بالعقل .

قلت : وفى الآخرة ؟

قال : بالعقل .

قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟

قال صلى الله عليه وسلم : وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ، فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون .

* * *

وإنسان القرآن إنسان يعلن ربه التكريمَ له على الملأ ، ويسجله فى كتاب يبقى بقاء الزمن ، ويدوم دوام الدهر ، ويعدد مظاهر هذا التكريم بقوله : « ولقَد كرَّمْنا بَنِى آدمَ ، وحملْناهُمْ فى البرِّ والبَحْرِ ، ورزَقْناهُم منَ الطَّيِّباتِ ، وَفضَّلْناهُم على كَثيرٍ مِمَّنْ خلقْنَا تَفْضِيلاً » .

(سورة الإسراء الآية ٧٠) .

ويهب الله جل علاه الإنسانَ نفساً تنطوى على خصائص وقوى تحار فيها العقول ، ويطول حولها البحث ، حتى يقول القرآن : « وفِى أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرونَ » . (سورة الذاريات الآية ٢١) . ويشير إلى ذلك الشاعر فيقول للإنسان :

وتزعم أنكَ جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وإنسان القرآن إنسانُ عملٍ موصول وحركة دائبة ، وهو لا يعمل مطلق

عمل ، بل يطالبه ربـه بـأن يكون عمله صالحاً ، ولذلك تكررت عبارة « آمنُوا وعَملُوا الصَّالحاتِ » عشرات المرات فى القرآن .

ويقول القرآن فيما يقول : « وأمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فله جَزاءً الْحُسْنى » . (سورة الكهف الآية ٨٨) ، ويقول : « ومَنْ أحْسَن قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلَى اللهِ وعَمِلَ صَالحاً » (سورة فصلت الآية ٣٣) ويقول : « مَنْ عَمِل صالِحاً فَلِنَفْسِه » (سورة الجاثية ١٥) ويقول : « قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إنِّى عاملٌ » (الأنعام الآية ١٣٥) ويقول : « وقل اعْمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه والمُؤْمِنُونَ » (التوبة ١٠٥) . ويقول : « ولاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَملٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُم شُهوداً إذْ تُفيضُون فِيهِ »

(سورة يونس ، الآية ٦١)

* * *

وإنسان القرآن إنسان كبير كبير بفضل الله وإنعامه وتوجيهه .

إنه كبير صلح ليكون خليفة لله فى الأرض كما رأينا: « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

إنه كبير صلح ليكون منه أنبياء ورسل : « الله أعلم حيث يَجْعَلُ رسالته » .

إنه كبير صلح منه – وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم – الذى مكنه ربه من تحطيم المسافات والحواجز كما رأينا فى حادث الإسراء والمعراج . والقرآن يقول فى أول سورة الإسراء :

«سُبْحَانَ الَّذِى أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحرامِ إلى الْمَسْجِدِ الأقْصَى الَّذِى بارَكْنَا حَوْلَه لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنَا إنَّه هُو السَّميعُ البَصِيرُ» .

ويقول : « علَّمهُ شَدِيدُ القُوَى . ذُو مِرَّةٍ فاستَوى . وهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى ، ثُمَّ دَنا فَتَدلَّى ، فكانَ قابَ قَوْسَيْن أوْ أدْنَى » (سورة النجم من ٥ – ٩) .

إنه كبير صلح لكل ما أظهر الله على يديه ، ومكنه من اختراعِه وابتكاره وتسخيره ، ومن كشف أسرار الطبيعة التي جعلها الله أمام الإنسان قرآناً منظوراً : « قُلِ انْظُروا ماذَا فِي السَّمواتِ والأَرْضِ » (سورة يونس الآية ١٠١) ووهب الله الإنسان فى هذا المجال قدرة هائلة على المسير ، وعلى التفكير ، وعلى التدبير ، والله هو صاحب الفضل العظيم .

* * *

والإنسان كما يصوره القرآن حى عاقل شاعر حساس مسئول محاسَب على ما يفعل ، مجزى بما يعمل ، « فَمَنْ يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرهُ ، ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (سورة الزلزلة ٧ ، ٨) ، وهذا يعطى الإنسان احتراماً وشخصية وكياناً له استقلاله وحريته وتبعته ، ولذلك يقول الكتاب الحكيم : « بلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصيرةٌ ، ولَوْ ألْقَى مَعاذِيرَه » (سورة القيامة ١٤ ، ١٥) فنفس الإنسان — كما يقول أهل التفسير — موكولة إليه تابعة له ، من واجبه أن يرشدها ويسدد خطاها ، وأن يباعدها عن الشر قدر طاقته وإمكانه ، وأن يهديها إلى الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهو مسئول عنها ، ولن يقبل الله منه عذراً إذا فرط فى صيانة هذه النفس وتوجيهها نحو سبيل الله .

وقد منحه الله فرصة التمييز والاختيار : « إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كَفُوراً » (سورة الإنسان ٣) ، « ونفْسٍ وما سوَّاهَا فألْهَمَها فُجُورهَا وتَقْواهَا ، قَدْ أفْلَحَ مَن زكَّاها ، وقدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها » (سورة الشمس الآيات من ٧ — ١٠) ، « مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ . ومَنْ أسَاءَ فَعَلَيْها ، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ لِلْعَبِيد » . (سورة فصلت ٤٦) .

والإنسان فى تصوير القرآن مطلوب منه النهوض بتبعته الفردية ،

يتحملها ويؤخذ بها ، وهو مخلوق راشد رشيد ، وكل جزء من سعيه محصى عليه مراجَع فيه ، وسينال هذا الإنسان جزاء سعيه وافياً بلا نقص ولا هضم ، يقول القرآن : « وأنْ لَيْس للإنْسَانِ إلاَّ ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثمَّ يُجْزاهُ الجزاءَ الأوْفَى » (سورة النجم الآيات ٣٩ – ٤١).

ومن هنا يفجِّر القرآن فى حياة الإنسان ينابيع الإدراك والشعور والوجدان ، ويحرك منه أوتار القلب واللب والروح والنفس ، ليتفكر ويعلم ، ويفقه ويعتبر ، ويخشى ويتعظ ، فيتحدث كثيراً على النمط التالى :

« إنَّ فِى ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأبْصَارِ» (سورة النور ٤٤) .

« لقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِى الألْبابِ » (سورة يوسف ١١١) .

« إنَّ فِى ذلكَ لعبرةً لمنْ يَخْشَى » (سورة النازعات ٢٦) .

« وتِلْكَ الأمْثالُ نضْرِبُها للنَّاس لعلَّهم يَتفكَّرون » (الحشر ٢١) .

« قد فَصَّلْنا الآياتِ لقوْمٍ يَفْقَهونَ » (الأنعام ٩٨) .

« ونُفصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمون » (التوبة ١١) .

ومن هذا الوادى أن القرآن المجيد جعل حياةَ الإنسان قائمة على زوجين ، هما المرأة والرجل ، ولم يجعل العلاقة القائمة بين الزوجين مقصورة على لذة الجنس ، أو متعةِ الحس ، أو شهوة النفس ، بل جعل عماد هذه العلاقة سكينة وطمأنينةً وألفة قلوب ، فقال : « هُوَ الَّذِى خَلَقكُمْ من نَفْسٍ وَاحدةٍ وجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إلَيْها » (الأعراف ١٨٩) . وقال : « ومن آياتِهِ أنْ خَلَق لكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ أزْواجاً لتسْكُنوا إليْها وجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً ورحمةً إنَّ فِى ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكَّرُونَ » (الروم ٢١) .

* * *

ومن عناية القرآن الكريم بالإنسان أن القرآن حذر الإنسان عدوَّه

اللدود وخصمه العنيد ، وهو الشيطان المريد ، وأكد القرآن التحذير ، حتى لا يبقى للإنسان عذر يعتذر به إذا وقع فى شراك هذا الشيطان .

إن القرآن يتحدث هنا على هذا النحو .

« إنَّ الشَّيْطَانَ للإنْسانِ عَدوٌّ مُبِينٌ » (سورة يوسف ٥) .

« ومَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وليًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَد خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً »

(النساء ١١٩) .

« يا بَنِى آدمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُم الشَّيْطَانُ كَما أخْرَجَ أبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ »

(الأعراف ٢٧) .

« وإمَّا ينزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّه هُو السَّمِيعُ العَلِيمُ »

(الأعراف ٢٠٠) .

« إنَّ الشَّيْطَانَ ينزَغُ بَيْنَهُم » (الإسراء ٥٣) .

« يَأَيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تتَّبِعُوا خُطُوات الشَّيْطَان » (النور ٢١) .

« وكانَ الشَّيْطَانُ للإنْسَانِ خَذُولاً » (الفرقان ٢٩) .

* * *

ونحن لا ننسى — ولا ينبغى لنا أن ننسى — أن القرآن قد نسب إلى الإنسان كثيراً من السيئات ، وهذه أوصاف خاصة بالإنسان الذى أعرض عن ربه ، وانحرف عن طريقه . واستجاب لنزغات الشيطان ، ولو احتفظ الإنسان بفطرته الأصيلة ، واستمسك بالإيمان والعمل الصالح والحق ، والصبر فى طريق هذا الحق ، لما استحق شيئاً من هذه الصفات التى يشوه الإنسان بها فطرته .

وهذا بدليل قول الله سبحانه : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

على هذا الأساس نستطيع أن نتفهم المراد بأمثال هذه الأوصاف المنسوبة إلى الإنسان بعد انحرافه واعتسافه :

« إِنَّ الإِنْسَانَ لظَلُومٌ كفَّار» (إبراهيم ٣٤) .

« وكَانَ الإِنْسانُ عَجُولاً » (الإسراء ١١) .

« وكانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً » (الإسراء ١٠٠) .

« وكانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدلاً » (الكهف ٥٤) .

« إِنَّه كانَ ظَلوماً جَهُولاً » (الأحزاب ٧٢) .

« إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً » (المعارج ١٩) .

« إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّه لكَنُودٌ » (العاديات ٦) .

* * *

على أن القرآن المجيد – وهو كتاب الرءوف الرحيم – قد استبقى روح الترفق فى خطاب الإنسان ، حتى فى مواقف المحاسبة والمعاتبة والمراجعة ، فجاءت طريقة الخطاب شفافةً متلطفة ، فى مثل قول الله تبارك وتعالى : « يأَيُّها الإِنْسانُ ما غَرَّكَ بربِّكَ الكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَـكَ فسوَّاكَ فَعَدَلَك ، فِى أَىِّ صُورةٍ ما شَاءَ ركَّبَكَ » (الانفطار ٦ – ٨) .

يعلق الأستاذ الإمام محمد عبده على هذا النص الإلهى الكريم فيذكر أن الله خاطب الإنسان بقوله : « يأيها الإنسان » ولم يقل : أيها المخلوق ، أو العبد . وفى الإنسان معنى العاقل المتفكر ، الذى أوتى من قوة ، وبسطة القدرة فى العمل ، ما لا حدَّ له ينتهى إليه ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات وأكملها ، ونال بفضل ما أوتيه قوة السلطان عليها ، ولم يكن ذلك كله إلا منحةً من ربه الكريم ، الذى أحسن كل شىء خلقه .

وهذا الكريم إنما يليق به أن يوفى كلَّ مرتبة من الوجود حقها ، فالإنسان

الذى خص بهذه المنزلة من الكرم الإلهى ، لا ينبغى أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر ، وإنما يتساوى مع بعضها فى الحياة الأولى ، من حيث قصر المدة وسرعة الفناء . ولكن الذى يليق بعقله ، وقوة نفسه الناطقة ، أن تكون له حياة أبدية لا حد لها ، ولا فناء يأتى عليها » .

وإذا رجعنا إلى تفسير الآيات السابقة فى كتاب « ظلال القرآن » نجد هذا التصوير البيانى الأدبى لكلمات النص الربانى المعجز :

« إن هذا الخطاب : « يا أيها الإنسان » ينادى فى الإنسان أكرم ما فى كيانه ، وهو « إنسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ، وارتفع إلى أكرم مكان ، وتجلى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل : « ما غرك بربك الكريم » يا أيها الإنسان الذى تكرم عليك ربك راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . يا أيها الإنسان ، ما الذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ، وهو ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ، ومن هذا الإغداق إنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغى ومالا ينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهى ، الذى أجمله فى النداء الموحى العميق الدلالة ، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة فى التعبير . يفصّل شيئاً من هذا الكرم الإلهى المغدق على الإنسان المتمثل فى إنسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية . فيشير فى هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله . وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره

هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذى لا يشكر ولا يقدر ، بل يغتر ويسدر :

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك » ! ؟

إنه خطاب يهز كل ذرة فى كيان الإنسان حين تستيقظ إنســانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه ، وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل ، ويذكره هذا التذكير الجميل وهو سادر فى التقصير ، سيئ الأدب فى حق مولاه الذى خلقه فسواه فعدله .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة تفضلا منه ورعاية ومنة ، فقد كان قادراً أن يركبه فى أى صورة أخرى يشاؤها ، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله :

وإن الجمال والسواء والاعتدال ليبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء » ! !

* * *

ويقول القرآن الكريم عارضاً كرامة الإنسان القرآنى السوى العالى ، وخيبة الإنسان الشيطانى الهاوى ، وطريق النجاة والوقاية للإنسان الوفى لعهده مع ربه ، فيقول سبحانه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ،

ثُمَّ رددْناهُ أسْفَلَ سافِلِينَ ، إلاَّ الَّذِين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فلهُمْ أجرٌ غَيرُ مَمْنونٍ » (سورة التين من ٤ – ٦) .

إن الله تبارك وتعالى قد خلق كل شيء بإحسان وإتقان ، ولكنه مع هذا كرر النص فى كتابه على أنه سبحانه أحسن خلق الإنسان . ولا شك أن هذا يدل على فضل مزية للإنسان ، ومزيد من التكريم له . وهذا يرمز إلى أن الإنسان له عند ربه شأن خاص ، لأن الله أبدع تكوينه فى ناحية الحس والنفس ، وناحية العقل والروح ، وهذا الإنسان يرتفع شأنه فى حمى ربه إلى أعلى عليين ، حين يحافظ على سلامة فطرته وطهارة روحه ، وتوطد إيمـــانه .

ولكن الله المنتقم ممن يستحق الانتقام يرد ذلك الإنسان إلى الحضيض ، وإلى أسفل سافلين ، إذا ضل أو أضل ، فيهبط إلى مستوى البهائم والأنعام ، لانحرافه واعتسافه ، بعد أن كان فى مستوى الملائكة بنور إيمانه وسمو يقينه ، ولا يسلم من هذا الانتكاس إلا أهل الإيمان والعمل الصالح ، فهؤلاء لهم ثوابهم العظيم ، وأجرهم الطيب الموصول غير المقطوع : « فلهم أجر غير ممنون » .



القرآن والروح

البحث فى الروح من أقدم الأمور التى شغلت الناس منذ العصور الموغلة فى القدم ، وقد طال فيها الخلاف بين رجال الدين والفلاسفة والصوفية وعلماء النفس ، وقد اتفق أغلبهم على وجودها ، وعلى أنها إذا طهرت وقويت منعت صاحبها عن الدنايا ، وأعطته قوة غير قوة العضلات والأعضاء ، ثم اختلفوا فيما وراء ذلك : ما أصل الروح ؟ ما حقيقتها ؟ من أين جاءت ؟ وكيف تحيا وتقوى ؟ وأين تذهب حين تعود ؟ . . . إلخ .

والبحث هنا لا يريد أن يدخل فى متاهات هذا الخلاف ، أو سراديب تلك الفروق ، وإنما يحاول أن يعطى تعريفاً للروح فى ضوء الإسلام ، مستعيناً فى ذلك بالقرآن والسنة وأقوال الأئمة والحكماء ، ولا شك أن هذا التعريف إذا جاء على وجهه فيما نأمل ، وصاحَبَه شىء من التفصيل فيما نحاول،فسيعاون الدارس على أخذ صورة واضحة المعالم للأمور الأساسية التى تتعلق بالبحث فى الروح .

وأول خطوة ينبغى أن نخطوها هى أن نعرف مفهوم كلمة « الرُّوح » فى اللغة التى نبحث بها ونعبر ، وهى اللغة العربية لغة القرآن ، فإذا عدنا

إلى معجماتها وجدناها تقدم إلينا أكثر من معنى لكلمة الروح ، فالروح هى النفس ، أو ما به حياة النفس ، أو خَلْق من خلق الله لم يعط علمه لأحد ، أو النَّفَس – بفتح الفاء – الذى يتنفسه الإنسان . . . إلخ .

ولكنا نلاحظ أن أصل مادة « الروح » فى لغة العرب يدل على الحركة والمسير ، ومن ذلك قولهم : راح يروح ، أى سار فى أى وقت كان ، ولعل ذلك يتصل باشتقاق كلمة « الريح » من المادة،لأن الهواء متحرك فى الطبقات المحيطة بالأرض ، والحركة هى المظهر الأساسى للحياة ، ومن هنا أطلقوا كلمة « الروح » على ما به حياة الإنسان . وقال الأصفهانى فى « مفردات القرآن » إن الروح اسم للجزء الذى تحصل به الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستدفاع المضار ، وقال ابن الأثير فى « النهاية » : الروح هو الذى يقوم به الجسد،وتكون به الحياة .

وقد حفلت المراجع والمصادر العربية بطائفة من التعريفات للروح ، فقيل:هى جسم هوائى فى القلب ، أو هى جزء فى الدماغ لا يتجزأ ، وقيل:هى جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها ، وقيل : إن الروح لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد ، باقية من أول العمر إلى آخره ، لا يتطرق إليها تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء .

واختار بعضهم هذا التعريف : الروح الإنسانى جوهر مجرد ، ليس بداخل العالم الجسمانى ، ولا خارجه ، ولا متصل به،ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، يدركه العقل ولا يبلغه الحس ، وهذا الجوهر هو أكرم ما فى الإنسان .

وأغلب التعريفات للروح – إن لم تكن جميعها – تعتمد على التعبير

عن الخواص والآثار والمظاهر ، ولا تقدم الكُنْه أو الحقيقة ، وكأن العلماء بهذا يريدون أن يقولوا : إننا نستطيع أن نبحث فى الروح وسلطانها ، وبدئها ونهايتها ، وتأثيرها وآثارها ، وخصائصها وظواهرها ، ولكن حقيقة جوهرها مستورةٌ محجبة ، وإن ثار فينا حب البحث عنها والجرى وراءها ، ولعل هذا هو الذى جعل الواسطى يقول : « خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء ، فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر » ! .

* * *

ونسعى إلى كتاب الله عز وجل ، لنتعرف إلى حديث الروح فيه :

نجد القرآن الكريم قد استعمل كلمة « الروح » فى أكثر من معنى .

استعملها تارة للدلالة على ذلك السر الإلهى الذى يودعه الله تعالى جسم الإنسان فيحيا به ، فقال فى سورة السجدة : « وبدأَ خلْقَ الإنْسان مِنْ طِينٍ . ثمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلالة منْ ماءٍ مَهين . ثمَّ سوَّاهُ ونفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وجَعَلَ لكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ والأفْئِدةَ قليلاً ما تشْكُرُون » . (الآيات من ٧ — ٩).وقال فى سورة الحجر : « وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكة إنِّى خالقٌ بشراً مِنْ صَلصالٍ مِنْ حماٍ مَسْنُونٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ منْ رُوحِى فَقَعُوا لهُ ساجدينَ » (٢٨ ، ٢٩). وقال عن مريم فى سورة الأنبياء : « والَّتِى أحْصَنتْ فرْجَها فَنفخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وجَعلْناها وابْنَها آية للعالَمِين » . (الآية ٩١).وقال فى سورة التحريم : « ومرْيَمَ ابْنَة عمْرانَ الَّتِى أحْصَنَتْ فرْجَها فَنَفخْنا فِيهِ منْ رُوحِنا وصدَّقتْ بِكلماتِ ربِّها وكُتبِهِ وكانَتْ مِنَ القانِتِينَ » . (الآية ١٢).

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الروح » أحياناً للدلالة على جبريل عليه السلام ، وسماه تارة « روح القدس »،وتارة « الروح الأمين » . فقال

فى سورة البقرة : « وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » (الآية ٢٥٣) . وقال فى سورة المائدة « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس » . (الآية ١١٠) وقال فى سورة النحل : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » . (الآية ١٠٢) .

وقال أهل التفسير إن روح القدس هو جبريل ، وهو روح الوحى الذى يؤيد به الله تعالى أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم ، وسمى روح القدس لأن التعليم الذى يكون به مقدس ، أو لأنه يقدس النفوس ، أى يطهرها .

وقال القرآن أيضاً فى سورة الشعراء : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين » (الآيات ١٩٢ – ١٩٤).وقال أيضاً عن جبريل وهو يتحدث عن مريم فى سورة مريم : « فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . (الآية ١٧) .

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الروح » أحياناً للدلالة على بعض الملائكة ، أو على صنف من الملائكة له مكانة وشرف ، فقال فى سورة المعارج : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . (الآيـة ٤). وقال فى سورة النبأ : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (الآية ٣٨) . وقال فى سورة القدر : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » . (الآية ٤) .

واستعمل القرآن « الروح » بمعنى القوة والتأييد من الله ، فقال فى سورة المجادلة : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » .

(الآية ٢٢). وقال فى سورة النساء : « إنَّما المسيحُ عيسَى بنُ مرْيمَ رسُولُ اللهِ وكلمتُهُ ألْقاهَا إلى مريمَ وروحٌ مِنْه » . (الآية ١٧١) أى ذو روح ، أى ذو قوة وهبه الله إياها فاستطاع بفضل من الله أن يصنع بها المعجزات .

واستعمل القرآن كلمة « الروح » للدلالة على وحى الله ، أو على كتابه المجيد ، وهو القرآن المجيد ، فقال فى سورة النحل : « يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمْرِه عَلَى مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ أنْ أنْذِرُوا أنَّه لا إلٰه إلاَّ أنا فاتَّقون » (الآية ٢) . وقال فى سورة غافر : « رَفيعُ الدَّرجات ذُو الْعرْش يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أمْرِهِ علَى مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التلاقِ » (الآية ١٥). وقال فى سورة الشورى وهو يريد القرآن الكريم : « وكذلكَ أوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جَعَلْناهُ نوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا ، وإنَّك لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم » (الآية ٥٢) . وقال فى سورة الإسراء : « ويَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ ربِّى وما أُوتِيتُم من العِلْمِ إلاَّ قليلاً » (الآية ٨٥).

ولعل هذه الآية الكريمة هى أكثر الآيات القرآنية ترديداً على الألسنة للدلالة على الروح بمعنى السر الإلهى الذى يودعه الله الإنسان فتكون به الحياة والحركة ، مع أن المراد بالروح فى هذه الآية – حسبما يلوح من سياقها – هو القرآن الكريم ، لأن هذه الآية جاءت وسط آيات تقول :

« ونُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ، ولا يَزِيدُ الظَّالمِينَ إلاَّ خساراً . وإذَا أنْعمنا عَلَى الإنْسان أعْرَضَ ونَأى بجانِبِهِ ، وإذا مَسَّه الشَّرّ كانَ يئوساً . قلْ كلٌّ يعْمَلُ على شاكِلَتِه فربُّكُمْ أعْلَمُ بمَنْ هُوَ أهْدَى سَبيلاً . ويسْألُونَكَ عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ منْ أمْرِ ربِّى ، وما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قليلاً . ولئن شِئْنا لنذهَبَنَّ بالَّذِى أوْحَيْنا إلَيْكَ ثم لا تَجِدُ لَك بِهِ عَلَيْنَا وكِيلاً . إلاَّ

رحْمةً من ربِّك إنَّ فَضْلهُ كانَ عليْكَ كَبيراً . قُلْ لَئِنِ اجْتَمعتِ الإنْسُ والجنُّ علىَ أنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرْآن لا يأتونَ بِمِثْلِه ، ولو كانَ بعْضُهم لبعْضٍ ظهيراً . ولقَدْ صرَّفْنا للنَّاسِ فى هذا القُرْآنِ مِنْ كلِّ مثلٍ فأبَى أكثرُ النَّاس إلاَّ كفُوراً » .

(الآيات من ٨٢ — ٨٩) .

هكذا مضت الآيات فى مسيرتها ، وهى فى أولها ووسطها وآخرها تتحدث عن القرآن أو تشير إليه ، وهذا يرجح أن المراد بالروح الوارد هنا هو القرآن المجيد ، لأنه شبيه بالروح فى إحياء النفوس ، ولأنه سبب الحياة الأخروية السعيدة الباقية .

ويؤيد الإمام الرازى فى تفسيره أن المراد بالروح هنا هو القرآن ، فيقول فيما يقول : « تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقوله : (ينزل الملائكة بالرُّوح مِنْ أمْره) . وأيضاً : السبب فى تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول ، لأن به تحصل معرفة الله تعالى ، ومعرفة ملائكته ، ومعرفة كتبه ورسله . والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف ، وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه فى تفسير قوله : (ينزل الملائكة بالرّوح مِنْ أمْرِه) » .

ثم يضيف قوله : « اللائق بهذا الموضع هو القرآن ، لأنه تقدمه قوله : (وننزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين) والذى تأخر عنه قوله : (ولئنْ شِئْنا لنذْهبنَّ بالَّذى أوْحَينا إليْكَ) إلى قوله : (قل لئِن اجْتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثْل هذا القُرآن لا يأتون بمثله ، ولو كانَ بعْضهم لبعْضٍ ظهيراً) فلما كان ما قبل هذه الآية فى وصف القرآن ، وما بعدها كذلك ، وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن ، حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة » .

* * *

وقد ثار خلاف حول تحديد العلاقة بين « الروح » و « النفس » : أهما شيء واحد أم متغايران . وقد قيل فى النقاش إن الروح إذا اتصلت بالبدن صارت نفساً . وقيل : بل النفس شيء آخر غير الروح ، لأن النفس هى المعنى الجامع لقوتى الغضب والشهوة ، ومن هنا قال القرآن : « إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارة بالسُّوء » . وقال الحديث النبوى : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » .

وحين نعود إلى القرآن نجده قد أطلق « النفس » أحياناً على « الروح » كما فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : « ولَوْ تَرَى إذ الظَّالمونَ فى غَمرات المَوْتِ والملائِكَةُ باسِطُوا أَيْديهِمْ أَخرِجُوا أَنْفُسَكم » (الآية ٩٣) . ويقول فى سورة الفجر : « يا أَيَّتُها النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ، ارْجعى إلى ربِّك رَاضِيةً مرْضِيَّةً ، فَادْخُلى فى عِبادِى وادْخُلِى جنَّتِى » (الآية ٢٧) . ولعل هذا هو الذى جعل الأصفهانى يقول : « وجعل الروح اسماً للنفس ، وذلك لكون النفس بعض الروح ، كتسمية النوع باسم الجنس » .

ولكن هناك آيات أخرى يراد فيها بكلمة « النفس » ذات الإنسان ، كقوله تعالى فى سورة الإسراء : « ولاَ تقْتُلوا النَّفْسَ الَّتى حرَّمَ اللهُ إلَّا بالْحقِّ » (الآية ٣٣) . وقوله تعالى فى سورة الأنعام : « وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم من نفْسٍ واحدةٍ فمُسْتقرٌّ ومُسْتَوْدعٌ » (الآية ٩٨) .

* * *

والمفهوم من الحديث الصحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يرسل ملكاً إلى الجنين فى بطن أمه « فينفخ فيه الروح » ، ولا تستوقفنا هنا حقيقة الطريقة التى يتم بها هذا النفخ ، فباطن ملكوت الله

الخفى أكثر من مشاهد كونه المنظورة أو المحسة ؛ ولكن الذى يستوقفنا هنا هو : أكانت الروح موجودة قبل الجسم ، أم وُجدت معه ، أم وُجدت بعده ؛ وهذا الموضوع أيضاً كان مثار نقاش طويل بين علماء الإسلام ، فبعضهم رأى أن الروح لا بد أن تكون سابقة فى الوجود على الجسد ، بل غلا بعضهم وقال إن الروح قديمة ، وذهب فريق إلى أن الروح سبقت الجسد فى الوجود ، ويؤكد الإمام ابن تيمية أن الروح الآدمية مخلوقة محدثة ، أوجدها الله تعالى ، ويؤكد الإمام أن ذلك موضع اتفاق بين سلف الأمة وأئمتها .

وتفرع عن هذا النقاش أيضاً حوار حول طبيعة الروح : أهى جسد أم لا . ولقد توسع الإمام الرازى فى بحث هذا الموضوع ، وأقام حججاً عقلية وسمعية على أن الروح ليست جسداً ، ومما قاله فى هذا الشأن وهو لا يفرق بين الروح والنفس :

الحجة الأولى : قوله تعالى : (ولا تكُونوا كالّذين نسُوا الله فأنساهم أنْفُسهم) ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهَد ، فدلَّ ذلك على أن النفس التى ينساها الإنسان عند فرط الجهل هى شىء آخر غير هذا البدن .

الحجة الثانية : قوله تعالى : (أخْرِجُوا أنفسكم) وهذا صريح فى أن النفس غير البدن ، وقد استقصينا فى تفسير هذه ، فليرجع إليه .

الحجة الثالثة : أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية ، فقال : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ) إلى قوله : (فكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً) ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال الجسمانية . ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح

قال : (ثم أنشأناهُ خلقاً آخَر) ، وهذا تصريـح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمانية ، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن .

فإنْ قالوا : هذه الآية حجة عليكم ، لأن الله تعالى قال : (ولقَدْ خلَقْنا الإنْسانَ مِن سُلالةٍ من طينٍ) وكلمة (من) للتبعيض ، وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاض الطين . قلنا : كلمة (من) أصلها لابتداء الغاية ، كقولك : خرجت من البصرة إلى الكوفة ، فقوله تعالى : (ولقد خلَقْنا الإنْسانَ من سُلالةٍ من طِينٍ) يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلا من هذه السلالة ، ونحن نقول بموجبه ، لأنه تعالى يسوّى المزاج أولا ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيكون ابتداء تخليقه من السلالة .

الحجة الرابعة : قوله (فإذا سوَّيتهُ ونفخْتُ فيه من رُوحِى) : ميَّز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح ، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء ، وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ، ثم أضاف إلى نفسه بقوله : « من روحى » دلَّ ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : (ونفْس وما سوَّاها ، فألهمَها فُجُورها وتَقْواها) . وهذه الآية صريحة فى وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك معاً ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك ، وأما الفجور والتقوى فهو فعل ؛ وهذه الآية صريحة فى أن الإنسان شيء واحد ، وهو موصوف بالإدراك والتحريك ، وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة ، وفعل التقوى تارة أخرى ، ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين ، فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

الحجة السادسة : قوله تعالى : ﴿إنَّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ نُطْفةٍ أمْشاجٍ نَبْتَليه فجعَلْناه سميعاً بصيراً﴾ فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد ، وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية ، وهو الموصوف بالسمع والبصر ، ومجموع البدن ليس كذلك ، وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك ، فالنفس شيء مغـاير لجملة البدن ، ومغاير أجزاء البدن ، وهو موصوف بكل هذه الصفات .

واعلم أن الأحاديث الواردة فى صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد ، وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة ، وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد ، والتعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ، ويروى هذه الأخبار الكثيرة ، ثم يقول : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يعرف الروح ، وهذا من العجائب » .

* * *

ويقرر علماء الإسلام كالغزالى والرازى وغيرهما أنه كلما قوى البدن بشهواته ، وتوسع فى ملذاته ، ضعفت الروح عند صاحبه ، والعكس بالعكس ، ولذلك يقررون أن أصحاب الرياضيات النفسية والمجاهدات الروحية ، كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويع الجسد ، قويت قواهم الروحانية ، وأشرقت نفوسهم بالمعارف الإلهية ؛ وكلما أمعن الإنسان فى الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدية صار كالبهيمة ، وبقى محروماً من آثار العقل والفهم والمعرفة والإشراق الروحى .

ولحجة الإسلام الغزالى تقسيم للأرواح البشرية ، فهو يرى أنها تنقسم إلى خمس مراتب :

المرتبة الأولى : هى مرتبة « الروح الحساس » ، وهو الذى يتلقى ما تورده

الحواس الخمس ، وكأنه أصل الروح الحيوانى وأوله ، إذ به يصير الحيوان كائناً حيًّا ، وهذا الروح موجود عند الصبى الرضيع .

والمرتبة الثانية : هى مرتبة « الروح الخيالى » ، وهو الذى يستثبت ما أوردته الحواس ، ويخزنه لديه ، ويحفظه عنده ، ليعرض على « الروح العقلى » الذى يوجد فوقه ، عند الحاجة إلى ذلك . وهذا الروح الخيالى لا يوجد عند الصبى الرضيع فى أول نشأته ، ولذلك نرى الرضيع يولع بالشىء ليأخذه ، فإذا غاب عنه نسيه ، ولم تنازعه نفسه إليه ، حتى يكبر قليلاً فيصير بحيث إذا غاب عنه الشىء بكى وطلبه ، وذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله . وهذا قد يوجد عند بعض الحيوانات دون بعض ، فهو لا يوجد مثلا عند الفراش المتهافت على النار ، ولذلك يقذف بنفسه على النار لشغفه بالضياء ، فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى ضوء النهار ، فيلقى نفسه عليه فيتأذى به ؛ ولكنه يعاود ذلك مرة بعد أخرى ، ولو كان عنده ذلك الروح الحافظ للصور لما عاد ؛ ولكن الكلب إذا ضربه شخص بالعصا ، ورأى العصا مرة أخرى ، حاذرها وهرب منها .

والمرتبة الثالثة : مرتبة « الروح العقلى » الذى يدرك به الإنسان المعانى الخارجة عن الحس والخيال ، وهو الجوهر البشرى الخاص ، ولا يوجد عند البهائم ولا عند الأطفال ، وتتسع مدركات هذا الروح ومعارفه الكلية إذا ترجح نور العقل على نور العين .

والمرتبة الرابعة : هى مرتبة « الروح الفكرى » وهو الذى يحصّل العلوم والمعارف العقلية المحض ، فيوجد بينها تأليفات وازدواجات ، ويستنبط منها معارف شريفة ، ويستنتج منها معقولات جديدة ، ويظل يتزايد فى ذلك إلى ما شاء الله .

والمرتبة الخامسة : هى مرتبة « الروح القدسى النبوى » ، وهو الروح الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التى يقصر عنها الروح العقلى والروح الفكرى ، وإليه الإشارة بقول الله تبارك وتعالى : « وَكذلِكَ أَوْحَيْنا إليْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ، ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكِتابُ ولا الإيمانُ ، ولكنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنَا ، وإنّك لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ . صِراطِ اللهِ الَّذِى لهُ ما فى السَّمواتِ وما فى الأرْضِ ، أَلاَ إلىَ الله تصير الأُمُورُ » (الشورى ٥٢ ، ٥٣) .

* * *

وقد يتساءل متسائل عن مصير الأرواح بعد وفاة أرواحها .

إن المفهوم من النصوص الدينية أن الروح تفارق جسد صاحبها عند موته ، ولكن تظل لروحه صلةٌ ما بهذا الجسد ، وتصور حقيقةِ هذه الصلة ليس فى طاقة الإنسان ، ولما كانت الأرواح مختلفة الدرجات والمناصب ، وكان منها أرواح أخيار ، وأرواح أشرار ، فإن مصير الأرواح بعد الموت يختلف ، فقد أخبرت السنة النبوية المطهرة مثلا أن أرواح الشهداء تكون فى أجواف طيور خضر تطير تحت العرش ، وقد جاء فى كتابى « أدب الأحاديث القدسية » أنه لما أصيب من أصيب من المسلمين فى غزوة أُحد ، جعل الله تعالى أرواحهم فى طيور خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتاوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلِّغ إخواننا عنا أنَّا أحياء فى الجنة نُرْزَق ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال لهم ربهم : أنا أبلغهم عنكم . وأنزل الله فى ذلك قوله : « ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ

اللهِ أمْواتاً بلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِم ألاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ وأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُؤمِنين » . (آل عمران الآيات ١٦٩ – ١٧١) .

ويستنبط بعض الكاتبين عن الروح من النصوص الدينية أن أرواح الأنبياء والرسل تكون فى أعلى عليين ، فى الملأ الأعلى ، وبعض أرواح الشهداء تسرح فى الجنة كما تشاء ، وبعض الأرواح يكون موقوفاً على أبواب الجنة ، وبعض الأرواح يكون محبوساً فى الأرض ، والأرواح المتشابهة أو المتقاربة تتدانى وتتلاقى .

وإذا كان للروح تعلقها بصاحبها منذ البداية ، فلها تعلقها به وهو ما زال جنيناً فى بطن أمه ، ولها تعلقها به وهو حى يسعى فى الدنيا ، ولها تعلقها به فى أثناء نومه ، ولها تعلقها به أيضاً وهو فى المرحلة البرزخية ، ما بين الدنيا والآخرة ، أو ما بين الموت والبعث ، ولقد شفت السنة المطهرة نفوسنا فى هذا المجال بحديث جليل فيه تفصيل .

فقد روى البراء بن عازب قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغَرْقَد (اسم مكان) فأتانا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وهو يلحد له ، فقال : أعوذ بالله من عذاب القبر (ثلاث مرات) إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة ، وانقطاع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجىء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السِّقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها

فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض .

فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟

فيقولون : روح فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التى تليها .

إلى أن يقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأُعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟

فيقول : ربى الله .

فيقولان له : ما دينك ؟

فيقول : دينى الإسلام .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟

فيقول : هو رسول الله . .

فيقولان له : وما علمك بهذا ؟

فيقول : قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدقت .

فينادى منادٍ من السماء أن صَدَق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً من الجنة . فيأتيه من ريحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدَّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير .

فيقول أنا عملك الصالح . فيقول : ربِّ ، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح [١] ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجىء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة . اخرجى إلى سخط من الله وغضب . فتتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على ظهر الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ . فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ربه : « لا تفتَّح لهم أبْواب السَّماءِ ولا يَدْخُلونَ الجنَّةَ حتى يَلِجَ الجمَلُ فى سَمِّ الخِيَاطِ » . (الأعراف الآية ٤٠) .

فيقول الله تبارك وتعالى : اكتبوا كتابه فى سجين [٢] ، فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ النبى : « ومَنْ يُشْرِك باللهِ فكأنَّما خَرَّ مِن السَّماءِ فتخْطَفُهُ الطَّير أو تَهْوى بِهِ الرِّيحُ فى مكانٍ سَحِيقٍ » (الحج الآية ٣١) . فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ . فيقول : هاه هاه لا أدرى .

---

(١) المسوح : ثياب خشنة .

(٢) سجين : ديوان الشر . وقيل هو اسم علم للنار . وقيل هو الحبس .

فيقولان : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ . فيقول : هاه هاه لا أدرى . فينادى منادٍ من السماء أن كذب عبدى ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويُضَيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر ؟ !

فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة ! !

ويدل هذا النص على أن الروح لا تنفصل انفصالا تاماً عن صاحبها بعد موته ، بل يكون لها نوع تعلق به ، وقد جاء حديث آخر يؤكد ذلك ، قال فيه : « إذا حُمل الميت على نعشه رفرف روحُه فوق النعش ، ويقول : يا أهلى ويا ولدى ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله وغير حله ، فالغنى لغيرى ، والتبعة علىَّ ، فاحذروا مثل ما حل بى » !

كما أن هذا النص يشير إلى حالة النعيم ، أو حالة الشقاء التى يكون عليها فى المرحلة البرزخية بين الدنيا والآخرة ، وهو يشير كذلك إلى حساب القبر وعذابه أو نعيمه ، ويؤيد ذلك من القرآن قول الله تعالى عن آل فرعون « وحَاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدواً وعَشِياً ، ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب » « سورة غافر ٤٥ ، ٤٦ » فعرضهم على النار غدواً وعشياً لابد أن يكون قبل يوم القيامة ، والحديث عنهم بعد أن هلكوا ، فلزم أن يكون هذا العرض على النار بعد الهلاك وقبل البعث ، فلم يبق إلا أن يكون فى فترة البرزخ .

وكذلك جاء الحديث يقول : « القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما

حفرة من حفر النار » . وقد يؤكد هذا أنه جاء فى الحديث المتفق عليه أن النبى عليه الصلاة والسلام وقف على المكان الذى دفنوا فيه قتلى غزوة بدر من المشركين ، وجعل يناديهم بأسمائهم : يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإني وجدت ما وعدني ربى حقًّا ؟ . فقال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من أقوام قد جيَّفوا (أى ماتوا وصاروا جيفة) فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون جواباً .

* * *

والذى أفهمه من خلال الفكر الإسلامى أن الروح موجودة ، ولكن جوهر حقيقتها غير معروف لنا ، وأنها أسبق وأبقى وأشرف من المادة ، وأننا نستطيع التعرف إلى كثير من آثارها وظواهرها ، وأن آثارها تظهر لنا حين اتصالها بالجسد ، وأن الجسد لا قيمة له دون الروح ، وأن البحث قد شغل – وسيظل يشغل – العلماء والحكماء والشعراء والأدباء إلى ما شاء الله ، وكأن للروح جاذبية قاهرة تشدنا إليها ، فنسارع نحوها ، وكلما خطونا نحوها مرحلة بعدت عنا مراحل ، وتركت لنا على طريق البحث أشياء من « مخلفاتها » . وكأنها حسناء تبرقعت بحجبها وأستارها ، ولكن أشعة ساطعة من بهائها تنفذ من خلال حجبها فتشاغل أبصارنا وبصائرنا ، فنجد المسير إليها ، والطريق طويل طويل طويل .

وهذا مثلا هو الشيخ الرئيس الفيلسوف العالم ابن سينا : أبو على الحسين بن عبد الله المتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة . يصوغ بضعة وعشرين بيتاً فى موضوع الروح ، وتسمى هذه الأبيات « عينية ابن سينا فى الروح » ، فتملأ الدنيا وتشغل الناس ، وتوضع عليها الشروح بعد

الشروح ، وتصاغ فيها المعارضة بعد المعارضة ، وهذه الأبيات تؤكد لنا أن الروح جذابة ذات بهاء وسناء ، وأنها ممنعة مبرقعة ، وأنها - كما أشار ورمز فى قصيدته ، وكما صورت « دائرة المعارف » - جوهر قائم بذاته ، لا عرض من أعراض الجسم . ولعل أول شيء ينفى عنها « العرضية » كونها مستقلة تمام الاستقلال عن الجسم ، فبينما نجد الجسم محتاجاً إليها لا يتعين ولا يتحدد إلا إذا اتصلت به نفس - أو روح - معينة ، نجد النفس يمكنها أن تعيش منفردة ، لأنها جوهر بسيط ، والبسيط لا يفسد .

إن علاقة الروح بالجسم علاقة جوار عرضى، لا علاقة اتحاد ذاتى ، وكما هبطت الروح إلى الجسم من الملأ الأعلى وهى كارهة ، تفارقه عند الموت وهى كارهة ، لأنها ألفته مع طول الجوار ، وكأن الجسم سجن كثيف أو قفص ضيق يحول دون بلوغ الروح كمالها ، وكأنها لا تألف مجاورة الجسد إلا بحكم الاعتياد ، فإذا فارقته بعد اكتمال ملكاتها العقلية ، وبلوغها الكمال بالتأمل ، انكشف عنها الغطاء وأدركت السعادة .

وما الحياة الدنيا سوى مدرسة أُهبطت الروح إليها ، لتكتسب المطالب العقلية ، فإذا نالت هذه المطالب ، تمتعت بعد الموت بالسعادة الأبدية ، وإذن فسعادة النفوس الطيبة والأرواح الخيرة العارفة هى فى اتصالها بالعقل الفعّال ، وأما النفوس الشريرة التى ألفت السوء والإثم فإن جزاءها هو العذاب الدائم ، ومن هنا يكون الثواب فى الآخرة متناسباً مع كمال النفس فى الدنيا .

يقول ابن سينا فى قصيدته :

هبطت إليك من المحل الأرفــع ورقاءُ ذات تعزُّز وتمنعِ
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ، ولم تتبرقع
وصلتْ على كره إليك ، وربمــا كرهتْ فراقَك وهى ذات تفجع

أنفتْ وما أنست ، فلما واصلتْ ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل ، فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخُضَّع
تبكى إذا ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمى ، ولم تتقطع
وتظل ساجعةً على الدِّمن التى ... درستْ بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيف ، وصدَّها ... قفص عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرب المسير عن الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقةً لكل مخلَّف ... عنها حليف الترب غير مشيَّع
سجعت ، وقد كُشف الغطاءُ فأبصرت ... ما ليس يُدْرَك بالعيون الهُجَّع
وغدت تغرِّد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كلَّ من لم يرفع
فلأى شىء أهبطت من شامخ ... عال إلى قعر الحضيض الأوضع ؟
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طُويت على الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب ... لتعود سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين ، فخرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها ... حتى إذا غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لَمَ يلمع
أنعمْ برد جواب ما أنا فاحص ... عنه ، فنار العلم ذات تشعشع

وهذه الأبيات فيها من الرموز والإشارات عن الروح ومبدئها العلوى ، وهبوطها إلى عالم الأشباح والأجساد ، ورسالتها فى هذا العالم ، وعودتها إلى علوها ، مالا يكفى فيه ما قدمنا من تلخيص ، فمن أراد أن يسبح فى عالم الروح فليلجأ إلى شرح من شروح هذه العينية وهى كثيرة .



حديث العروبة فى القرآن

هناك عبارة طالما خطر معناها بالجنان ، وردد ألفاظها اللسان ، وجرى بحروفها القلم ، وهى تقول : « العروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة » . ولو أن معتزًّا بالعروبة غيوراً عليها أراد أن يزكيها أو يقويها ، ورجع إلى مائدة القرآن الكريم ، لوجد هذا الكتاب العزيز قد ألقى الشىء الكثير من ظلال التزكية والتكريم على هذه العروبة المؤمنة السائرة على صراط مستقيم .

ولحكمة بالغة يعلمها ربُّ القدر اختار الله سبحانه اللغة العربية لساناً للقرآن المجيد ، تمجيداً للعروبة ، وإبقاء على لغتها ، لأن القرآن كتاب الدهر ، والحق جل جلاله يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْر وإِنَّا لهُ لحافظون » ، (الحجر ٩) ، وما دام القرآن محفوظاً بوعد الله فلغته العربية محفوظة كذلك بعناية القدر ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

ولحكمة بالغة اختار الله أمة العروبة لتكون أمة الرسالة الإلهية الخاتمة الدائمة ، لتحمل هدى الله الباقى ، إلى أهل المشارق والمغارب ، فتكون المعلمة السابقة للإنسان ، تقود خطواته نحو بارئه العظيم . وينبغى لنا أن

نتذكر أن « العرب » هم ولد إسماعيل ، وأن إسماعيل هو ولد إبراهيم ، وأن إبراهيم هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء ، وإسماعيل هو جد حفيده « محمد » الذى حمل رسالة ربه ، وسلمها إلى هذه الأمة ، فأدى الأمانة إلى دعاتها الأولين من مؤمنى العرب ، وتركهم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك . و « محمد » الذى تزعَّم هذه الدعوة بفضل ربه عربى صميم ، من خلاصة طاهرة فى جبين هذه الأمة العربية ، وياله من اختيار حميد ، كله تكريم للعرب وتمجيد ، ومحمد هو القائل : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

فما نتيجة ذلك ؟ . نتيجته أنه – صلوات الله وسلامه عليه – خيار من خيار من خيار .

وقد نوه رسول الله الخاتم بهذه الصبغة العربية فى نسبه وسلالته ، فقال :

« أنا أعربكم » .

« أنا سابق العرب إلى الجنة » .

وروى الترمذى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سلمان ، لا تبغضنى فتفارق دينك !

قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟

قال : تبغض العرب فتبغضنى .

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ، ولم تنله مودتى » .

وروى ابن كثير فى تفسيره أن رجلا قال للرسول : يا رسول الله ،

بأبى أنت وأمى ، ما أفصحك ؟ ما رأيت الذى هو أعرب منك .

فقال : حق لى ، وإنما أُنزل القرآن بلسانى ، والله يقول : بلسان عربى مبين .

ولحكمة بالغة أيضاً اختار الله حَمَلَةَ الإسلام والقرآن الأوائل من العرب ، أمثال أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبى عبيدة ، وطلحة وغيرهم ؛ وفى هذا تمجيد أى تمجيد للعروبة .

ولحكمة بالغة كذلك اختار الله « الكعبة » فى مكة — وهى واسطة العقد فى أرض العروبة — لتكون قبلة للناس جميعاً فى العبادة والدعاء والاتجاه إلى الله : « فوَلِّ وجْهكَ شطْر المسْجد الحرَام ، وحيْثُ مَا كُنْتُم فولُّوا وجُوهَكم شَطْرَه»(سورة البقرة الآية ١٥٠) .

* * *

والقرآن الحكيم يمجد العرب المؤمنين ، وفى طليعتهم قائدهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيقول فى سورة الزخرف : « وإنَّه لَذِكْرٌ لَكَ ولقَوْمِكَ وسَوْف تُسْأَلون » (سورة الزخرف ٤٤) . ونفهم المعنى هنا على الوجه التالى :

إن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك — يا محمد — والذى يأمرك أن تستمسك به ، يرفع ذكرك وذكر قومك . ويعلى قدرك وقدرهم ، وهو سبب تشريف لك ولهم ، فاسمك تردده مئات الملايين من الشفاه ، مصلية عليك مسلمة ، وستظل هذه الشفاه تردد اسمك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ وقد رفع الله ذكر قومك بالإسلام وبالقرآن ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، أو كانوا على هامش الحياة ، وجعلهم أصحاب التبعة الكبرى فى مسيرة هذه الحياة ، وسيظلون أصحابها ماداموا معتدلين على طريقتها قائمين بتبعاتها ، وإن العظائم كفؤها العظماء .

وإنه لمجد عظيم أن ينزل القرآن الكتابُ الإلهى الخالد بلغة العرب ، ليوحد لهجاتهم ، ويضمن بقاء لغتهم ، والأمة العربية أمة وُلدت على الكلمة ، وقامت بالكلمة ، وعاشت للكلمة ، ومن هنا نتبين عظم الفضل الإلهى الذى تحقق لها . حينما جعل الله المعجزة الكبرى لنبيه العربى من جنس الكلمة العربية ، وهو القرآن المجيد .

ورواد القومية العربية يُجمعون — كما يعبر أحدهم — أن أهم العوامل التى تدفع إلى الاعتقاد بوحدة الأصل ، وإلى الشعور بالقرابة فى الشعوب ، هى وحدة اللغة والاشتراك فى التاريخ . فإن اللغة هى أهم الروابط المعنوية التى تربط الفرد بغيره من الناس ، لأن اللغة هى واسطة التفاهم بينهم ، وآلة التفكير عندهم ، ووسيلة نقل الأفكار والآراء .

ولهذا توجد وحدةُ اللغة نوعاً من الوحدة فى الشعور والأفكار ، وتربط الأفراد بسلسلة طويلة من الروابط الفكرية والعاطفية ، فيتقاربون ويتماثلون ويتعاطفون ، والأمم يتميز بعضها عن بعض باللغة ، وحياة الأمة تقوم على لغتها قبل كل شىء ، فإذا أضاعت الأمة لغتها فقد أضاعت نفسها ، لأن اللغة هى روح الأمة .

هكذا قرروا وأكدوا . ويمكننا أن نستضىء فى هذا المجال بقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ليست العربية من أحدكم بأب ولا أم ، وإنما هى اللسان — واللسان هو اللغة — فمن تكلم العربية فهو عربى » . وبهذا التفسير البصير للعروبة يبعد معنى التعصب الجنسى أو العِرْقى ، ومن هنا تتقوض تلك الفرية التى روَّج لها أهل الاستشراق المثوف حين قالوا : إن نزول القرآن بلغة العرب لون من العصبية ، مع أن الواقع ينادى بأن القرآن يدعو إلى مائدته الناسَ

جميعاً ، ولابد من اختيار إلهى للغة ينزل بها القرآن ، إذ لا يستقيم فى منطق أن ينزل بكل اللغات الكثيرة التى عرفها البشر ، والقرآن الحكيم هو القائل فى سورة الروم : « ومن آياته خلقُ السموات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وألوانِكُمْ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لِلْعَالِمِين » . (الآية ٢٢) .

ولقد كان نزول القرآن بلغة العرب بعثاً لها ، وتجديداً لشبابها ، وتمجيداً لشأنها ، حتى قال « رينان » : « من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر ، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذى بدء ، ثم ظهرت فجأة لغة كاملة سلسة كل السلاسة ، غنية إلى أبعد حد » . وهذا كله كان بفضل القرآن الكريم .

وأمام تمجيد هذه اللغة لم تملك معجمات اللغة زمامها ، فاندفعت تشارك فى هذا التمجيد .

فلنقرأ هذه السطور من معجم « تاج العروس من جواهر القاموس » :

« العربية هى هذه اللغة الشريفة ، رفع الله شأنها . قال قتادة : كانت قريش تجتنى – أى تختار – أفضل لغات العرب ، حتى صار أفضلُ لغاتها لغتها ، فنزل القرآن بها . واختُلف فى سبب تسمية العرب ، فقيل لإعراب لسانهم ، أى إيضاحه وبيانه ، لأنه أشرف الألسن وأوضحها وأعربها عن المراد ، بوجوه من الاختصار ، والإيجاز ، والإطناب والمساواة ، وغير ذلك » .

وقد امتد فضل القرآن على لغة العرب ، فجعلها لغة مقدسة : كانت لغة دنيا ، فجعلها لغة دنيا ولغة دين ، وجعلها شيئاً يعبد الناسُ ربَّهم به فى الصلاة والدعاء والمناجاة ، ونشرها بين العالمين ، فكلما دخل القرآن داراً ليحمل الإسلام إليها ، حمل معه الحروف العربية والكلمات العربية والتعبير العربى ، ممثلا فى أروع بيان وهو القرآن ، فنسخ لغات ، وأقام

مكانها لغة العرب : لغة القرآن .

وها هو ذا القرآن – على سبيل المثال – يحمل الحرف العربى إلى الأندلس ، ويفتن به أهلها من غير المسلمين ، فإذا هم يقبلون على العربية ويهيمون بها ، حتى نرى المؤرخ « دوزى » يورد فى كتابه عن الإسلام فى الأندلس رسالة للكاتب الإسبانى « ألفارو » يتفجع فيها على تضعضع لغة اللاتين والإغريق أمام قوة اللغة القرآنية ، ويقول فيما يقول :

« إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربى ، فاحتقروا اللاتينية ، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها » .

ويقول آخر : « إن إخوانى المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح . فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ . واأسفاه ، إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً أولغةً غير الأدب العربى واللغة العربية ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ، ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون فى كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، فى حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون الإصغاء إليها ، محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات .

فيا للأسى ، إن المسيحيين قد دنسوا لغتهم فلن تجد منهم اليوم واحداً فى كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب ، وقد ينظمون بها شعراً يفوق شعر العرب أنفسهم فى الأناقة وصحة الأداء » .

* * *

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى وصف القرآن الكريم بأنه « عربى » عشر مرات فى عشرة مواطن .

أكان ذلك عبثاً ؟ . . معاذ الله ! . . بل لأمر جليل كرر الله جل علاه هذا الوصف وأكده .

يقول الله تعالى فى سورة يوسف : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (الآية ٢) : أى إننا أنزلنا هذا الكتاب الإلهى ، وهو القرآن الكريم ، ليبين لكم بلغتكم العربية من أحكام الدين وتعاليم الشريعة ، وأخبار الرسل وأمور الحكمة ، مالم تكونوا تعلمونه قبل هذا القرآن ؛ لعلكم تدركون معانيه ، وتفهمون مغازيه ، فتهتدون إلى مطالب الدين والدنيا ، وأسباب السعادة فى الحس والنفس ، ووسائل الإصلاح فى الحال والمآل .

ويقول فى سورة الرعد : « وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ » (الآية ٣٧) : أنزل الله القرآن متضمناً حكمةً ترجم عنها بلسان العرب ، أو أنزله مشتملا على جميع التكاليف ، فهو أساس لجميع الأحكام ، فشرف الله به رسوله ، وفضله على من سواه .

ويقول فى سورة النحل : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ » (الآية ١٠٣) : افترى المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى يلقنه القرآن إنما هو شخص من الناس أعجمى اللغة ، لا يفصح ولا يبين ، فكيف يصح هذا مع أن القرآن كتاب مبين بلغة العرب ، لا يستطيع الإنس ولا الجن أن يعارضوا سورة منه ، فهو أفصح ما يكون من العربية .

ويقول فى سورة طه : « وكَذلِكَ أنزلْناهُ قُرْآناً عربيًّا وصرَّفْنا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهم يَتَّقُونَ أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذكْراً » . (الآية ١١٣) :
أى أنزلنا هذا القرآن بشيراً ونذيراً ، بلسان عربى مبين فصيح ، لا لبس فيه ولا عىّ .

ويقول فى سورة الشعراء : « وَإِنَّهُ لتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتكُونَ مِنَ المُنذِرِين ، بلسان عربىّ مُبِين » . (الآيات ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٥) .

إن هذا القرآن المجيد قد أنزله الله عليك ، وأوحاه إليك ، نزل به جبريل عليه السلام ، ذلك المَلَك الكريم الأمين ، ذو المكانة العالية عند الله ، لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له . وقد أنزله الله باللسان العربى الفصيح ، الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعذر ، مقيماً للحجة ، دليلا على المحجة .

ويقول فى سورة الزمر : « ولقد ضَرَبْنا للنَّاس فى هٰذا القُرْآنِ منْ كلِّ مثَل لَعلَّهم يَتذكَّرونَ ، قُرْآناً عَرَبيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَعلَّهُم يتقون » (الآيتان ٢٧ و ٢٨) .

لقد بيَّنا للناس فى هذا القرآن الحكيم بضرب الأمثال التى تقرب المعانى إلى الأذهان ، وهوقرآن بلغة عربية ذات بيان ، ووضوح وبرهان ، فلا اعوجاج فيه ولا لبس .

ويقول فى سورة فصلت : « تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمن الرَّحِيم ،كِتَابٌ فُصِّلتْ آياتهُ قُرْآناً عربيًّا لِقَوْمٍ يعْلَمونَ » (الآيتان ٢ و ٣) : إن القرآن منزل من مصدر الرحمة الواسعة الشاملة ، وهو كتاب تجلت معانيه وأحكمت آياته بلغة عربية ، فمعانيه مفصلة ، ومفاهيمه واضحة غير مشكلة ، لأنه كتاب

فصلت آياته من لدن حكيم خبير .

ويقول فى سورة الشورى : « وكَذلِكَ أوْحَيْنا إليْكَ قُرْآناً عربيًّا لِتُنْذِرَ أمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها وتُنْذِرَ يوْمَ الجَمْع لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فى الجنَّةِ وفَرِيقٌ فى السَّعِيرِ » (الآية ٧) :

أى كما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك قرآناً عربيًّا ، واضحاً جليًّا ، لتنذر أم القرى مكة ، وسائر البلاد من حولها شرقاً وغرباً ، وتنذرهم يوم القيامة الذى يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ولا شك فى وقوعه وأنه كائن لا محالة .

وحسب مكة شرفاً – وهى واسطة عقد الأرض العربية – أن يصفها القرآن بأنها أم القرى ، وأن يقول فيها الرسول وهو يخاطبها كما روى ابن كثير : « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت » .

ولماذا اختار الله قومَ أم القرى ليكونوا حملة هذه الرسالة فى أول أمرها من حول زعيمها محمد ؟ ولماذا اختيرت هذه الأرض بالذات ؟ . أكان ذلك اعتباطاً أم لحكمة تتبعها حِكَم ؟ . يجيب عن ذلك صاحب « فى ظلال القرآن » فى توسع منه هذه الكلمات :

«كانت هناك صفات الشعب العربى نفسه ، من الشجاعة والأريحية والنخوة ، وهى استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

وقد كانت الجزيرة فى ذلك الزمان تزخر بحضانة عميقة لبذور نهضة ، وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تتهيأ لهذه النهضة المذخورة لها فى ضمير الغيب ؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة

من رحلاتها إلى أطراف إمبراطوريتى كسرى وقيصر ، وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ، ورحلة الصيف إلى الشمال : المذكورتان فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة قريش :

«لإِيلافِ قُرَيشٍ إِيلافِهِمْ ، رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ ، فلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البَيْتِ ، الَّذِى أطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ من خَوْفٍ» .

وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب ، مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التى اختيرت لها الجزيرة . فلما جاءها الإسلام استغل هذا الرصيد كله ، ووجَّه هذه الطاقة المختزنة ، التى كانت تتهيأ كنوزها لتفتح ، ففتحها الله بمفتاح الإسلام ، وجعلها رصيداً له وذخراً .

ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام فى الصحابة فى الجيل الأول فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وحمزة والعباس وأبى عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد ، وسعد بن معاذ وأبى أيوب الأنصارى ، وغيرهم وغيرهم من تلك العصبة التى تلقت الإسلام فتفتحت له وحملته ، وكبرت به من غير شك وصلحت ، ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتمام .

وليس هنا مكان التفصيل فى وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة ، وصيانة نشأتها ، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها ، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة التى جاءت للبشرية جميعها ، وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة – صلى الله عليه وسلم – فذلك أمر يطول ، ومكانه رسالة خاصة مستقلة ، وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة ، التى يظهر التدبرُ والتفكر بعض أطرافها ، كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة .

وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، وخلصت كلها للإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغربت ، وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنسانى الذى قام على أساسها للبشرية جميعها – كما هى طبيعة هذه الرسالة – وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ونشأتها .

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، ويتمحص هذا المهد للعقيدة التى اختير لها على علم ، كما اختير لها اللسان الذى يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعاً ، فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها فى أقطار الأرض ، ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعى ما صلحت لحمل هذه الدعوة أولا ، وما صلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانياً ، وقد كانت اللغة كأصحابها أصلح ما تكون لهذا الحدث الكونى العظيم » ! !

ويقول القرآن فى أول سورة الزخرف :

«حٓمٓ والكِتابِ المُبِينِ ، إنَّا جعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبيًّا لعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وإنَّهُ فى أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيم » :أى وحق هذا الكتاب الواضح ، الجلى المعانى والألفاظ ، إنا أنزلناه بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ،لعلكم تفهمونه وتتدبرونه ؛ وهو شريف المكانة فى الملأ الأعلى ، وهو فى اللوح المحفوظ ذو مكانة عظيمة وشرف كبير .

وإنا نُقْسم بحاميم وبالكتاب المبين على الغاية من جعل القرآن المجيد فى صورته العربية التى نزل بها إلى العرب : « إنَّا جعلناه قرآناً عربيًّا لعلكم

تعقلون » . أى تعقلون النعمة الكبرى التى أنعم الله بها عليكم حين نزله بلغتكم ولسانكم ، وحين اختاركم لحمل رسالته ، إذ هو الذى يعلم مدى صلاحيتكم لحملها ، وهذا الكتاب – وهو القرآن العربى – كتاب علىٌّ حكيم ، فلابد لكم من أن تقدروا هذه الهبة الإلهية الجليلة التى امتن الله بها عليكم ، وإلا لم تكونوا من العقلاء .

ويقول القرآن فى سورة الأحقاف : « وهذا كتابٌ مُصَدِّقٌ لساناً عربيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وبُشْرَى للمحْسِنِينَ » (الآية ١٢) إن هذا القرآن مصدق لما سبقه من كتب الله تبارك وتعالى ، وهو الكتاب الخاتم الجامع ، قد جعله الله بلسان عربى فصيح ، لتبقى به لغة العرب ، وليكون وعيداً منذراً للظالمين ، وبشرى كريمة للمحسنين .

هكذا هكذا كما رأيت من قبل . . .

يذكر الله عروبة القرآن عشر مرات فى عشرة مواطن . . .

أيكون وراء ذلك التنويه المؤكد الموطد تنويه ؟

* * *

وتتضمن إشارات القرآن الحكيم مزيداً من التكريم للعروبة والتفضل عليها ، حتى ذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى فى سورة إبراهيم : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجرةٍ طيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فِى السَّمَاءِ . تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » (الآيتان ٢٣ و ٢٤) .

نزل فى شأن « قريش » وهى عماد العرب ، وأن الشجرة الطيبة هى قريش ، لأن أصلها كريم. وإن صح هذا القول فلابد أن يكون المراد من قريش هم الذين استقاموا منها فجمعوا إلى طيب الأصل طيب العمل .

وقد نوه القرآن بتكريم الله لقريش ، وفضله عليها ، فذلك حيث نزلت

السورة التي تسمى « سورة قريش » وفيها كما سبق يقول الحق : « لإِيلافِ قريشٍ إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ ، فلْيَعْبُدوا رَبَّ هذَا البَيْتِ ، الَّذِى أطْعَمَهُم مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ » .

وفى تفسير هذه السورة يقول الإمام محمد عبده :

« كانت لقريش رحلتان : إحداهما إلى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى إلى الشام فى فصل الصيف ، يذهب التجار فيهما للكسب ، واجتلاب الربح ، والاستكثار من الرزق ، وكانت قوافل قريش معروفة عند العرب ، محترمة فى نفوسهم ، لأنهم سكان مكة ، وجيران بيت الله ، فكانوا يذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم السوء ، على كثرة ما كان بين العرب من النهب والسلب .

فكان احترام البيت ضرباً من القوة المعنوية التى كانت تحتمى بها قريش فى أسفار أرباب التجارة منها . ولهذا ألفت نفوسهم الأسفار ، وتعلقت بالرحيل لاستدرار مادة الرزق .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمته عندهم ، واستطالت الأيدى بالتعدى على سفارهم ، لنفروا من تلك الرحلات ، وكرهتها نفوسهم ، فقلت وسائل الكسب بينهم ، لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج الناس إليها فيأتونهم — وهم فى عقر دارهم — ليأخذوا منها ؛ فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق ، وتنقطع عنهم ينابيع الخير .

وهذا الإجلال — الذى ملك نفوس العرب من البيت الحرام — إنما هو تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمته برد الحبشة الذين أرادوا هدمه وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجراً ، بل قبل أن يدنوا منه ،

بل زاد ذلك فى إجلاله ، لتدوم ألفتهم للأسفار والترحل فى الصيف والشتاء .

فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى حماه ، ومكّن منزلته من النفوس ، وقد أطعمهم بذلك ، وأوسع لهم من الرزق ، ولولا ذلك لكانوا فى جوع وضنك عيش ، وآمنهم من التعدى وتطاول الأيدى إلى أموالهم وأرواحهم ، ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان » .

* * *

وهناك شبهة تحتاج إلى التمحيص والتفنيد .

هناك من يسىء فهم القرآن ، فيدعى أن القرآن قد ذم « العرب » لأنه قد وصف « الأعراب » بأنهم أشد كفراً ونفاقاً ... وكأن هذا المسىء يعمى أو يتعامى عن اختلاف كلمتى « العرب » و« الأعراب » فى المبنى والمعنى ، فيخلط خلط الجاهل أو المتحامل . . .

من الحق أن القرآن قد ذم « الأعراب » فى مواطن ، ولكن هناك فرقاً أساسيًّا واضحاً بين « العرب » و « الأعراب » ، والذم الوارد متعلق بالأعراب ، ولم يرد منه شىء يتعلق بالعرب .

إن لفظة « الأعراب » وردت فى القرآن الكريم عشر مرات فى عشرة مواطن ، منها ثمانية مواطن من قبيل الذم ، يقول القرآن فى سورة التوبة : « الأَعْرابُ أَشدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأَجْدَرُ أَلَّا يعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزلَ اللهُ عَلَى رسُولِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (الآية ٩٧) .

ويقول فيها : « ومِنَ الأعْراب مَنْ يتَّخذُ ما يُنْفِقُ مَغْرماً ويتربَّصُ بِكمُ الدَّوائرَ عَلَيْهمْ دائرةُ السَّوْءِ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ » (الآية ٩٨) .

ويقول فيها : « وجاءَ المعذِّرونَ مِنَ الأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُم وقَعدَ الَّذِينَ كذَبُوا اللهَ ورسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذين كَفَرُوا مِنْهم عذابٌ أليمٌ » (الآية ٩٠) .

ويقول فيها : « ومِمَّنْ حَوْلكُم من الأَعْراب مُنافِقُونَ ومِنْ أهْلِ المَدِينةِ مَرَدُوا علَى النِّفاق لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهم سَنُعَذِّبُهم مرَّتَيْن ، ثمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَاب عظيم » (الآية ١٠١) .

ويقول فيها : « ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ ومَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ أنْ يَتخلَّفُوا عَنْ رسُولِ اللهِ ولا يَرْغَبُوا بأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » (الآية ١٢٠) .

ويقول فى سورة الأحزاب : « يَحْسَبُونَ الأحْزابَ لَمْ يذْهَبُوا وإِنْ يَأْتِ الأَحْزابُ يَودُّوا لَوْ أنَّهم بادُون فى الأَعْرابِ يَسْأَلُون عَنْ أنْبائِكُم ولَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قليلاً » (الآية ٢٠) .

ويقول فى سورة الفتح : « سَيقُولُ لَكَ المخلَّفُون مِنَ الأَعْراب شَغَلَتْنا أمْوَالُنا وأهْلُونا فاسْتَغْفِرْ لنَا يقُولُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ ما ليْسَ فى قُلوبِهِمْ قلْ فَمَنْ يمْلِكُ لكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أوْ أرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللهُ بما تَعْملونَ خبيراً » . (الآية ١١) .

ويقول فى سورة الفتح أيضاً : « قُلْ للمُخلَّفِينَ مِنَ الأَعْرابِ سَتُدْعَوْن إِلَى قَوْمٍ أولى بأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهمُ أوْ يُسْلمُونَ ، فإِنْ تُطِيعُوا يؤْتِكُمُ اللهُ أجْراً حَسَناً ، وإِنْ تَتولَّوْا كما تَوَلَّيْتُم مِنْ قبلُ يُعذِّبْكُم عَذاباً أليماً » (الآية ١٦) .

هكذا تحدثت الآيات فى ذم « الأعراب » .

ولكن « الأعراب » غير « العرب » .

فى « النهاية » : الأعراب سكان البادية من العرب الذين لا يقيمون فى الأمصار ، ولا يدخلونها إلا لحاجة .

وفى « مفردات القرآن » : الأعراب سكان البادية ، والأعراب — فى التعارف — صار اسماً للمنسوبين إلى سكان البادية .

وسكان البادية هم المتنقلون ارتياداً للكلأ ، وتتبعاً لمساقط الغيث والنسبة

إليهم أعرابى ، والأعرابى يفرح إذا قيل له : يا عربى ، كما أن العربى يغضب إذا قيل له : يا أعرابى .

انظر .. أرأيت ؟ ! .. ولذلك عُدَّ من الكبائر التعرب بعد الهجرة ، أى العودة إلى البادية . وكان من رجع بعد الهجرة إلى البادية – دون عذر – عدوه كالمرتد .

وفى « تاج العروس » : يقول الأزهرى : والذى لا يفرق بين العرب والأعراب ، والعربى والأعرابى ، ربما تحامل على العرب بما يتأوله فى هذه الآية : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً » ، وهو لا يميز بين العرب والأعراب . ولا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار : أعراب . وإنما هم عرب ، لأنهم استوطنوا القرى العربية وسكنوا المدن ، سواء منهم الناشئ بالبدو ثم استوطن القرى ، والناشئ بمكة ثم هاجر إلى المدينة ، فإن لحقت طائفة منهم بأهل البدو بعد هجرتهم ، واقتنوا أنعاماً ، ورعوا مساقط الغيث بعد ما كانوا حاضرة أو مهاجرة ، قيل : قد تعربوا ، أى صاروا أعراباً بعد ما كانوا عرباً . . .

إذن استنارت المحكمة ، وجاءت براءة للعرب من معجمات اللغة تسلهم من حزب « الأعراب » ، حتى لا يلحق شىء من مذمة « الأعراب » الكافرين المنافقين بحزب « العرب الشرفاء المؤمنين » .

أما بعد ، فما لا شك فيه أن كتاب الله تعالى « القرآن » قد تضمن الكثير من الإشارات إلى التنويه بالعروبة ولغة العرب ، وأن الإسلام قد أكسب العرب المجد والعزة حين استجابوا لدعوته : دعوة الله عز وجل .

فلنواصل ترديدنا لقولنا : إن العروبة وعاء الإسلام ، وإن الإسلام روح العروبة » .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .



الهجرة بين القرآن والسّنة

جاء فى « معجم مقاييس اللغة » أن مادة « هجر » لها أصلان ، أحدهما يدل على قطع أو قطيعة ، والآخر يدل على شد شيء أو ربطه ، وهاجر القوم من دار إلى دار : تركوا الأولى للثانية ، وإذا كانت الهجرة فى الأصل مشتقة من الهجر ، وهو ضد الوصل ، فإن الكلمة قد غلبت على الخروج من أرض إلى أرض . والمهاجر – بفتح الجيم – هو موضع الهجرة . والتهجير : التبكير إلى الشيء ، وفى الحديث : « لو يعلم الناس ما فى التهجير لاستبقوا إليه » . والهُجْر – بضم فسكون – هو الفحش فى الكلام .

هذا بعض حديث اللغة عن مادة « الهجرة » . فما حديث القرآن الكريم عنها ؟

لقد وردت هذه المادة فى التنزيل المجيد فى ثلاثين موضعاً ، وقد وردت بمعنى الترك والبعد والقطع فى قوله تعالى فى سورة المدثر : « والرُّجْزَ فاهْجُر » (الآية ٥) .

وفى سورة مريم : « لئنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِى مليًّا » (الآية ٤٦) .

وفى سورة المزمل : «واصْبِرْ علَى ما يقُولُون واهْجُرهُمْ هجْراً جَميلا » (الآية ١٠) .

وفى سورة النساء : « واللّاتِى تخافُونَ نشُوزَهُنَّ فعِظُوهُنَّ واهْجُروهنَّ فى المضاجع » (الآية ٣٤) . وفى سورة الفرقان : « وقال الرَّسُول يَاربِّ إنَّ قَوْمِى اتَّخذُوا هذا القُرْآنَ مَهْجوراً » (الآية ٣٠)

وجاءت المادة فى موضع واحد بمعنى الهذيان والقول الفاحش ، فذلك فى سورة المؤمنون : « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ » (الآية ٦٧) أى تهذون بالطعن فى الآيات .

ولكن الأغلب فى استعمال القرآن الكريم لمادة الهجرة هو أن يراد بها معنى الارتحال والانتقال من مكان إلى مكان ، أو من بلد إلى بلد ، فراراً من ضلال أو أذى ، وطلباً لموطن سكينة وطمأنينة ، وهذه الهجرة هى التى نوه بها القرآن ودعا إليها ، وزكّى سيرتها ، ومدح أهلها ، وذم المتقاعسين عنها بعد لزومها ووجوبها ، ففى سورة النساء نجد هذه الآيات :

« إنَّ الَّذِينَ تَوفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِى أنْفُسِهِم قالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قالُوا كنّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأرْضِ . قالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أرْضُ اللهِ واسعةً فتهاجِرُوا فِيها ؟ فأولئِكَ مأوَاهُم جهَنَّمُ وساءَتْ مَصِيراً . إلَّا المُستضْعَفِينَ من الرِّجال والنِّساءِ والوِلْدانِ ، لا يَسْتَطِيعُونَ حيلةً ولا يَهْتَدُونَ سَبيلاً . فأولئكَ عَسَى الله أنْ يعْفُو عنْهمْ ، وكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفورًا . ومَنْ يُهاجِرْ فِى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فى الأرْضِ مُراغماً كثيراً وسَعَةً ، ومن يَخْرُجْ من بَيْتِهِ مُهاجرًا إلى اللهِ ورسُولِهِ ثم يُدْرِكهُ المَوْتُ فَقَدْ وقَعَ أجْرُهُ علَى اللهِ ، وكانَ اللهُ غَفوراً رَحِيماً » (الآيات ٩٧ — ١٠٠) .

وهذه الآيات تجلو لنا عدة أمور ، منها :

١ — الإسلام يطالب بالهجرة عند التعرض للذل ، أو تعرض العقيدة للضياع .

٢ – من يقدر على الهجرة عند وجوبها ولا يهاجر يعرِّض نفسه للعذاب الإلهى الأليم .

٣ – العاجزون عن الهجرة لضعف أو قلة حيلة أو مانع قهرى ، يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم .

٤ – أرض الله تعالى رحيبة فسيحة ، فيها متسع لمن ضاق به جانب من جوانبها أو طغى عليه .

٥ – الهجرة لله كالجهاد فى سبيله ، فمن مات وهو على طريقها ضمن له ربه أجرَ المجاهدين .

ومادام للهجرة فى سبيل الله تعالى هذه المكانة فلا غرابة أن يعطر القرآن الحكيم حديثها ، وأن يكرر ذكرها ، وأن يمجد أهلها . فنجد فى سورة البقرة : « إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هاجَرُوا وجاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ أولئك يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رَحِيمٌ » (الآية ٢١٨) . وفى سورة آل عمران : « فالَّذِينَ هاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وأوذوا فِى سَبِيلِى وقاتَلُوا وقُتِلُوا . لأُكفِّرَنَّ عَنْهم سَيِّئاتِهِم ، ولأُدْخِلَنَّهم جنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ ثواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ واللهُ عِنْده حُسْنُ الثوابِ » . (الآية ١٩٥) . وفى سورة التوبة : « الَّذِينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ بأمْوالِهِم وأنْفُسِهِم أعْظَمُ درجةً عِنْدَ اللهِ وأُولئِكَ هُمُ الفائزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ ربُّهمْ برحْمةٍ مِنْهُ ورِضْوانٍ وجنَّاتٍ لَهُم فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خالِدِينَ فِيها أبَداً إنَّ اللهَ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظِيمٌ » (الآيات ٢٠ – ٢٢) . وفى سورة النحل : « والَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بعْدِمَا ظُلِمُوا لنبوِّئَنَّهم فِى الدُّنْيا حَسَنةً ولأَجْرُ الآخِرَةِ أكْبَرُ لوْ كانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وعلَى ربهم يَتوكَّلُونَ » (الآيتان ٤١ ، ٤٢) . وفى السورة نفسها : « ثم إنَّ ربَّكَ للَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْد ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وصَبَرُوا إنَّ ربَّكَ مِنْ بَعْدها لغفورٌ

رحيم » (الآية ١١٠).وفى سورة الحج : « والَّذِينَ هاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخلًا يَرْضَوْنَهُ وإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ » (الآيتان ٥٨ و ٥٩) .

* * *

وقد فهمنا من آية النساء التى سبقت ، وهى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظَالِمِى أنفُسِهم قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسعةً فتهاجِرُوا فيها فَأُولَئِكَ مأواهم جَهَنَّمُ وسَاءَتْ مَصِيراً » أن الممتنع عن الهجرة المطلوبة مع القدرة عليها يكون آثماً ، لأن الهجرة حينئذ تكون واجبة مفروضة ، وقد قال الإمام مالك بوجوبها .

وحينما تعرض جار الله الزمخشرى لتفسير الآية قال فيما قال : « وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب ، لبعض الأسباب والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر — أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، حقت عليه المهاجرة ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : (من فر بدينه من أرض إلى أرض — وإن كان شبراً من الأرض — استوجبت له الجنة ، وكان رفيق أبيه إبراهيم ، ونبيه محمد) عليهما الصلاة والسلام[١].اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى ، فاجعلها سبباً فى خاتمة الخير ، ودرك المرجو من فضلك ، والمبتغى من رحمتك ، وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك ، بجوارك فى دار الكرامة ، يا واسع المغفرة » .

وإذا كانت الهجرة تقع فراراً من شىء أو طلباً لشىء ، فإن كُلًّا منهما

(١) استشهد الزمخشرى بهذا الحديث ، وقد علق عليه ابن حجر العسقلانى بقوله : « أخرجه الثعلبى فى تفسير العنكبوت ، من رواية عباد بن منصور الناجى عن الحسن مرسلا » .

أقسام ، فهجرة الفرار من شيء -كما ذكر ابن العربي - ستة أقسام ،
الأول : الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وقد كانت فرضاً في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذه الهجرة مفروضة باقية إلى يوم القيامة ، والتي انقطعت بفتح مكة هي القصد إلى النبي حيثما كان .

الثاني : الخروج من أرض البدعة ، كأن يكون فيها من يسبون السلف أو يأتون المنكر ، لقول الله تعالى في سورة الأنعام : « وإِذَا رأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فأعْرِضْ عَنْهمْ حتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيرِهِ ، وَإمَّا يُنْسِيَنَّك الشَّيطانُ فلا تَقْعُدْ بعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقومِ الظَّالِمِينَ » (الآية ٦٨) .

الثالث : الخروج من أرض يغلب عليها الحرام ، لأن طلب الحلال فريضة على كل مسلم .

الرابع : الفرار من الأذية في البدن ، وهذه رخصة من فضل الله تعالى ، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام . فإنه لما خاف من قومه قال : « إني مهاجر إلى ربي » وقال : « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » . وقال القرآن عن موسى : « فخرج منها خائفاً يترقب » .

الخامس : الخروج لخوف المرض في البلاد الوخمة ، والانتقال إلى الأرض الطيبة .

السادس : الفرار خوف الأذية في المال ، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، والأهل مثله وأوكد .

والخروج لطلب الشيء قسمان : طلب دين ، وطلب دنيا ، وطلب الدين يتعدد بتعدد أنواعه ، فقد يكون سفراً للعبرة ، لقوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَسيروا فِي الأَرْضِ فينْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » . (فاطر

الآية ٤٤) . وقد يكون سفراً للحج وهو فرض على من استطاع إليه سبيلا ، وقد يكون الخروج للجهاد وهذا له أحكامه المقررة ، فقد يكون فرض كفاية وقد يكون فرض عين ، وقد يكون السفر لطلب الضرورى من أمور المعاش وهذا مفروض عليه شرعاً ، ويجوز السفر لهذا الغرض إذا كان يريد التجارة وكسب الزائد عن القوت ، لقوله تعالى : « لَيْسَ عليكُمْ جُناحٌ أنْ تبْتَغُوا فَضْلاً منْ ربِّكُم » (البقرة ١٩٨) . وقد يكون الخروج لطلب العلم ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد يكون الخروج بنية العبادة فى أماكن نص عليها الشارع ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى بالمدينة ، والمسجد الأقصى » ، وقد يكون الخروج للمرابطة فى الثغور ، وقد يكون لزيارة الإخوة فى الله بنية الحب فى الله تعالى .

وأما الخروج لطلب الدنيا فأنواعه كثيرة تختلف باختلاف مقاصد العباد وتنوع البلاد .

ولقد أورد « تفسير المنار » رأى الإمام محمد عبده فى الهجرة ، بعد أن ذكر خلاف الفقهاء فى وجوبها وبقائه أو عدم بقائه ، ونص على أن المالكية يقولون بالوجوب ، ثم قال : « ولا معنى عندى للخلاف فى وجوب الهجرة من الأرض التى يُمنع فيها المؤمن من العمل بدينه ، أو يؤذى فيها إيذاءً لا يقدر على احتماله ؛ وأما المقيم فى دار الكافرين ، ولكنه لا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه ، بل يمكنه أن يقيم جميع أحكامه بلا نكير ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، وذلك كالمسلمين فى بلاد الإنكليز لهذا العهد ، بل ربما كانت الإقامة فى دار الكفر سبباً لظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه » .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث عن الهجرة مصرحاً بمادتها في عدة مواطن منه ، فإنه قد تحدث عنها في مواطن أخرى بمادة « الإخراج » ، فقال في سورة البقرة : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الْحَرَامِ وإخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ » (الآية ٢١٧) . وقال في سورة التوبة : « ألاَ تُقاتِلُونَ قَوْماً نكثُوا أيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بإخْراجِ الرَّسُولِ » (الآية ١٣) . وقال في سورة محمد : « وكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أشدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُم فلا ناصِرَ لهم » (الآية ١٣) . وقال في أول سورة الممتحنة : « يأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تتَّخذُوا عَدوِّي وعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بالمَوَدَّةِ وقدْ كفَرُوا بما جاءَكُمْ مِنَ الْحقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وإيَّاكُمْ أنْ تُؤمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُم . إنْ كُنْتُم خرجتم جهاداً في سَبِيلي وابْتِغاءَ مرْضاتي » وفي سورة الأنفال : « وإذْ يمْكُرُ بِكَ الَّذِين كَفَرُوا ليثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ ويَمْكُرُونَ ويمْكُرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكِرِينَ » . (الآية ٣٠) .

وليس المراد من إخراج المشركين للرسول والمؤمنين المهاجرين من ديارهم بغير حق ، أن المشركين تولوا طردهم وإخراجهم بالفعل ، مجتمعين أو متفرقين ، فإن كثيراً من المهاجرين قد خرج مستخفياً ، كما خرج النبي عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وإنما المراد أنهم كانوا سبباً في هجرة هؤلاء المؤمنين بالكفران الذى كان من المشركين وعنادهم واضطهادهم للمؤمنين وإيذائهم للمستضعفين منهم .

ولا شك أن أفضل أنواع الهجرة التي تحدث عنها القرآن الكريم هي هجرة سيد البشرية وإمام الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه . ولقد تجلت في حادث الهجرة عناية الله تعالى برسوله وحفظه له . وحسبنا أن

نسمع فى ذلك قول الحق جل جلاله فى سورة التوبة : « إِلا تنْصُروه فقَدْ نَصَرهُ الله ، إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ ، إذْ هُما فِى الغَار ، إذْ يقُولُ لِصاحِبِه لا تَحْزن إنَّ اللهَ مَعَنا فأنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيه وأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وجَعَلَ كلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وكلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيا واللهُ عزيزٌ حَكِيمٌ » (الآية ٤٠) .

ولو عرفنا الظرف الدقيق الحرج الذى كانت عنده الهجرة لأدركنا مبلغ عناية الله بنبيه ، ولرأينا مبلغ المكر الأثيم الذى أراده المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، وأبو نعيم والبيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس رضى الله عنه ، روايات منها هذه الرواية التى نقلها السيوطى فى « الدر المنثور » ، عن ابن عباس قال :

إن نفراً من قريش ، ومن أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، واعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعتُ بما اجتمعتم له ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم منى رأى ونصح . وقالوا : أجل فادخل . فدخل معهم فقال :

انظروا فى شأن هذا الرجل ، فوالله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره . فقال قائل : احبسوه فى وثاق ، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير ونابغة ، فإنما هو كأحدهم .

فقال عدو الله الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ،

فانظروا فى غير هذا الرأى .

فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وأين وقع ، وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وكان أمره فى غيركم .

فقال الشيخ النجدى : لاوالله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه ، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن عليه ، ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم .

قالوا : صدق والله ، فانظروا رأياً غير هذا .

فقال أبوجهل : والله لأشيرن عليكم برأى لا رأى غيره .

قالوا : وما هذا ؟

قال : نـأخذ من كل قبيلة غلاماً وسطاً شابًّا نهدًا ، ثم يُعْطَى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد ، فإذا قتلتموه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه .

فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى ، القول ما قال الفتى لا أرى غيره.

وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له ، فأتى جبريل عليه السلام النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأمره ألا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك فى الخروج ، وأمرهم بالهجرة ، وافترض عليهم القتال ، فأنزل الله « وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خيْرُ الماكِرِينَ » (سورة الأنفال الآية ٣٠) .

* * *

ومن الملامح التى نلحظها فى حديث القرآن الكريم عن الهجرة أنه يقرنها بالإيمان فى كثير من المواطن ، وكأنه يشير بذلك إلى أن الهجرة ثمرة من ثمرات الإيمان ، لأن من آمن بالله واستجاب له ، يخرج مهاجراً فى سبيل ربـه ، إذا رأى أن فى هذه الهجرة نصراً لدينه أو حماية لعقيدته ، ولذلك نجد القرآن فى سورة البقرة يقول : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ أُولئكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ واللهُ غفورٌ رحيم » (الآية ٢١٨) . ويقول فى سورة التوبة : « الَّذِينَ آمنُوا وهاجرُوا وجاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ بأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِم أعْظَمُ دَرَجةً عنْدَ اللهِ وأولئِكَ هُمُ الفائِزُون » . (الآية ٢٠) وفى سورة الممتحنة : « يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جاءَكُمُ المؤْمِناتُ مُهاجرات فامْتحِنُوهُنَّ اللهُ أعْلَمُ بإيمانهنَّ فإنْ علمتمُوهُنَّ مُؤمِنات فلا تَرْجِعُوهُنَّ إلَى الكُفَّارِ لا هُنَّ حلٌّ لَهُمْ ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » . (الآية ١٠) .

وأحياناً يشير القرآن الكريم إلى الإيمان المطلوب مع الهجرة ، فيذكره بغير لفظه ، كما إذا وصف الهجرة بأنها فى الله ، أو فى سبيل الله ، لأن ذلك يقتضى الإيمان ، ففى سورة النساء : « ومن يُهاجِر فِى سَبِيلِ اللهِ » . وفى سورة النحل : « والَّذِينَ هاجَرُوا فى اللهِ » . وفى سورة الحج : « والَّذِينَ هاجَرُوا فى سبيـل الله . . » . وفى سورةَ النور : « ولا يأْتَل أُولُو الفَضْل مِنْكُم والسَّعَة أَنْ يُؤْتوا أولِى القُرْبَى والمساكِين والمُهاجرين فى سَبيلِ اللهِ » . وفى سورة العنكبوت : « فآمَنَ لَهُ لوطٌ وقالَ إنِّى مهاجرٌ إلى رَبِّى إنَّه هوَ العزيزُ الحَكِيمُ » . (الآية ٢٦) .

ولأن الهجرة تستلزم الإيمان جاء فى حديث عمر رضى الله عنه — كما فى

النهاية – أنه قال : « هاجروا ولا تهجَّروا » أى أخلصوا الهجرة لله تعالى ، ولا تتشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم أو إيمان عندكم .

والقرآن يرينا مدى الارتباط بين الإيمان والهجرة ، حين يحدثنا فى أواخر سورة الأنفال عن أقسام المؤمنين الموجودين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيشير إلى أنهم أربعة أصناف :

الصنف الأول : صنف المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة قبل غزوة بدر ، وهؤلاء هم أفضل الأصناف .

الصنف الثانى : هم الأنصار الذين آووا المهاجرين ونصروهم ، وهذا الصنف يرتبط بالصنف السابق برابطة التعاون والتناصر وتبادل الولاية فيما بينهم ، فكل منهم مناصر لأخيه ، فهم يتشاركون ويتكافلون .

الصنف الثالث : صنف المسلمين الذين لم يهاجروا ، بل ظلوا باختيارهم بين المشركين فى دار الحرب ، وهؤلاء لا يثبت لهم شىء من ولاية المسلمين المستقرين فى دار الإسلام ، اللهم إلا إذا كان هناك اضطهاد لهم بسبب دينهم من المشركين .

الصنف الرابع : هم الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى ، وهذا الصنف يلحق بمن سبقه من المهاجرين والأنصار .

يقول الله تعالى فى تلك الأصناف :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وهاجَرُوا وجاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُولئِكَ بعْضُهمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، والَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهاجِرُوا مالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حتَّى يُهَاجِرُوا ، وإن اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا علَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُم ميثاقٌ ، واللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . والَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهمْ أَوْلِياءُ بعْضٍ إِلَّا تَفْعلوهُ تكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأَرْضِ وفسادٌ

كَبِيرٌ ، والَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللهِ ، والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ المؤْمِنُونَ حَقًّا ، لهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ ، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بعدُ وهَاجَرُوا وجاهَدُوا معَكُمْ فأُولئِكَ مِنْكُم ، وأُولُوا الأَرْحَامِ بعْضُهمْ أَوْلَى ببَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ ، إنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . (الأنفال الآيات ٧٢ – ٧٥) .

ويقرب من هذا ما ذكره الله تعالى فى سورة الحشر ، حيث يقول عن طوائف من المؤمنين السابقين واللاحقين :

« للْفقراءِ المهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً وَيَنصرُونَ اللهَ ورسولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحبُّونَ من هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، ولا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حاجةً مِمَّا أُوتُوا ، ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ . والَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِم يَقُولُونَ ربَّنا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإِيمانِ ولَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . (الآيات ٨ – ١٠) .

* * *

هذا بعض حديث الهجرة فى القرآن الكريم .

ثم يأتى حديث الهجرة فى السنة المطهرة :

لعل أول ما يشد أفكارنا وأبصارنا هو قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها . أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فهذا الحديث صريح فى الدلالة على أن الهجرة الشرعية المحمودة عند الله تعالى هى الهجرة المخلصة القائمة على الإيمان وصدق الاستجابة

لله وللرسول ، وكأن هذا تأييد لما لمحناه من قرن التنزيل المجيد الهجرة بالإيمان فى مواطن كثيرة .

ولقد تعرض شبهة التعارض بين قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » وقوله فى حديث آخر : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة » . ولكن ابن الأثير يجمع بين الحديثين بقوله :

« الهجرة هجرتان : إحداهما التى وعد الله عليها الجنة فى قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، فكان الرجل يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدع أهله وماله ، لا يرجع فى شىء منه ، وينقطع بنفسه إلى مهاجره ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره أن يموت الرجل بالأرض التى هاجر منها ، فمن ثَمَّ قال : « لكن البائس سعد بن خولة » يرثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مات بمكة ، وقال حين قدم مكة : « اللهم لا تجعل منايانا بها » ، فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة .

والهجرة الثانية : من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين . ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى ، فهو مهاجر ، وليس بداخل فى فضل من هاجر تلك الهجرة ، وهو المراد بقوله : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة » .

فهذا وجه الجمع بين الحديثين ، وإذا أطلق فى الحديث ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة » .

* * *

ويظهر لنا من السنة كذلك أن التوجيه الإلهى إلى الهجرة كان سابقاً على تنفيذها بمدة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت فى المنام

أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وَهَلى إلى أنها اليمامة أو هَجَر ، فإذا هى المدينة : « يثرب » . واليمامة هنا مدينة من اليمن على مرحلتين من الطائف ، وهجر بلد من البحرين ، كان فيها مساكن عبد القيس .

وقال النبى فى حديث آخر : « إنى أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ، وهما الحرتان » فهاجر من هاجر إلى المدينة ، وعاد المهاجرون إلى الحبشة منها إلى المدينة . والحرة هى الحجارة ذات اللون الأسود .

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة ذات شأن وجلال ، فإن السنة المطهرة تحدثنا بأن هناك هجرة أخرى ذات شأن وجلال ، فقد جاء فى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال :

بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا وإخوان لى أنا أصغرهما ، أحدهما أبو بردة ، والآخر أبورُهْم ، فى بضع وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة ، فألقتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوجدنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن النبى صلى الله عليه وسلم بعثنا ههنا ، وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا .

فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً ، فوافقنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا ، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه ، فقسم لهم معهم ، فقال بعض الناس لنا : نحن سبقناكم بالهجرة .

فدخلت أسماء بنت عميس على حفصة رضى الله عنها تزورها ، فدخل عمر عليهما فقال : من هذه ؟

فقالت : أسماء بنت عميس .

فقال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

فقالت أسماء : نعم .

فقال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم .

فغضبت وقالت : كذبت يا عمر ، كلا والله . كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا فى أرض البعَداء البُغَضاء فى الحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله ؛ وايم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نُؤْذَى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال كذا وكذا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأحق بى منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوننى أرسالا ، يسألوننى عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت : فكان أبو موسى يستعيد هذا الحديث منى[1] .

* * *

وبعد ، فإذا كان هناك خلاف فى فرضية الهجرة الحسيـة من مكان إلى مكان على توالى الزمان ، فإنه لا خلاف هناك على الهجرة المعنوية الروحية ، فإنها واجبة على المؤمن دائماً ، وهجرة الروح هى أن يولى الإنسان وجهه وقلبه

(١) انظر كتابى « فدائيون فى تاريخ الإسلام » ص ٢٢٤ .

دائماً إلى طاعة ربه واتباع رسوله ، ولذلك يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « طريق الهجرتين » إن المسلم « له فى كل وقت هجرتان : هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء ، والإقبال عليه ، وصدق اللَّجَأ والافتقار فى كل نفس إليه .

وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة ، بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محابِّ الله ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها ، لازاد المعاد .

وقد قال شيخ الطريقة وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه : الطرق كلها مسدودة ، إلا طريق من اقتفى آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن الله عز وجل يقول : « وعزتى وجلالى ، لو أتونى من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » .

صلاة وسلاماً على صاحب الهجرة رحمة الله للعالمين .



حديث النّور فى القرآن

النور هو ضوء كلِّ جرم مضىء يعين على الإبصار. وقيل إن النور لفظ موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما. وقيل: النور ما به الإبصار والهدى.

والنور نوعان: نوع يحس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالشمس والقمر والنجوم والنيرات، ونوع معقولٌ بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية، كنور العقل، ونور القرآن المجيد، ومن هذا النوع المعقول: المعارفُ والحقائق والدلائل التى تجلو الشك، وتجلب اليقين فى العقائد، وتنفى البلبلة والضلال.

والضوء أخص من النور، ولذلك خص القرآن الشمس بالضياء، والقمر بالنور، فقال فى سورة يونس: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نوراً». (الآية ٥) فالشمس تشع الضياء، والقمر يرسل النور، لأن الشمس جرم سماوى ملتهب يضىء بذاته، وهو مصدر الطاقات على الأرض، ومنها الضوء والحرارة، والقمر جرم غير مضىء بذاته، بل يعكس أو يردُّ ما يقع عليه من ضوء الشمس، فيبدو منيراً. ويقول القرآن أيضاً

فى سورة الفرقان : « تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فى السَّماءِ بُروجاً ، وجَعَلَ فِيها سِراجاً ، وقمراً مُنيراً » (الآية ٦١) . والسراج هنا هو الشمس ، والسراج يضىء فالشمس سراج وهاج ، أما القمر فينير – كما عرفنا – بضياء الشمس المرتد من سطحه . وقد عاد القرآن فى سورة نوح يقول : « وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ، وجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » (الآية ١٦) .

ولقد ورد حديثُ النور فى القرآن الكريم مرات ومرات . وهنالك سورة تسمى سورة النور ، وفى هذه السورة ورد قوله تبارك وتعالى : « اللهُ نورُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ مَثَلُ نُوره كمِشْكاةٍ فيها مِصْباحٌ ، المِصْبَاحُ فى زُجَاجَةٍ ، الزُّجاجَةُ كأَنَّها كوْكبٌ دُرِّىٌّ يوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَاركَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ ، يكادُ زَيْتُها يُضِىء ولَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ، ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ للنَّاسِ ، واللهُ بِكلِّ شَىءٍ عليمٌ » (الآية ٣٥) .

ونفهم من الآية الكريمة أن « النور » من أسماء الله تعالى ، وليس المراد أن الله ذات النور ، بل المعنى هو أن الله سبحانه هادى أهل السموات والأرض ، أو هو مدبر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة ، فهو كالنور لهم الذى يهتدون به إلى مسالك الطرق . أو هو ناظم السموات والأرض على الترتيب الأحسن – فإنه قد يعبَّر عن النظام بالنور ، أو هو منوِّر السموات بالشمس والقمر والكواكب ، ومنوِّر الأرض بالأنبياء والعلماء ، ومنور القلوب بالدلائل والحجج ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، فالطاعة – كما يعبِّر القشيرى – زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والله يزيد قلب المؤمن نوراً على نور ، يؤيده بنور البرهان ، ثم يؤيده بنور العرفان .

وفى قوله تعالى : « يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » وصف لزيت الشجرة المباركة بأنه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ، لأن الزيت – كما يعبر الرازى – إذا كان خالصاً صافياً ، ثم رؤى من بعيد ، يُرى كأن له شعاعاً ، فإذا مسته النار ازداد ضوءًا على ضوء ، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه العلم ازداد نوراً على نور ، وهدى على هدى ، ولذلك قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له ، وهو المراد من قول النبى عليه الصلاة والسلام : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وقد علق خبراء العلم على الآية الكريمة بقولهم : الله مصدر النور فى السموات والأرض ، فهو منورهما بكل نور حسى نراه ونسير فيه ، وبكل نور معنوى ، كنور الحق والعدل ، والعلم والفضيلة ، والهدى والإيمان ، وبالشواهد والآثار التى أودعها مخلوقاته ، وبكل ما يدل على وجود الله ، ويدعو إلى الإيمان به سبحانه .

ومَثَل نوره العظيم ، وأدلته الباهرة فى الوضوح ، كمثل نور مصباح شديد التوهج ، وضع فى فجوة من حائط تساعد على تجميع نوره ووفرة إضاءته ، وقد وُضع المصباح فى قارورة صافية لامعة لمعان كوكب مشرق ، يتلألأ كالدر ، ويستمد المصباح وقوده من زيت شجرة كثيرة البركات ، طيبة التربة والموقع ، هى شجرة الزيتون المغروسة فى مكان معتدل متوسط ، فلا هى شرقية فتحرم حرارة الشمس آخر النهار ، ولا هى غربية فتحرمها أول النهار ، بل هى على قمة الجبل ، أو فى فضاء الأرض . تفيد من الشمس فى جميع أجزاء النهار ؛ يكاد زيت هذه الشجرة لشدة صفائه يضىء ، ولو لم تمسسه نار المصباح ، فهذه العوامل كلها تزيد المصباح إضاءة فوق

إضاءة ، ونوراً على نور.

ولا يجوز أن يكون النور ذاته هو الله تعالى ، وقد ضل « المانوية » حين زعموا أن الله سبحانه هو النور الأعظم ، وقد فند الرازى زعمهم بعدة أدلة ساقها ، ومنها :

أولا : إن كان النور عبارة عن الجسم كان حادثاً ، والحدوث على الله محال ، وإن كان عرضاً قائماً بالجسم ، فهو أيضاً حادث ، لأنه متى ثبت حدوث الجسم ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به .

ثانياً : سواء أكان النور جسماً ، أم أمراً حالا فى الجسم ، فإنه ينقسم . وكل منقسم يفتقر فى تحققه إلى تحقق أجزائه ، والمفتقر إلى غيره لا يكون إلهاً .

ثالثاً : لو كان النور هو الله لوجب ألا يزول ، لامتناع الزوال على الله سبحانه .

وإذا كان القرآن قد جعل « النور» اسماً من أسماء الله تعالى ، فقد عبر عن دينه بأنه « نور » فقال فى سورة التوبة : « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم ويأبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ » (الآية ٣٢) أى يريد الكافرون بمزاعمهم الباطلة أن يطفئوا نور الله ، وهو الإسلام ، ولا يريد الله إلا إتمام نوره ، بإظهار دينه ونصر رسوله ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وكذلك جاء فى سورة الصف : « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم ، واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ » (الآية ٨) .

وكما وصف الحق جل جلاله الإسلام بأنه نور ، وصف كتابه بأنه نور ، لأنه يجلو الشك وينير السبيل ، فقال فى سورة الشورى : « وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، ما كُنْتَ تَدْرِى ، ما الكِتابُ ولا الإِيمانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْناهُ نوراً نَهْدِى به مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنَا » (الآية ٥٢) . فالمراد بالنور

هنا هو القرآن ، لأنه الذى تعرف به الأحكام .

ويقول الحق فى سورة المائدة : « قَدْ جاءكم مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى به اللهُ مَن اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ويهدِيهِمْ إلَى صِراطٍ مستقيمٍ » (الآيتان ١٤ ، ١٥) : يروى أن المراد بالنور هو النبي ، أو الإسلام ، أو القرآن ، لأنه لولا ما جاء به الإسلام ، وما جاء به النبي من الهدى ، لما أدرك أصحاب البصيرة حق الله ، ولظلوا فى جهلهم لا يبصرون ، فالقرآن للبصيرة كالنور للبصر . والراجح أن المراد بالنور هنا هو القرآن ، وأن قوله فى الآية : « وكتاب مبين » معطوف على كلمة : « نور » عطف تفسير .

وقد ذكر النص الكريم لهذا النور ثلاث فوائد :

الأولى : يهدى به الله صاحبه إلى الطرق التى يسلم بها فى الدنيا والآخرة ، فيكون فى الدنيا مستقيماً ، وفى الآخرة سعيداً .

الثانية : الإنقاذ من ضلالات الوثنية والشرك ، إلى نور التوحيد الخالص .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم الموصل للغاية المنشودة .

ويقول الرازى فى إيضاح أن القرآن نور ، وأن الرسول موصِّل هذا النور ، وأن البشرية محتاجة إلى نور القرآن على يد الرسول :

« الفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ فى الأكثر ، وإذا كان كذلك فلابد من هادٍ مرشد ، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى ، وفوق إرشاد الأنبياء ، فتكون منزلة آيات القرآن نوراً عند عين العقل ، بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة ، إذ به يتم الإبصار ، فبالحرى أن يسمى القرآن نوراً ، كما يسمى نور الشمس نوراً ، فنور القرآن يشبه نور الشمس ، ونور العقل يشبه نور العين .

وبهذا يظهر معنى قوله : « فآمِنُوا باللهِ ورسُولِهِ والنُّور الَّذِى أنْزلْنا » . (التغابن الآية ٨) . وقوله : « قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ من ربكُم وأنْزلْنا إِلَيْكُم نوراً مُبيناً » (النساء الآية ١٧٤) .

وإذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس ، وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس ، وكما أن الشمس فى عالم الأجسام تفيد النور لغيره ، ولا تستفيده من غيره ، فكذا نفس النبي صلى الله عليه وسلم تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية ، ولا تستفيد الأنوار العقلية من شيء من الأنفس البشرية ، فلذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج ، حيث قال : « وجَعَلَ فِيها سِراجاً وقمراً مُنيراً » (الفرقان ٦١) . ووصف صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير» .

وإذا كان القرآن نوراً ، ويؤكد الحق جل جلاله بأن رسوله يخرج الناس بوساطة هذا القرآن من الظلمات إلى النور . فيقول فى فاتحة سورة إبراهيم : « كتابٌ أنْزلْناهُ إليْك لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلماتِ إلَى النُّور بإذْنِ ربِّهِم إلَى صِراطِ الْعزيز الحميد » (سورة إبراهيم الآية١٢) ؛ فإن التوراة — وهى كتاب من كتب الله — قد أخبر عنها القرآن بأنها أيضاً نور ، فقال فى سورة المائدة : « إنَّا أنْزلْنا التَّوراةَ فِيها هُدًى ونُورٌ » (الآية ٤٤) : أى أنزلنا التوراة على موسى عليه السلام ، فيها هداية إلى الحق ، وبيان منير للأحكام التى يخرج بها الإنسان من ضلال الوثنية إلى طريق النور.

والقرآن يخبر كذلك بأن الإنجيل الذى جاء إلى عيسى عليه السلام من عند ربه نور ، فيقول تعالى فى سورة المائدة : « وآتَيْناهُ الإِنْجيلَ فِيه هُدًى ونورٌ » (الآية ٤٦) : أى أعطينا عبدنا ورسولنا عيسى عليه السلام كتابنا الإنجيل ، وفيه ما يهدى من الضلال فى الاعتقاد والعمل ، وفيه نور يبصر

به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال ، والفضائل والأعمال .

وكتب الله كلها نور ، ولذلك يقول الحق تعالى فى سورة آل عمران : « فإنْ كذَّبوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رسلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاءُوا بالبَيِّناتِ والزُّبرِ والكِتابِ المُنيرِ »(الآية ١٨٤) .ويقول فى سورة فاطر : « وإنْ يُكَذِّبوكَ فَقَدْ كذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهم رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ وبالزُّبُرِ وبالكِتابِ المُنِيرِ » . (الآية ٢٥) .

* * *

والرسول صلى الله عليه وسلم نور ، يقول عنه كتاب الله المجيد فى سورة الأحزاب : « يأَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أرْسَلْنَاك شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُنيراً »(الآيتان ٤٥ ، ٤٦) :أى داعيًا الخلق بأمر الله إلى طريق الله ، وسراجاً يهدى بنوره الحائرين فى ظلمات الشك ، ويجىء ومعه ما ينير السبيل من النبوة والدين .

ولقد كان الرسول مشغولا فى أكثر الأحيان بالنور . يذكره ويرجوه من ربه ، فكان يردد قوله : « اللهم أنت نور السموات والأرض » . وكان يقول:« كتاب الله فيه الهدى والنور » ، ويقول : « الصلاة نور» ، ويدعو ربه قائلا : « أسألك أن تنوِّر بكتابك بصرى » . وكان يحب أن يحيط به النور من كل جهة ، فهو يدعو خالقه راجيًا بقوله : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

النور . . النور . النور : النور فى الحس ، والنور فى النفس ، والنور

فى القلب ، والنور فى الروح ، والنور فى السمع والبصر ، وعن اليمين واليسار ، ومن فوق ومن تحت ، ومن أمام ومن خلف . . النور حيثما كان ، وكيفما كان ، وفى كل مكان . ولا عجب فهو نبى النور.

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هو مصدر النور ، وهو نور السموات والأرض ، وهو مفيض النور على حبيبه وصفيه محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فقد أفاض على أمة الإيمان واليقين ما أفاض من نور محسوس ونور معقول ، فقال عز من قائل فى سورة البقرة : « اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُون » (الآية ٢٥٧) إن الله هو متولى شئون المؤمنين وناصرهم ، يخرجهم من ظلمات الشك والحيرة ، إلى نور الحق والاطمئنان ، والكافرون بالله تعالى تستولى عليهم الشياطين ودعاة الشر والضلال ، فهم يخرجونهم من نور الإيمان الذى فُطروا عليه ، والذى وضح بالأدلة والآيات ، إلى ظلمات الكفر والفساد .

والله تبارك وتعالى يعد عباده المؤمنين لقبول الحق والرشاد ، ولا سلطان لأحد على اعتقاد المؤمن إلا الله سبحانه ، ومتى كان الإنسان كذلك ، فإنه يحسن استعمال الهدايات التى وهبها الله له فى عقله وحواسه وتدبره ، وكلما عرضت للمؤمن شبهة جابهها بأشعة من نور الحق ، فتقضى على تلك الشبهة ، فإذا هو على صراط مستقيم .

وأما الكافرون فإنهم يخضعون للباطل ، ويستجيبون للطاغوت ، وهو كل ما يسوق إلى الطغيان والكفران ، وهو يجذب أتباعه من النور إلى الظلمات والضلالات ، والشبهات والشهوات ، ولذلك يكون مصيرهم النار . يخلَّدون فيها ، وبئس المصير .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد فى هذه الآية من الظلمات والنور هما الكفر والإيمان .

ويأتى الصوفية ليدلوا بدلوهم فى الحديث عن الظلمات والنور فى هذه الآية ، فنجد القشيرى فى « لطائف الإشارات » يورد هذه الكلمات :

« يخرجهم من الظلمات إلى النور : يعنى بحكمه الأزلى صانهم عن الظلمات التى هى الضلال والبدع ، لأنهم ما كانوا فى الضلال قط فى سابق علمه .

ويقال : يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .

ويقال : يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظلَّ أنفسهم ، ويدخلهم فى ظل عنايته .

ويقال : يخلصهم عن حسبان النجاة بهم .

ويقال : يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم ، والاستناد إلى أحوالهم » .

ويتعرض القشيرى لتفسير قول الله تعالى فى فاتحة سورة إبراهيم : « الر ، كِتابٌ أَنْزلناهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلماتِ إلَى النُّورِ بإذْنِ رَبِّهِمْ إلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » ، فيورد أفانين من معاني الظلمات والنور فى النص الكريم : فالقرآن قد أنزله الله سبحانه ليخرج به الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب . . إلخ .

ولقد حكى الرازى المفسر عن أبى بن كعب أنه قال : « المؤمن بين أربع خلال : إن أُعطى شكر ، وإن ابتلى صبر ، وإن قال صدق ، وإن

حكم عدل ؛ فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الأموات ، ويتقلب فى خمس من النور : كلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله (سره) نور ، ومخرجه (علانيته) نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة » .

ومن أين للإنسان بالنور إلا من مصدر واحد ، هو ربه نور السموات والأرض ، ولذلك يقول فى سورة النور : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : من لم يوفقه الله لنور الإيمان ، فليس له نور يهديه إلى الخير ويدله على الطريق المستقيم .

ليتنا ندعو مع الرازى ، واقفين بباب خالقنا وبارئنا ، مستبصرين فى رحابه بنوره الذى صلح به أمر الدنيا والآخرة ، قائلين فى إخلاص وإخبات :

يا مدبر الأمور ، ويا مدهر الدهور ، ويا معطى كل خير وسرور ، ويا دافع البلايا والشرور ، أوصلنا إلى منازل النور فى ظلمات القبور ، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين . اللهم آمين .



القدس وسيناء فى القرآن

أى معانٍ وأى خواطر وأى مشاعر ، تثور فى قلب الإنسان حينما يلفظ أو يسمع كلمة « القدس » .

إنها الكلمة التى لو جردناها من كل ذكرياتها ، وتاريخها وسيرتها ، لبقى لها هذا التذكير بالقداسة والطهارة والكرامة ، فلغة العرب – وهى لغة القرآن المجيد – تقول : قدَّس المؤمن ربَّه . أى نزهه عما لا يليق بألوهيته ، والقرآن يقول على لسان الملائكة فى خطاب ربهم تبارك وتعالى : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » (سورة البقرة الآية ٣٠) .

والقدوس : هو المطهر المنزه عن جميع النقائص . والقدس : الطهر . والمكان المقدس : المطهر من أدران الوثنية ونحوها . والأرض المقدسة : هى فلسطين – ردها الله على العرب والمسلمين – أو الطور وما حوله ، أو الشام كلها . وروح القدس : هو جبريل عليه السلام ، والقرآن يقول : « وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » (البقرة الآية ٨٧) ويقول : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » (النحل الآية ١٠٢) .

والقدس – أو بيت المقدس – هى عاصمة فلسطين . وبلد المسجد الأقصى ، والقبلة الأولى للمسلمين التى أشار إليها الله تبارك وتعالى فى قوله : « وما جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وإن كانَتْ لَكَبِيرةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرءوفٌ رَحِيمٌ » (البقرة الآية ١٤٣) . والمسجد الأقصى هو ثالث المساجد التى تشد إليها الرحال بنية العبادة ، فرسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى بالمدينة ، والمسجد الأقصى » .

وقد سمى مسجد القدس بالمسجد الأقصى ، لأنه كان أبعد المساجد التى تزار ويبتغى بها الأجر بالنسبة إلى المسجد الحرام ، أو لأنه لم يكن وراءه موضع عبادة ، أو لبعده عن الأقذار والخبائث : وقد روى أنه بنى فى أصله بعد بناء المسجد الحرام بأربعين سنة .

ولقد تكاثرت الفضائل من حول القدس – بيت المقدس – وحسبها أولا أن مسجدها كان واسطة العقد فى معجزة الإسراء والمعراج ، فكان خاتمة لرحلة الإسراء فى الأرض ، وكان فاتحة لرحلة المعراج إلى السماء ، ثم كان خاتمة لرحلة العودة من المعراج ، وفاتحة لرحلة العودة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وقد نوَّه القرآن المجيد بذلك . وجعل هذا التنويه فاتحة لسورة سماها باسم المعجزة ، وهى « سورة الإسراء » ، فقال فى طليعتها : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

والآية الكريمة تشير إلى البركة التى جعلها الله من حول هذا المسجد ، وهذه البركة تتمثل فى مجارى الأنهار وفى فيض الثمار ، وبمن دُفن من حوله

خلال عصور التاريخ من الصفوة الأخيار الأبرار . وهناك آية كريمة تشير إلى هذه البركات ، وهى قوله عز من قائل : « وإذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حيثُ شِئْتُمْ رَغَداً » (البقرة الآية ٥٨) .

ومن فضائل هذا المسجد أن الصلاة تضاعف فيه مائتين وخمسين مرة ، على أقل الروايات عدداً فى هذه المضاعفة . وأنه يستحب ختم القرآن المجيد به ، ومن الفضائل استحباب المجاورة به للعبادة أو الذكر أو الاعتكاف أو طلب العلم ، ومنها أنه يستحب الصيام فيه ، ومنها أن مَنْ لم يقدر على زيارته . يستحب له أن يهدى إليه زيتاً للسراج ، أو ما يقوم مقام الزيت لإضاءته .

ومن الفضائل أن السيئات تضاعف فيه ، أى تزداد قبحاً وفحشا، لأن المعاصى التى ترتكب فى زمان شريف أو مكان شريف تكون أشد جرأة على الله جل جلاله ، ومنها أنه ينبغى للحالف أن يحذر اليمين الفاجرة فيه ، لأن عاقبتها وخيمة ، ومنها أنه يستحب الإحرام بالحج والعمرة منه .

* * *

هذا ، ولقد شاء الله تبارك وتعالى — بمقتضى وعده فى القرآن الكريم أن الأرض لله يرثها عباده الصالحون — أن تفتح القدس أبوابها أمام نور الإسلام فى السنة السادسة عشرة من الهجرة ، حيث افتتحها الصحابى الجليل ، القائد البطل ، أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وطلب أهلُها أن يصالحهم على صلح مدن الشام ، وأن يكون المتولى للعقد هو خليفة المسلمين ، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فاستجاب الخليفة لذلك ، وارتحل إليهم من المدينة ، ولما دنا من القدس قال : لبيك اللهم لبيك ، بما هو أحب إليك.

ثم اتجه الخليفة فى مسيرته إلى محراب داود ليلا ، وصلى فيه . ولما طلع الفجر أمر بالأذان والإقامة ، ثم تقدم فصلى بالناس ، وقرأ جانباً من سورة

« ص » فى الركعة الأولى ، وقرأ فى الركعة الثانية أول سورة الإسراء .

ثم شرع فى تطهير الساحة الطيبة من الكناسة والأقذار التى وضعها الروم فى المكان ، وشاركه الناس فى هذا التطهير .

وكتب الخليفة لأهل القدس كتاب أمان يعد مثلاً فى العدل والسماحة واللين مع الناس ، جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (القدس) من الأمان ؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) فمن خرج منها فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصُلبُهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو

ابن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وكتب وحضر سنة خمس عشرة » .

* * *

هكذا كانت القدس – وما زالت – صاحبة مكانة ومنزلة فى تاريخ الإسلام منذ القدم ، وفى نفوس المسلمين فى الأمس البعيد ، والحاضر القائم ، وإلى ما شاء الله ، ولكن اليهود يفترون ويزعمون فيما ينشرون أن عناية المسلمين بالقدس (وهى بيت المقدس) لم تظهر إلا أخيراً ، بعد التنافس والصراع بين المسلمين واليهود فى فلسطين – ردها الله على العرب والمسلمين – وهذا تزوير للتاريخ ، فالمسلمون يعنون بالقدس وبفلسطين كلها منذ بزغت شمس الإسلام.

والقدس عند المسلمين – منذ أربعة عشر قرناً – فيها أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ولقد ظل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، والمسلمون من ورائه . يتجهون فى صلواتهم إلى المسجد الأقصى فى بيت المقدس (وهو القدس) سبعة عشر شهراً تقريباً . وصارت للقدس مكانة جليلة فى نظر المسلمين ، لأن فيها المسجد الأقصى ، وهو أحد مسجدين اثنين اقتصر القرآن المجيد على التصريح باسمهما ، وهما المسجد الحرام وفيه الكعبة ، والمسجد الأقصى ، وإليه كان إسراء الرسول ، ومنه كان معراجه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وألقى الإسلام رداء الهيبة والكرامة على القدس ، فجاء فى كتب السنة : « من مات فى بيت المقدس فكأنما مات فى السماء » ويُقصد بهذا – طبعاً – من مات على الإسلام طائعاً الله ورسوله . وكذلك جاء : « من أهلّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غُفر له ما تقدم من ذنبه » . وهذا – طبعاً – عند ترافر التوبة النصوح مع الإخلاص .

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « صليت ليلة أسرى بى إلى بيت المقدس عن يمين الصخرة » . وقصة الإسراء تقص علينا أن رسول الله محمداً قد صلى إماماً بالأنبياء والمرسلين فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء .

ومن مظاهر عناية المسلمين عنايةً قديمةً موصولة بالقدس وبالمسجد الأقصى وبفلسطين كلها ، هذه الكتب والمؤلفات الضخمة التى ألفها علماء الإسلام ومؤرخوه منذ قرون فى فضائل القدس والمسجد الأقصى ، ومنها :

١ – فضائل القدس : لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ – ١٢٠٠ م .

٢ – الأنس فى فضائل القدس : لابن هبة الله الشافعى ، من رجال القرن السابع الهجرى .

٣ – مثير الغرام بفضائل القدس والشام : لابن سرور المقدسى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ – ١٣٦٣ م .

٤ – الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل : لمجير الدين الحنبلى القاضى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ – ١٥٢٠ م .

٥ – الجامع المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى : لابن عساكر المتوفى سنة ٩٤٨ هـ – ١٥٤١ م .

٦ – فضائل القدس : للشريف عز الدين حمزة المتوفى سنة ٨٧٤ هـ – ١٤٦٩ م .

٧ – باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس ، لابن قاضى الصلت المتوفى سنة ٧٢٩ هـ – ١٣٢٨ م .

* * *

هذا شيء من الحديث عن مكانة القدس فى نظر القرآن والإسلام .

ثم يأتى حديث عن سيناء ..

كلمة « سيناء » – بكسر السين وقد تفتح – وقد تضاف إليها كلمة « الطور » . فيقال : طور سيناء ، كما جاء فى قول القرآن : « وشجرةً تَخرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكِلِينَ » (سورة المؤمنون الآية ٢٠)

وقد يقال لهذا المكان «سينين» ، كما جاء فى قول القرآن : « والتِّينِ وَالزَّيْتونِ ، وَطُورِ سِنِينَ »(سورةالتين ١ ، ٢)وسيناء هى صحراء سيناء الواقعة فى جنوب فلسطين . وفيها الوادى المقدس الذى قال عنه القرآن فى سورة طه مخاطباً موسى : « إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » (سورة طه الآية ١٢) . وهكذا أمره الله أن يخلع نعليه تعظيماً للبقعة ، لأنها الوادى المقدس المسمى « طوى » . وفى سورة النازعات يقول : « إِذْ نَادَاهُ رَبُّه بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » (الآية ١٦) .

وفى سيناء يوجد الوادى الأيمن والبقعة المباركة ، فذلك حيث يقول القرآن الكريم فى سورة القصص : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا آتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، أَنْ يا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (الآيتان ٢٩ ، ٣٠) .

وفى سيناء يوجد « الطور » وهو الجبل الموجود فيها ، وقد تكرر ذكر هذا الطور فى آيات من القرآن المجيد ، ومن ذلك قول الله تعالى فى سورة مريم : « وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا » (الآية ٥٢) . وتشير هذه الآية إلى أن موسى عليه السلام شاهد – وهو فى طريق عودته بزوجته إلى وطنه – شاهد ناراً من الجانب الأيمن لجبل الطور فى سيناء ، وهناك ناداه الله جل جلاله ، وقرَّبه من حماه وناجاه ، ورُوى أن الله تعالى أوحى إليه :

« يا موسى ، إذا خلقت لك قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وزوجة تعين على الخير ، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً ، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً » .

ويقول القرآن أيضاً فى سورة البقرة : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورفَعْنا فَوْقكُم الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ واذْكُروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثمَّ تَوَلَّيْتُم مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخاسِرينَ » . (الآيتان ٦٣ ، ٦٤) .

والميثاق هنا هو – كما قال أهل التفسير – العهد الفطرى الذى يجعل العقول بعد الرشد قابلةً لإدراك السنن الإلهية فى الخلق ، وهو العهد الموثق بالعهد الدينى ، وهو ما أيد الله به الأنبياء من الآيات البينات ، والأحكام المحكمات ، فمن أنكر بعثة الأنبياء ، ولم يهتد بهديهم ، فهو ناقض لعهد الله ، فاسق عن سنته ، وهذا ما ارتكبه اليهود .

وقد أراهم الله جل جلاله آية تقوى الإيمان عند العقلاء ، وهى نَتْق الجبل جبل الطور – ونزعه ليحرك فيهم الشعور ، حتى يتمسكوا بأوامر الله بقوة ، ويحافظوا على العمل بها ، لأن العمل سند العلم ، ولذلك قال الإمام على رضى الله عنه : « يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل » .

ويشير القرآن بذلك إلى أن الله سبحانه قد أخذ على بنى إسرائيل المواثيق والعهود للإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله ، ورفع فوقهم الطور إرهاباً وتهديداً . لكى يقروا بما عوهدوا عليه ، وينفذوا أوامره بامتثال واجتهاد ، وكأنه هددهم بإسقاط الجبل فوقهم إن ظلوا على بهتانهم .

وعلى الرغم من هذا الميثاق المؤكد العظيم تولى هؤلاء وأعرضوا ، وخانوا ونقضوا ، ولولا أن الله جل جلاله صاحب فضل ورحمة ، فأرسل إليهم الرسل ،

وقبل من تائبيهم توبتهم ، لكانوا ممن خسروا الدنيا والآخرة معاً .

ويعود القرآن إلى تسجيل العصيان والكفران من هؤلاء عند رفع الطور ، فيقول فى سورة البقرة : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُم ، وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا . قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . وَأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِم الْعِجْل بِكُفْرِهِمْ ، قُلْ بِئْسَما يأمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (الآية ٩٣) .

ويعود القرآن مرة أخرى ، فيقول فى سورة النساء : « ورَفَعْنَا فَوْقَهُم الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا البابَ سُجَّداً ، وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فى السَّبْتِ ، وَأَخَذْنا مِنْهم مِيثَاقاً غليظاً » (الآية ١٥٤).فيؤكد القرآن هنا جرائم هؤلاء بتكرار حديثه عن رفع الطور فى سيناء فوقهم تهديداً ووعيداً ، حتى جعلوا ينظرون إليه ، خائفين أن يقع عليهم ، وأن يسقط فوقهم فيسحقهم ، ومع ذلك عادوا فغدروا وخانوا . وأمرهم الله أن يدخلوا بيت المقدس ساجدين خاضعين قائلين : اللهم حط عنا ذنوبنا ، ولكنهم عاندوا ودخلوا زاحفين على أستاههم ، مجاهرين بالتحريف قائلين غير ذلك ؛ وأمرهم الله ألا يعملوا فى يوم السبت ، وأخذ عليهم بذلك ميثاقاً غليظاً شديدًا ، ولكنهم خالفوا وعملوا يوم السبت .

ويقول الكتاب العزيز فى سورة طه : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَن وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى » (الآيتان ٨٠ ، ٨١) ولكنهم مع الأسف قد طغوا فحل عليهم غضب الجبار ، وحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « نحن أولى بموسى منهم » .

وقد أشار القرآن فى سورة المؤمنون إلى بعض خيرات سيناء حين قال : « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ للآكِلِينَ » (الآية ٢٠) .

يشير إلى شجرة الزيتون المباركة الكثيرة المنافع والفوائد ، وهى تنبت وفيها الدهن . أى الزيت الذى يعصر . وهو المفيد للآكلين . وقد أضاف شجرة الزيتون إلى سيناء لأنها ظهرت فيها . وتشعبت منها فى البلاد وانتشرت . وكثرت فى هذا المكان ، وقد أشار الكتاب العزيز مرة أخرى إلى هذه الشجرة فى قوله تعالى : « اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، المِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ، لَا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (النور الآية ٣٥) . وهنا وصف القرآن هذه الشجرة فى سيناء بأنها شجرة مباركة ، وصرح بأنها شجرة الزيتون ، وقد قيل إنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان .

وعاد القرآن الكريم فى سورة « التين » ، فذكر « طور سينين » ، وهو جبل طور سيناء ، وجعله أحد أشياء أربعة أقسم بها الحق جل جلاله . تنويهاً بشأنها وتذكيراً بمكانتها ، فقال فى مفتتح السورة : « وَالتِّينِ ، وَالزَّيْتُونِ ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهَٰذَا البَلَدِ الأَمِينِ ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .

وقد ذكر الأستاذ الإمام محمد عبده فى « تفسير جزء عم » الأقوال الواردة فى معنى « التين والزيتون » ، ومن بينها أنهما الشجرتان المعروفتان باسم التين والزيتون ، لكثرة فوائدهما ، ثم قال : « ولكن تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين » والبلد الأمين ، وحكمة جمعهما معاً فى نسق واحد غير مفهومة ، ولهذا رجح أنهما موضعان .

وقد يرجح أنهما النوعان من الشجر ، ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا ، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر .

قال صاحب هذا القول : إن الله تعالى أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، من أول نشأته إلى يوم بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فالتين إشارة إلى عهد الإنسان الأول ، فإنه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، وعندما بدت له ولزوجته سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين .

والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك لأنه بعد أن فسد البشر ، وأهلك الله من أهلك منه بالطوفان ، ونجّى نوحاً فى سفينته ، واستقرت السفينة — نظر نوح إلى ما حوله ، فرأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض ، فأرسل بعض الطيور لعله يأتى إليه بخبر انكشاف الماء عن بعض الأرض ، فغاب ولم يأت بخبر . فأرسل طيراً آخر . فرجع إليه يحمل ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وسر ، وعرف أن غضب الله قد سكن ، وقد أذن للأرض أن تعمر .

ثم كان منه ومن أولاده تجديد القبائل البشرية العظيمة فى الأرض التى محى عمرانها بالطوفان ، فعبر عن ذلك الزمن بزمن الزيتون . والقسم هنا بالزيتون للتذكير بتلك الحادثة ، وهى من أكبر ما يذكر به من الحوادث .

وطور سينين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية ، وظهور نور التوحيد فى العالم ، بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، وقد استمر الأنبياء بعد موسى يدعون قومهم إلى التمسك بتلك الشريعة ، إلى أن كان آخرهم عيسى صلى الله عليه وسلم ، جاء مخلصاً لروحها مما عرض عليه من البدع .

ثم طال الأمد على قومه ، فأصابهم ما أصاب من قبلهم ، من الاختلاف فى الدين ، وحجب نوره بالبدع ، وإخفاء معناه بالتأويل ، وإحداث ما ليس منه بسبيل ، فمنَّ الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ،

ويفصل بين ما سبق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة ، وإليه أشار بذكر البلد الأمين » .

* * *

أيها العربى حيثما كنت ...
أيها المسلم حيثما أقمت ...

تذكر ولا تنس .. تذكر أنها « القدس » القبلة الأولى والحرم الثالث فى تراث الإسلام وتاريخ المسلمين ، وأنها مسرى نبيك ورسولك عليه الصلاة والسلام ... تذكر أن مواريث النبوات والرسالات قد انتهت إلى يد محمد عليه الصلاة والسلام ، لتكون أمانة عزيزة غالية فى أيدى أتباعه إلى ما شاء الله ، يجعلونها حرماً آمناً قائماً بالحق والعدل .

تذكر ولا تنس ... تذكر أنها « سيناء » التى تشهد كل حبة من رمالها أن العروبة المؤمنة لن تنام عن حقها فى التحرير والتعمير ، مهما طال المدى فى تقدير الإنسان ... إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، وما ذلك على الله بعزيز .



القـرآن والبحـر

إن لله تبارك وتعالى كتابين : الأول منهما مخلوق مبسوط أمام الأنظار وهو الكون ، والآخر منهما مُنَزَّل من لدنه سبحانه وهو القرآن ، ونستطيع أن نقول : إن لله جل جلاله قرآنين ، القرآن الأول مشاهد منظور ، وهو ملكوت السموات والأرض ، والقرآن الثانى مقروء مسطور ، وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ؛ والكتاب الأول وهو الكون يعاون – بتأمله والتدبر فى مشاهده – على فهم ما نستطيع من معانى الكتاب الآخر وهو القرآن ، وبذلك تكون مشاهد الكون وسائل إيضاح أمامنا ، تقودنا إلى عمق الصلة بهذا الهدى الإلهى الباقى الذى جعله الله « روحاً » للإنسانية على مدى مسيرتها الموصولة ؛ ولعل هذا هو بعض ما نفهم من قول الله عز شأنه : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » (الشورى ٥٢ ، ٥٣) .

ولا شك أن « البحر » بمفهومه العام الواسع مشهد جليل من مشاهد

الكون ، ومظهر كبير من مظاهر الطبيعة ، فالتأمل فيه جزء من المطالعة فى كتاب الله الكونى الواسع ، والمطالعة فى القرآن الكريم تفرض علينا حديثاً فسيحًا عن « البحر » ، فتصلنا به ، وتدفعنا إلى التـدبر لشأنه .

وقد يحسن – قبل أن نمضى فى حديث القرآن عن البحر – أن نعرف المراد بكلمة « البحر » فى اللغة والاصطلاح ، فكلمة « البحر » فى الأصل يراد بها كل مكان واسع جامع للماء الكبير ، ويسمى العربُ كلَّ متوسع فى شىء : بحراً . حتى قالوا عن الحصان الواسع الجرى : حصان بحر . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عن فرس سريع رَكِبه : « وجدته بحراً » . وقالوا عن الرجل الفقيه الواسع العلم : عالم بحر .

وقال بعض العلماء : البحر يقال – فى الأصل – للماء الملح دون العذب ، وقال آخرون : بل يطلق على كل منهما ، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ، وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ » (الفرقان ٥٣) ، أى هذا بحر عذب واضح العذوبة ، وهذا بحر ملح شديد الملوحـة . والظـاهر أن البحر : هو الماء الكثير ، ملحـاً كان أو عذباً ، ولكن غلب استعماله فى الملح ، وقل استعماله فى العذب .

والبحر – جغرافيًّا – هو جزء من محيط ، يكون مسطحاً مائيًّا واسعاً يتصل بهذا المحيط ، كالبحر المتوسط ، والبحر الأحمر ، والبحر الأسود ، وبحر الشمال ...

ومن كلمة « البحر » اشتق العرب كلمة « البحرية » ، وهى كلمة كانت تطلق على جميع السفن التى تمتلكها الدولة لغرض الحرب أو التجارة ، وتطلق الآن على السفن المخصصة للقتال أو حماية الدول .

* * *

ونعود إلى حديث القرآن عن البحر ، فقد ورد ذكر « البحر » فى عشرات من مواطن الكتاب الإلهى المجيد ، وقد تحدث هذا الكتاب الربانى عن البحر حديثاً عجباً ، فيه إثارة للعقل ، وإيقاظ للقلب ، وعبرة للنفس ، وإيراد الدقائق من العلم المتعلق بالكون والسنن الطبيعية ، وما أودع الله فى ملكوته من عجائب وأسرار .

ولقد روى « تفسير المنار[١] » أنه حدث فى أوائل القرن العشرين أن ترجمةً إنجليزية للقرآن الكريم وقعت فى يد ربان إنجليزى يقود إحدى البواخر الكبيرة ، فقرأ فى الترجمة آيتين فى سورة يونس عن البحر تقولان : (هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُم فِى الْفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِهَا ، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كلِّ مكانٍ ، وظَنُّوا أَنَّهمْ أُحِيطَ بهِمْ ، دَعَوُا اللهَ مخْلِصِين لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا من هذِهِ لَنَكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فلمَّا أَنْجاهُمْ إذا هُمْ يَبْغونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ ، يأَيُّها النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكم عَلَى أَنْفُسِكم متاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيا ، ثمَّ إِلَيْنا مرْجِعُكم فَنُنبئُكُمْ بما كُنْتُم تَعْملُون » . (الآيتان ٢٢ ، ٢٣) .

فأحس الربان بالروعة من بلاغة هذا الوصف القرآنى الدقيق لطغيان البحر واصطخابه ، وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظمى فى المحيط الهندى فى فصل الصيف ، فأخذ يتتبع كل الآيات القرآنية التى تتحدث عن البحر ، ثم سأل بعض المسلمين : هل ركب نبيكم محمد البحر وسافر فيه ؟ فقالوا له : إنه لم يرد عنه أنه سافر فى البحر قط .

وهنا اعتقد ذلك الربان أن ما فى القرآن من حديث وعلم لم يكن إلا بوحى من الله تعالى إلى هذا النبى العظيم !

---

(١) تفسير المنار ، ج ١١ ص ٣٤١ .

* * *

ولعل أول ما ينبغى أن نستذكره من الحديث القرآنى عن البحر أنه يشير إلى احتواء البحر فى ظاهره وباطنه كثيراً من الأشياء ، ولذلك يجعله عديلاً للبر ، فيقول فى سورة الأنعام : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » (الأنعام ٥٩) . قال أهل التفسير : وإنما ذكر الله علمه بما فى البحر ، لأن البحر يحوى أشياء غريبة وعجيبة ، عرف الإنسان منها جوانب ، وبقيت منها جوانب ما زالت من الغيب يعلمها الله .

وعدَّ القرآن ركوبَ الإنسان البحر ، وسيطرته على بعض قواه ، لوناً من ألوان التكريم الإلهى للإنسان ، فقال فى سورة الإسراء : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا » (الآية ٧٠) . ويذكِّرنا القرآن بهذه النعمة ، لنقدرها ونشكرها ونعتبرها فقال : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » .

وكأنَّ كتاب الله قد أراد أن يشير أمامنا إشارات موجزةً معجزة إلى أنواع هذه النعمة ، فقال فى سورة إبراهيم : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ » (الآية ٣٢) . وقال فى سورة الإسراء : « رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً » (الآية ٦٦) . وقال فى سورة لقمان : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِنْ آيَاتِهِ ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » (الآية ٣١) .

وحينما قال فى سورة البقرة : « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » (الآية ١٦٤) . كأنه أراد – وهو أعلم بمراده – التذكير بالسفن التى تسير مسرعة بقوة الهواء أو البخار أو غيره ، لتحقيق ألوان من المنافع للناس فى أسفارهم وتجاراتهم ، وقد صارت البواخر من الضخامة بحيث تعد

الباخرة الضخمة كأنها مدينة تتحرك فوق سطح البحر ، ففيها جميع المرافق التى تتمتع بها الناس ، من غرف وسرر وأرائك وحمامات وملاعب وسينما ومسارح ومطابع ، وغير ذلك .

والله جل جلاله هو الذى خلق النواميس التى تسمح بجريان السفن فى البحر ، وعلم الله الإنسان كيف يهتدى إلى هذه النواميس ليسخرها لمصلحته ، وينتفع بها هذا الانتفاع الضخم . ولو اختلفت طبيعة البحار أو طبيعة السفن ، أو اختلفت مدارك الإنسان ، ما كان شىء من هذا الذى كان ، ولا شك أن هذا النظام البديع من فضل الله ورحمته ولطفه بعباده ؛ فلا غرابة إذن حين يقول فى سورة الحج : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » (الآية ٦٥) .

وما دام الأمر كذلك فمن حق القرآن أن يتخذ من ذلك الإبداع الربانى دليلا على وجود الله وربوبيته وألوهيته وعظمته ، وإذا كان القرآن قد حدثنا فى سورة البقرة عن آيات الله فى السموات والأرض ومنها « الْفُلْكَ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاس » فقد قال قبلها مباشرة : « وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم » وكأن هذا حكم ومعه البرهان والدليل ، فالبحر بما فيه من نعم دليل ناطق وشاهد صادق على ألوهية الله ورحمته الواسعة .

والإمام المفسر فخر الدين الرازى المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة ، أى منذ قرابة ثمانمائة سنة يتحدث عن الاستدلال على وجود الله تعالى عن طريق جريان السفن فى البحار ، فيقول :

« المسألة الرابعة : فى كيفية الاستدلال بجريان الفلك فى البحر على

وجود الصانع تعالى وتقدّس ، وهى من وجوه .

أحدها : أن السفن وإن كانت من تركيب الناس ، إلا أنه تعالى هو الذى خلق الآلات التى بها يمكن تركيب هذه السفن ، فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك .

وثانيها : لولا الرياح المعينة على تحريكها لما تكامل النفع بها .

وثالثها : لولا هذه الرياح وعدم عصفها لما بقيت ولما سلمت .

ورابعها : لولا تقوية قلوب من يركب هذه السفن لما تم الغرض ، فصيرها الله تعالى من هذه الوجوه مصلحة للعباد ، وطريقاً لمنافعهم وتجاراتهم .

وخامسها : أنه خص كل طرف من أطراف العالم بشىء معين ، وأحوج الكلَّ إلى الكل ، فصار ذلك داعياً يدعوهم إلى اقتحام هذه الأخطار فى هذه الأسفار ، ولولا أنه تعالى خص كل طرف بشىء وأحوج الكل إليه ، لما ركبوا هذه السفن ، فالحامل ينتفع به لأنه يربح ، والمحمول إليه ينتفع بما حُمل إليه .

وسادسها : تسخير الله البحر لحمل الفلك ، مع قوة سلطان البحر إذا هاج ، وعظم الهول فيه ، إذا أرسل الله الرياح فاضطربت أمواجه ، وتقلبت مياهه .

وسابعها : أن الأودية العظام مثل جيحون وسيحون تنصب أبداً إلى بحيرة خوارزم على صغرها ، ثم إن بحيرة خوارزم لا تزداد البتة ولا تمتد ، فالحق سبحانه وتعالى هو العالم بكيفية حال هذه المياه العظيمة التى تنصب فيها .

وثامنها : ما فى البحار من الحيوانات العظيمة ، ثم إن الله تعالى يخلص السفن منها ، ويوصلها إلى سواحل السلامة .

وتاسعها : ما فى البحار من هذا الأمر العجيب ، وهو قوله تعالى :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) وقال : (هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) . ثم إنه تعالى بقدرته يحفظ البعض عن الاختلاط بالبعض ، وكل ذلك مما يرشد العقول والألباب إلى افتقارها إلى مدبر يدبرها ومقدِّر يحفظها » .

ولنتذكر أن هذا كلام قد قاله الرازى منذ قرابة ثمانمائة سنة :

* * *

ولم يستقص القرآن ألوان المنافع والخيرات المستمدة من البحر ، لأنه كتاب إيجاز ، ومع ذلك أشار إلى الأسماك واللحوم البحرية وما يستخرج من البحر من جواهر ، فقال فى سورة النحل : « وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (الآية ١٤) . وقال فى سورة المائدة : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ . . . » (الآية ٩٦) .

وليس صيد البحر مقصوراً على الأسماك التى تبلغ عشرات من الأنواع ، ولكن هناك أيضاً النباتات البحرية ، وما أكثرها ، وفى مطلع هذا القرن العشرين قام رئيس « مجمع تقدم العلم الإنجليزى » بإحصاء يبين فيه أن الأرض لا تبلغ سنة ١٩٢٨ م حتى تقل المواد الغذائية البرية لكثرة التناسل بين البشر ، وذكر أن فى قاع البحار وعلى شواطئها وسواحلها أصنافاً من النباتات البحرية لا تقل القيمة الغذائية فيها عما فى أفضل النباتات البرية ، وذكر أسماء عدة أصناف منها تكثر فى المحيط الأطلانطيقى عند شواطئه الغربية ، وقال إن فى سواحل مقاطعة سرقوسة وحدها من النباتات البحرية ما لو أحسن استخراجُه ومعالجته لكفى لتغذية سكان أوربا كلها طول السنة ، ولكنها متروكة للطبيعة ، فكيف لو أحصينا ما فى البحار الأخرى ، ذاكرين أن مساحة

هذه البحار أكثر من ضعفى مساحة اليابس ؟ . ويراجع تفصيل الحديث عن ذلك فى كتابى « صلوات على الشاطئ » ومجلة الهلال فى أكتوبر ١٩٤٨ م .

وليس الاغتذاء بالأعشاب البحرية بدعاً عند الناس ، فبعض الأمم تغتذى بها كما فى اليابان والصين وجزائر المحيط ، وقد مرت عليهم دهور ولا غذاء لهم سواها ، وفى النباتات البحرية ما فى النباتات البرية من مواد الغذاء اللازمة للجسم ، فلم لا يلتفت العالم إليها للانتفاع بها ؟

* * *

وإذا كانت البحار بسعتها وخيراتها ووسائل الانتفاع بها تعد مظهراً رائعاً من مظاهر قدرة الله جل جلاله ، فإن القرآن الكريم قد جعلها من جانب آخر محكًّا ومختبراً للإيمان عند الإنسان ، فهذا البحر الهادئ اللين الحلو الجميل ، الذى يلجأ إليه الناس متمتعين بالسباحة فيه ، وشم هوائه ، والارتياح إلى جوه وسمائه وزرقة مائه ، هو هو البحر المخيف المرعب المزمجر أحياناً ، ليكون اختباراً وابتلاء ، وتذكيراً بأن المنقذ هو الله ، وأن المنعم على من يستحق النعمة ، هو المنتقم ممن يستحق الانتقام .

ونحن قد قرأنا قول الله تعالى فى سورة يونس : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ، وَفَرِحُوا بِهَا ، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (الآيتان ٢٢ ، ٢٣) .

وفى سورة لقمان جاء قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بنعمة الله ليريكم من آياته ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » (الآيتان ٣١ ، ٣٢) .

وفى سورة الشورى جاء قوله عز من قائل : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير » (الآيات ٣٢ — ٣٤) .

والبحر الذى يضرب مثلاً للصفاء والنقاء وطيب الهواء فى كثير من الأحيان ، هو نفسه البحر الذى يكفهر فيكون فيه ظلام وظلمات ، وأهوال من اللجج الثائرة والأمواج الهائجة . ولذلك حدثنا القرآن ، فقال فى سورة الأنعام : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » (الآيتان ٦٣ ، ٦٤) .

ويقول فى سورة النور : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (الآية ٤٠) .

ويقول فى سورة النمل : « أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون » (الآية ٦٣) .

والبحر الذى يلطف عنده الجو ، ويرق على شاطئه النسيم ، ويتخذه الناس وسيلة للترويح عن النفوس . واستعادة النشاط ، وتقوية الصحة وتجديد الحركة . هو نفسه الذى يطوى بين أحشائه الواسعة الكثير من الغرقى

والضحايا ، ولم يفت القرآن المجيد أن يشير إلى ذلك ، فحدثنا عن إغراقه فرعون وقومه الكافرين فى البحر ، فقال فى سورة البقرة : « وإذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فأَنْجَيْناكُمْ وأَغْرَقْنَا آلَ فِرعَوْنَ وأنْتُمْ تَنْظُرونَ » (الآية ٥٠) .

والبحر الذى أغرق فرعون وقومه بقدرة الله ، هو هو البحر الذى صان الرضيع « موسى » نبى الله بإذن الله ، ألم يقل القرآن فى سورة القصص : « وأَوْحَيْنا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعيهِ ، فإذا خِفْتِ عليْهِ فأَلْقِيه فى اليمِّ ولا تخافِى ولا تَحْزَنِى ، إِنَّا رادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعِلُوهُ مِنَ المرْسَلِينَ » (الآية ٧) . ثم يقول : « فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ ، ولتعْلَمَ أَنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ ، ولكنَّ أكثَرهُمْ لا يعْلَمُونَ » (الآية ١٣) .

* * *

والقرآن الكريم – عن طريق حديثه عن البحر - يحثنا على الدراسات الفلكية وبحوث الفضاء والسماء ، ويشير إلى التوسع فى هذه الدراسات ، حيث يقول فى سورة الأنعام : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجومَ لتهتَدُوا بها فى ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ ، قد فصَّلْنا الآياتِ لقَوْمٍ يَعْلَمونَ » (الآية ٩٧) . وما أدق الرمز والإشارة هنا حين يذكر التفصيل : « قد فصلنا » . وحين يذكر العلم : « لقوم يعلمون » .

وقد يؤكد هذا الفهم أن القرآن المجيد ضرب « البحر » مثلا فى السعة والكثرة ، فقال فى سورة الكهف : « قُلْ لوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكلماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قبلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى ، ولوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » (الآية ١٠٩) .

وكأن القرآن المجيد يريد – عن طريق حديثه عن البحر – أن نتعلم التمييز بين الحلو والمر ، أو بين العذب والملح ، وأن نتعود الفصل بين الأشياء

المتغايرة ، وأن نستعمل كل شيء فى مكانه ووظيفته ، دون أن يطغى جانب على جانب ، ولذلك يقول فى سورة الفرقان : « وهُوَ الَّذِى مَرَجَ البَحْرَيْنِ هـذا عَذْبٌ فراتٌ وهـٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ ، وجَعَلَ بَيْنهما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً » (الآية ٥٣) . أى هيأ الله جل جلاله البحر المالح الشديد الملوحة وأجراه ، كما هيأ النهر العذب الظاهر العذوبة وأجراه ، وجعلهما يتدانيان ويلتقيان ، دون أن يغلب أحدهما الآخر ، أو دون أن يفنى أحدهما فى الآخر ، بل أقام بينهما من طبيعتهما التى فطرهما الله عليها ، حاجزاً يمنع كلا منهما أن يطغى علَى الآخر ، فالأنهار تجرى – غالباً – فى مستوى أعلى من مستوى البحار ، ولذلك يصب الماء العذب فى ماء البحر الملح ، ولا يقع العكس إلا نادراً . وعاد القرآن فأكد هذه الصور من مظاهر قدرة الله ، فقال فى سورة الرحمن : « مَرَجَ البَحْرَيْنِ يلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ ، فبِأَيِّ آلاءِ ربِّكُما تكذِّبانِ » (الآيات من ١٩ – ٢١) .

وكما تلتقى البحار والأنهار ، فلا يبغى أحدها على الآخر ، لأن الله « جعل بين الاثنين حاجزاً » نرى البحرين يلتقيان أيضاً . فلا يطغى أحدهما ولا يبغى على الآخر ، وقد حدثنا القرآن عن « مجمع البحرين » . ويراد بمجمع البحرين منطقة التقاء بحر الروم وبحر القلزم ، وهما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . يقول القرآن فى سورة الكهف : « وإذْ قالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أبْرحُ حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أوْ أمْضِيَ حُقُباً ، فلمَّا بَلَغا مجْمَعَ بيْنِهما نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى البَحْرِ سَرَباً » . (الآيتان ٦٠ ، ٦١) .

* * *

وكأن الله جل جلاله قد جعل مساحة البحار – بالمعنى العام الذى يشمل

المحيطات والبحيرات ونحوها — أوسع من مساحة اليابسة ، وأوسع وأوسع من مساحة المعمور من هذه اليابسة ، لكي يكون فى البحار متسع يخفف حدة الطمع عند الإنسان الذى يتصارع أبناؤه أشَدَّ الصراع على خيرات الأرض وطاقاتها ، ولذلك يحس الإنسان العادى حين ينزل البحر سابحاً ، أو يجلس إليه مستروحاً ، أن مساحة البحر أقرب إلى روح المساواة من مساحة الأرض ، وتعجبنى هنا عبارة للمرحوم الرافعى يخاطب بها البحر حول ما يقرب من هذا المعنى فيقول له :

« أيها البحر ، قد ملأتك قوة الله لتثبت فراغ الأرض لأهل الأرض . ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطان لهذا الإنسان المغرور ؛ وتجيش بالناس وبالسفن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشًّا ترمى به .

والاختراع الإنسانى — مهما عظم — لا يغنى الإنسانَ فيك عن إيمانه ، وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظمة والهول ، ردًّا على عظمة الإنسان وهوله فى الربع الباقى . ما أعظم الإنسان وأصغره !

ينزل الناس فى مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهر عن ظاهر ، ويركبون ظهرك فى السفن ، فيحن بعضهم إلى بعض ، حتى لا يختلف باطن عن باطن . تشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة ، وتفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء إذ عرفوها فى الأرض .

يا سحر الخوف ، أنت أنت فى اللجة كما أنت أنت فى جهنم !

وإذا ركبك الملحد أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وهدرت عليه ، وثرت به ، وأريته رأى العين كأنه بين سماءين ستنطبق إحداهما على الأخرى

فتقفلان عليه ، تركته يتطأطأ ويتواضع ،كأنك تهزه وتهز أفكاره معاً ، وتدحرجه وتدحرجها ، وأطرت كلَّ ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل ، وكشفت له عن الحقيقة : أن نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل الغفلة والأمن وطول السلامة » .

* * *

والعقل البشرى عقل طُلعة وثاب ، ولذلك لا يبعد فى مجال كمجالنا هذا أن يسأل سائل فيقول : ولماذا خلق الله البحر ؟ . ومن العجيب أننى أكتب هذا الفصل فى يوم من صيف عام ١٩٧٢ ، وفى صيف عام ١٩٤٦ م — أى منذ قرابة ربع قرن — نشرت كتابى « صلوات على الشاطئ » . وجعلت فيه فصلا عنوانه : « لماذا خلق الله البحر » استغرق أكثر من عشر صفحات ، ولا أحب أن أعيد هنا كلاماً قلته ونشرته فى ذلك العهد البعيد ، ولكنى أكتفى هنا بإيراد ما قاله الإمام ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » إجابة عن هذا السؤال . قال : « وقد جعل الله البحر ملحاً أجاجاً ، مُرًّا زعاقاً ، لتمام مصالح مَنْ هو على وجه الأرض من الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكد كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيراً ولا يُقبر ، فلو كان حلواً لأنتن من إقامته وموت حيوانه فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك وينتن ويجيف فيفسد العالم .

فاقتضت حكمة الرب سبحانه وتعالى أن جعله كالملاَّحة التى لو أُلقى فيها جيف العالم كلها وأنتانه وأمواته لم تغيره شيئاً ، ولا يتغير على مكثه من حين خُلق ، وإلى أن يطوى الله العالم . فهذا هو السبب الغائى الموجب لملوحته ، وأما الفاعلىُّ فكون أرضه سبخة مالحة » .

ولكن ... إذا كانت منافع البحر كثيرة وخيراته لا تحصى ، فهل استقام الإنسان فى الانتفاع بهذه المنافع والخيرات ؟ وهل تعامل مع البحر معاملة القويم الأمين ؟ . الواقع ينادى بخلاف ذلك ، فالإنسان المعاصر قد امتد بتنافسه وصراعه إلى البحار وشواطئها ، وتبارت الدول والأمم فى السيطرة على البحار وحشدها بآلات القتال والدمار ، من مدمرات ونسافات وبوارج وحوامل طائرات ... إلخ

ولم يقتصر الأمر فى التنكر لمنافع البحر وخيراته على هذا اللون من الانحراف أو الاعتساف ، بل كان هناك انحراف آخر فى الانتفاع بالبحر ، وهذا الانحراف يتمثل من كثير من الناس فى ذلك الفجور الذى يأتونه على شواطئ البحار ، دون تقيد بقيود للفضيلة أو العفة أو الوقار.

ومن أعنف ما قرأت فى تصوير هذا الفجور عبارة أجراها الرافعى على لسان الشيطان ، وهو يصور ما يجرى فى أحد الشواطئ ، وكان ذلك فى الثلاثينيات من هذا القرن - فيقول :

« هنا على رغم الآداب مملكة للصيف والقيظ ، سلطانها الجسم المؤنث العارى ، أجسامٌ تعرض مفاتنها عرض البضائع ، فالشاطئ حانوت للزواج . وأجسام تعرض أوضاعها كأنها فى غرفة نومها لا فى الشاطئ ، وأجسام جالسة لغيرها ، تحيط بها معانيها ملتمسة معانيه ، فالشاطئ سوق للرقيق ، وأجسام خفرة جالسة للشمس والهواء ، فالشاطئ كدار الكفر لمن أكره ، وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدريها ، لأنها جعلت الشاطئ مستشفى ، وأجسام خليعة ، أضافت من « استانلى » وأخواتها - إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية - مزبلة الإسكندرية .

كان جدال المسلمين فى السفور ، فأصبح الآن فى العُرْى ، فإذا تطور

فمـاذا بقى من جدال أوربـا ، إلا الجـدال فى شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج » !

كان ذلك الكلام فى الثلاثينيات ، فماذا يقول صاحبه لو عاد إلى القول اليوم ؟ ألا يذكرنا هذا من قرب أو من بعد ، يقول الحق جل جلاله : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاس ، لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون » ؟ (الروم ٤١) .

ليت كل إنسان عاقل يحسن التدبر والتفكر فى قول الله جل جلاله : « ولقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وحملْنَاهُمْ فى البَرِّ والْبَحْرِ ، ورزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وفضَّلْنَاهُمْ علَى كَثِيرٍ ممن خَلَقْنَا تَفْضيلا » (الإسراء الآية ٧٠) .

القمر في القرآن

مادة « القمر » اللغوية تدل فى الأصل على البياض فى الشيء ، ومن هنا جاء اسم كوكب « القمر » لبياضه ، وقيل إنه سمى بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب ، أى يغلبه ويفوز به ، من المقامرة ، ولذلك لا يظهر ضوء الكواكب عند سطوع القمر .

والقمر هو ذلك الكوكب السماوى السيار ، الذى يستمد نوره من الشمس ويدور حول الأرض وينيرها ليلا ، وهو كوكب تابع للأرض ، ويؤثر فيها ، إذ يسبب حركة المد والجزر فى مياه البحار ، ويؤثر فى الأمواج والرياح ، وهو أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض ، ولذلك يبدو لنا أكبر من حجمه بكثير ، وهو ليس ساكناً فى مكانه ، بل له حركته ، واتجاهه يتغير على الدوام ، وإن كانت مسافة بُعده عن الأرض تظل ثابتة ، فهو يسير حول الأرض فيما يقرب من الدائرة ، فيطوف حولها كل شهر مرة ، ومعنى هذا أنه يدور حول نفسه فى الفضاء مرة فى الشهر .

هكذا تحدث علماء الفلك والكون فيما تحدثوا عن القمر .

فما حديث القمر فى القرآن الكريم ؟

لقد ذكر كتاب الله القمر أكثر من خمس وعشرين مرة ، وهذا الذكر المتكرر يدل – بادئ ذى بدء – على عناية التنزيل المجيد بهذا الكوكب الذى خلقه الله وأبدعه ، ويسر الانتفاع به لعباده ، ثم تكرر قسم القرآن بالقمر ، فقال فى سورة المدثر : « كلاَّ والقَمَرِ » (الآية ٣٢) . وقال فى سورة الانشقاق : « والقَمَرِ إذا اتَّسَق » (الآية ١٨) . أى إذا تم واستدار وصار بدراً ، وقال فى سورة الشمس : « والشَّمْسِ وضُحاهَا ، والقَمَرِ إذا تَلاَهَا » (١ ، ٢) . والمعروف أن القسم يكون بما له قيمة ومكانة ، ولذلك يذكر الإمام الرازى أن الله تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر فى القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة ، حتى يتأمل المكلف فيها ، ويشكره عليها ، لأن الشيء الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع فى القلب ، فتكون الدواعى إلى تأمله أقوى .

ومن مظاهر عناية القرآن بالقمر أن سورة من سوره قد سماها « سورة القمر » وافتتحها بذكره فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

ولقد امتن الله تبارك وتعالى على عباده بنعم كبرى تقوم بها الحياة ، ويحتاج إليها الأحياء ، ومن بينها القمر ، ولذلك قال القرآن فى سورة الأنبياء : « وهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ وَالشَّمْسَ والقَمَرَ ، كلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون » (الآية ٣٣) . كما ذكر وكرر وأكد أنه الذى تفضل على خلقه ، فسخر لهم هذه الأشياء ، ومنها القمر ، ليتمكنوا من استخدامها وقطف ثمراتها ، فقال فى سورة الأعراف : « إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ والأرضَ فى ستَّةِ أَيَّامٍ ، ثمَّ استَوَى علَى العَرْشِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُه حَثِيثاً ، والشمْسَ وَالقَمَرَ والنُّجومَ مُسخَّرات بأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْـرُ تبَارَكَ اللهُ ربُّ العَالَمِينَ » (الآية ٥٤) . وقال فى سورة إبراهيم : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ دائبيْنِ وسخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ » (الآية ٣٣) . وقال فى سورة العنكبوت : « ولئِنْ

سألتهم مَنْ خَلَقَ السَّمَـٰواتِ والأرْضَ وسخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فأنّى يؤفَكُونَ » (الآية ٦١) .

ولم يقتصر حديث القرآن الكريم عن القمر على التذكير بنعمه التسخير ، بل أعطانا فى مواطن منه كثيراً من الإشارات والرموز التى تهدى إلى أضواء من العلم والمعرفة ، فيما يتعلق بنظام الكون وأسراره ، فيقول فى سورة يونس : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُوراً ، وقدَّرَهُ منازِلَ لتعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِين والحِسابَ ، ما خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إلاَّ بِالحَقِّ يفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعْلَمُونَ » (الآية ٥) . ونحن نعرف من المعلومات الكونية أن الضوء أقوى وأبلغ من النور ، ولذلك نسبت الآية الضياء إلى الشمس ، ونسبت النور إلى القمر ، لأن الشمس أقوى من القمر ، وقال أهل التفسير إن الضوء ما كان بالذات كالشمس والنار ، وأما النور فيكون بالعَرَض والاكتساب من الغير .

وقد ذكرت الآية أن الله تعالى قدر القمر « منازل » أى جعله على مقادير معينة مخصوصة ، فجعل للقمر أماكن للنزول ، أو قدر سيره فى فلكه ، وللقمر ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل كل ليلة فى واحد منها بنظام دائب دائم لا يضطرب ، وهو يحتجب عن الرؤية ليلة أو ليلتين كل شهر ، فيغيب ليلةً إذا كان الشهر القمرى تسعة وعشرين يوماً ، ويغيب ليلتين إذا كان الشهر ثلاثين .

وهذا الكلام من أهل التفسير يتلاقى وكلام العلماء الكونيين ، فهم يذكرون أن القمر جسم كروى مظلم ، ولكن أشعة الشمس تضىء نصفه المقابل لها ، ويتغير الجسم المستضىء من القمر من يوم لآخر فى الحجم والشكل ، فأول ما نراه يكون خطًّا رفيعاً منحنياً مستنيراً ، ثم يزداد حجمه شيئا فشيئا ، حتى يصير دائرة تامة ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يصبح

خطا كما كان فى أول ظهوره ، وتسمى هذه الأشكال المختلفة : أوجه القمر .

وفى أول الشهر القمرى يتوسط القمر بين الأرض والشمس ، فلا يظهر منه نور على الأرض ، ويقال إنه فى المحاق ، ولا يمكن حينئذ رؤية القمر ، ثم يظهر خط رفيع من النور ، ويسمى الهلال ، ثم يأخذ الجزء المستضىء فى الازدياد ، حتى إذا مضت سبعة أيام تحول شكله إلى نصف دائرة ، ويقال حينئذ إنه فى التربيع الأول ، ثم يأخذ فى الازدياد عن نصف الدائرة ، ويدعى بالأحدب ، وفى اليوم الخامس عشر تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ، فيظهر لنا القمر على شكل دائرة ، ويسمى البدر ، ثم تتكرر الأوجه السابقة على عكس ما مضى ، وهكذا .

هذا كلام أهل التفسير ، وهذا كلام أهل العلم ، وكل من الفريقين يتركز علمه فى قوله تعالى : « وقدره منازل » الذى يأتى عقبه التذكيرُ بثمرة هذا التقدير فى قوله سبحانه : « لتعلموا عدد السنين والحساب » . أى أن الحكمة فى تقدير الله منازل القمر هى أن تضبطوا حساب الأيام والشهور والأعوام ، ومن وراء هذا الضبط تنتظم حياتكم وواجباتكم ، وتستطيعون القيام بعباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية .

ولولا هذا النظام المشاهد – كما يذكر تفسير المنار – لتعذر على الأميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك ، لأن حساب السنين والشهور الشمسية فن يحتاج إلى دراسة وعلم ، ولذلك جعل الشرع الإسلامى شهر الصوم وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الإيلاء ونحو ذلك ، بالحساب القمرى الذى يعرفه كل واحد بالمشاهدة ، فلا يتوقف على علم فنى يندر وجوده فى غير أماكن العلم والحضارة . وإن كان هذا لا يمنع أن فى عبادتى الصوم والحج حكمة أخرى فى ربطهما بالحساب القمرى ، وهى دورانهما فى جميع

الفصول ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات ، من حارة وباردة ، ومعتدلة ، وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسى الذى له فوائد أخرى .

ولقد أكد القرآن الإشارة إلى الحقيقة العلمية ، وهى أن ضوء الشمس ذاتى ، وأن نور القمر مأخوذ عنها ، فقال فى سورة الفرقان : « تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً » (الآية ٦١) . والمراد بالسراج هنا هو الشمس ، بدليل قوله فى سورة نوح : « وَجَعَلَ القَمَرَ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْس سِراجاً » (الآية ١٦) . والسراج فى الأصل هو الضوء الزاهر بفتيلة ودهن . أى أنه ضوء منبعث من ذات الشيء ، وهذا ينطبق على الطاقة الحرارية المضيئة فى الشمس ، وأما القمر فهو نور أو منير ، أى ينير بوساطة الإشعاع الشمسى المنبعث من طاقتها التى تسقط على القمر فتنيره ، فكأن كلمتى « السراج » و « النور » تشيران إلى أن الشمس هى مصدر الطاقة الحرارية وهذا ما يقرره العلم .

* * *

ويعود القرآن فى سورة يس ليتحدث عن وظيفة القمر فى ذلك النظام الربانى الدقيق المتعلق بالكون والزمن ، فيقول : « وآيَةٌ لَهُم اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فإذاهُمْ مُظْلِمُونَ ، والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلك تقْدِيرالْعَزِيز العَليِم ، والقَمَرَ قدَّرْناهُ منازِلَ حتَّى عادَ كَالْعُرجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ ينْبَغِى لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ، ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النهار ، وكلٌّ فى فَلَك يَسْبَحُونَ » (الآيات من ٣٧ — ٤٠) . فالقمر له منازل مقدرة وأشكال متوالية ، وكل شكل له من هذه الأشكال يكون بمقدار معين ، وزمان محدد ، وبترتيب تصاعدى

فى النصف الأول من الشهر ، ثم بترتيب تنازلى فى النصف الأخير من الشهر.

وهذا التنظيم الإلهى ثابت لا يضطرب ولا ينحرف ، فالشمس فى حركتها ونظامها ، والقمر كذلك فى حركته ونظامه ، لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولذلك يقول خبراء العلم فى التعليق على هذا النص القرآنى الكريم :

إن الشمس لها حركتها الذاتية ، ولكنها تتميز عن النجوم الأخرى لقربها من الأرض ، وبأن لها مجموعة من الكواكب والأقمار والمذنبات والكويكبات تتبعها دائما ، وتخضع لقوة جاذبيتها ، حيث تجعلها من حولها فى مدارات متتابعة بيضاوية الشكل ، وجميع أفراد هذه المجموعة تتنقل مع الشمس خلال حركتها الذاتية .

والخلاصة أن الشمس والأرض والقمر وسائر الكواكب والأجرام ، تجرى فى الفضاء بسرعة محددة ، وفى اتجاه محدود ، ولم يعرف العلماء أن الشمس تجرى لمستقر لها إلا فى أوائل القرن العشرين ، ولا يمكن أن تدرك الشمس والقمر ، لأن كلا منهما يجرى فى أفلاك متوازية ، فيستحيل أن يتقابلا ، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار ، حيث يتطلب ذلك أن تدور الأرض حول محورها من الشرق إلى الغرب ، بدلا من اتجاهها الحالى من الغرب نحو الشرق . والقمر خلال دورته حول الأرض ، ودورة الأرض حول الشمس ، يمر بمجموعات من النجوم تسمى منازل القمر ، وفى التربيع الأول والأخير من الشهر يظهر القمر كالعرجون القديم ، أى يصير كالسباطة إذا قدمت ويبست واعوجت .

ولعل هذا هو السر فى أن الله تبارك وتعالى كرر قوله عن الشمس والقمر . «كلٌّ يجْرِى لأجل مُسمًّى » ومن ذلك قوله فى سورة لقمان : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْل فى النَّهارِ ، ويُولِجُ النَّهارَ فى اللَّيْل ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ،

كلٌّ يَجْرِى إلى أجَلٍ مُسَمًّى ، وأَن اللهَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (الآية ٢٩) . أى أن الله تعالى ينقص من زمن الليل بقدر ما يزيد من النهار ، وينقص من زمن النهار ما يزيد فى زمن الليل ، وسخر الشمس والقمر لصالحكم ، وأخضعهما لنظام دقيق بديع ، حيث يجرى كل منهما فى فلك معين لا يحيد عنه ، ويستمر ذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا النظام المحكم يشير إليه أيضاً قولُ الله سبحانه فى سورة الأنعام : « فَالِقَ الإصْبَاحِ ، وجَعَلَ اللّيلَ سَكَنًا ، والشَمْسَ والقمَرَ حُسْباناً » (الآية ٩٦) . ويفيدنا هذا النص أن القمر قد أقامه الله بحساب دقيق فى مكانه وبُعده عن الأرض التابع لها ، المؤثر فيها ، والعامل القوى فى حركة المد والجزر ، ويقرر علماء الطبيعة أن القمر لو كان أكبر من حجمه الذى هو عليه ، لكان المد الذى يحدثه فى البحار كافياً لإغراق الأرض ، وكذلك لو كان أقرب من بُعده عن الأرض .

وكذلك يمكن أن نفهم من عبارة : « والشمس والقمر حسباناً » معنى أن الله جعل القمر مع الشمس سبباً لضبط الحساب فى الزمن ، لأن طلوعهما وغروبهما ، وما يظهر من تحولاتهما واختلاف مظاهرهما ، كل ذلك بنظام وحساب يحدد الأيام والليالى ، والناس محتاجون أشد الاحتياج إلى هذا الضبط .

وعلماء الكون يقولون إن للأرض حركتين : إحداهما تتم فى أربع وعشرين ساعة ، وهى مدار حساب الأيام ، وحركة تتم فى سنة ، وبها يكون اختلاف الفصول ، وعليها مدار حساب السنين الشمسية .

ويؤكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرى حين يقول فى سورة الرحمن : « الشَّمس والقَمَر بحسْبانٍ » (الآية ٥) . أى إن الشمس والقمر يتحركان

ويجريان فى بروجهما ومنازلهما ، بحساب مقدر منتظم ، يترتب عليه تنظيم أمور الكائنات الأرضية ، وتتعاقب الفصول والأوقات ، من صيف وخريف ، وشتاء وربيع ، ومن ليل ونهار ، ومن نور وظلام ، ومن برودة وحرارة ، وتعرف السنون ويضبط الحساب !

* * *

ويمضى القرآن المجيد فى حديثه المعجز عن القمر ، مضمناً هذا الحديث كثيراً من الرموز والإشارات لقوم يتفكرون ويتدبرون ، فيدركون الكثير من الحقائق الكونية التى تشعرهم بجلال الله سبحانه ، ومن أمثلة ذلك قوله عز من قائل : « والشَّمْسِ وضُحاهَا ، والقَمَرِ إذا تَلَاها ، والنَّهارِ إذا جلَّاهَا ، واللَّيْلِ إذَا يَغْشَاهَا » (سورة الشمس ١ — ٤) .

فقوله « تلاها » فيه إشارة إلى أن القمر يتبع الشمس ويتلوها ، ويأتى من ورائها ، فإذا غابت الشمس ، ودخل الليل ، ظهر القمر . وفيه كذلك إشارة إلى أن القمر ليس فيه نور ذاتى ، وإنما يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس عليه ، وكأن ألقمر يتبع الشمس ليطالبها بدين عليها له ، وهو أن تمده بالنور ، ولذلك يقول الإمام الأصفهانى فى كتابه « مفردات القرآن » إن قوله تعالى : « والقمر إذا تلاها » أراد به اتباع القمر للشمس على سبيل الاقتداء والاستمداد ، لأن القمر يقتبس النور من الشمس ، وهوها بمنزلة الخليفة عنها ، ولذلك نسب الضياء إلى الشمس ، ونسب النور إلى القمر ، لأن الضياء أقوى من النور ، وكل ضياء نور ، وليس كل نور ضياء .

وقوله : « واللَّيْلِ إذَا يَغْشَاهَا » فيه إشارة إلى حالة الظلمة الحالكة التى تعرض للأرض حينما لا يظهر ضوء الشمس ؛ لا مباشرة كما فى النهار ، ولا

بالواسطة كنور القمر المستفاد من الشمس ، وهذا يحدث كل شهر ليلة أو ليلتين وقد قال أهل التفسير إن الكلام هنا فيه مجاز عقلى ، لأنه أسند التغشية – وهى التغطية – إلى الليل ، وإنما الذى يغشى الشمس فى الحقيقة هى الأرض ، حين تتوسط بين الشمس والقمر تماماً فأسند التغشية إلى الليل لأنه أثر من آثار ذلك .

* * *

ويذكر القرآن الكريم انشقاق القمر فى قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ » (سورة القمر الآية ١) . وقد ذكر أهل التفسير والسنن أن انشقاق القمر معناه أنه قد انفصل بعضه عن بعض ، فصار فرقتين ، وقد جاءت أخبار قوية متينة تؤكد أن ذلك قد وقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل الهجرة بنحو خمس سنوات ، معجزةً من الله تعالى أيَّد بها رسوله عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء ذكر ذلك فى صحيحى البخارى ومسلم .

وفى الحديث المتفق عليه أن أهل مكة سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية ، فانشق القمر بمكة ، فنزلت السورة : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم والترمذى جاء عن عبد الله رضى الله عنه : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى ، فانشق القمر فلقتين : فلقة من وراء الجبل ، وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله : اشهدوا .

وقد ثار نقاش طويل حول انشقاق القمر ، وأنكر الملاحدة وقوع ذلك ، وقد أورد الإمام الألوسى فى تفسيره اعتراضهم ورد عليه ، بهذه العبارة :

« وقال بعض الملاحدة : لو وقع لكان متواتراً ، واشترك أهل الأرض كلهم فى معرفته ، ولم يختص بها أهل مكة ، لأنه أمر محسوس مشاهد ،

والناس فيه شركاء والطباع حريصة على رواية الغريب ونقل ما لم يعهد ، ولا أغرب من انشقاق هذا الجرم العظيم ، ولم يعهد أصلًا فى الزمن القديم ، ولو كان له أصل لخلد أيضاً فى كتب التسيير والتنجيم ، ولذكره أهل الأرصاد ، فقد كانت موجودة قبل البعثة بكثير . وإطباقهم على تركه وإغفاله ، مع جلالة شأنه ووضوح أمره ، مما لا تجوِّزه العادة .

وأيضاً لا يعقل سبب فَرْق هذا الجرم العظيم ، وأيضاً خرقُه يوجد صوتاً هائلاً أشد من أصوات الصواعق المهلكة بأضعاف مضاعفة ، لا يبعد هلاك أكثر أهل الأرض منه .

وأيضاً : متى خُرق وصار قطعتين ، ذهبت منه قوة التجاذب ، كالجبل إذا انشق فيلزم بقاؤه منشقاً ، ولا أقل من أن يبقى كذلك سنين طويلة .

والجواب عن ذلك أنه وقع فى الليل وزمان الغفلة ، وكان فى زمان قليل ، ورؤية القمر فى بلد لا تستلزم رؤيته فى جميع البلاد ، ضرورة اختلاف المطالع ، فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين ، ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين ، والاعتناء بأمر الأرصاد لم يكن بمثابته اليوم ، وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد ، والانشقاق لا تختلف به منازله ولا يتغير به سيره . غاية ما فى الباب أن يحدث فى القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية .

وأى مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه فى ضوء الشمس ، فقد قال أهل الحكمة الجديدة إن بين الأرض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعون ألف فرسخ ، وإن ضوءها ليصل إلى الأرض فى مدة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية ، فيقطع الضوء فى كل ثانية سبعين ألف فرسخ .

ولا يلزم أن يُعلم سبب كل حادث ، بل كثير من الحوادث المتكررة المشاهدة لم يوقف على أسبابها ، كرؤية الكواكب قريبةً مع بُعدها المفرط ، فقد ذكروا أنهم لم يقفوا على سببه ، ويكفى فى ذلك عدم وقوفهم على سبب بالعين على الحقيقة ، ولو أخبرهم مخبر – بفرض أن لم يكن لهم أبصار – بخـواص البصر ، مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح ، لأنكروا عليه غاية الإنكار ، وكذبوه غاية التكذيب ، ونسبوه إلى الجنون .

وقد حاول بعض الناس أن يفسر انشقاق القمر بأنه عبارة عن انشقاق الظلام عند طلوع القمر ، كما يسمى الصبح فلقاً عند انفلاق الظلمة منه . وحاول بعض آخر أن يقول إن معنى « انشق القمر » هو : وضح الأمر وظهر .

ولكن الألوسى حمل على هذين الرأيين قائلا : « وكلا الزعمين مما لا يعول عليه ، ولا يلتفت إليه ، ولا أظن الداعى إليهما عند من يقر بالساعة التى هى أعظم من الانشقاق ، ويعترف بالعقائد الإسلامية التى وقع عليها الاتفاق ، سوى عدم ثبوت الأخبار فى وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده ، ومنشأ ذلك القصور التام ، والتمسك بشُبَه هى على طرف الثمام ؛ ومع ذلك لا يكفر المنكر ، بناء على عدم الاتفاق على تواتر ذلك ، وعدم كون الآية نصًّا فيه ، والإخراج من الدين أمر عظيم ، فيحتاط فيه ما لا يحتاط فى غيره ، والله تعالى الموفق » .

ولولا ما ورد فى شأن انشقاق القمر من أحاديث صحاح قوية تؤكد وقوعه بالصورة المذكورة فى كتب السنة لما استبعد العلماء أن يكون المراد بانشقاق القمر هو انفصاله عن أمه الأرض ، لأن علماء الفلك يقولون الآن إن القمر وليد الأرض ، كان قطعة منها ثم انفصل عنها . وقد جاء فى

كتاب « مع الله فى السماء » هذه العبارة :

« أمنا الأرض تلد طفلا . إنه القمر . نعم إنه القمر ، قطعة اقتطعت من الأرض والأرض لا تزال مائعة ، فإن صح هذا فعمر القمر من عمر الأرض . من عمر قشرتها يوم بدأت تتجمد . والذى اقتطع هذه القطعة من الأرض الشمس ، اجتذبت إليها من الأرض طرفاً ، ظل يبرز ثم يبرز ، حتى إذا تهيأ للانفصال انفصل ، كقطرة صغرى من ماء تنفصل عن قطرة كبرى ، وكانت الأرض تدور ، تدور حول نفسها ، وتدور حول الشمس ، فظل فصيلها – طفلها – يدور حول نفسه ويتبعها ، فيدور معها حول الشمس .

واستقر القمر اليوم على بعد من أمه الأرض متوسطه ٢٣٨٨٦٠ ميلا ، ولنقرأه مقرباً ٢٤٠٠٠٠ ميل ، وقطر الأرض نحو من ٨٠٠٠ ميل ، فبعد الأرض عن القمر نحو من ثلاثين قطراً من أقطار الأرض . وقطر القمر نفسه نحو من ٢١٦٠ ميلا ، فهو يزيد قليلا عن ربع قطر الأرض ، والأرض أثقل من القمر ٨٢ مرة .

نذكر هذا كله لننسب الوليد إلى أمه ، لتتكون فى ذهن القارئ صورة قريبة من حال هما عليه اليوم فى السماء ، وهو حال لا شك تغير كثيراً عن حال كان لهما فى سالف الأيام : الأيام البعيدة التى نحصيها بآلاف آلاف السنين .

وأول شىء يهمنا فيما تهدف من إيضاح وحدة الكون ، ما بين الأرض والقمر من تشابه فى التركيب . إن القمر اقتطع من الأرض ، وعلى هذا الفرض وجب أن يكون تركيبه كتركيب الأرض . ويقول العلماء إنه اقتطع من سطح الأرض والأرض على وشك انجماد ، ولا تزال فى سطح الأرض حفرة هائلة تشهد على هذا الاقتطاع ، فذلك هو الحوض الذى فيه

الماء الغمر ، الذى يعرف بالمحيط الهادى .
وانجمد القمر من بعد ذلك ، فوجب أن يشبه الأرض من بعد انجمادها .
وننظر إلى القمر بالمناظير الحديثة ، ونأخذ له صوراً ، وننتهى بأن نقول :
ما أشبه الوليد بأمه ، وهو إن اختلف عنها ، فلأسباب نعلمها كان هذا
الاختلاف » .

* * *

ومع هذه العناية البادية التى رأيناها من القرآن المجيد بشأن القمر ،
ولفت الأبصار والبصائر إلى مكانته ومنفعته ومنزلته ، نجد القرآن يحدثنا
بأن هناك ما هو أكبر من القمر ومن الشمس ، ومن غيرهما ، وأن هناك
من هو أقوى من الكائنات جميعاً ، ذلكم الله جل جلاله ، القاهر فوق
عباده وكائناته ، الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .
إن القمر الذى يجرى بحسبان ، المنتظم فى مسيرته إلى ما شاء الله ،
سيناله التغير والتبدل عند موعد يعلمه الله ، ولذلك يقول القرآن فى سورة
القيامة : « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَر ، وخَسف الْقَمَر ، وجُمع الشَّمْسُ والقَمَرُ ،
يَقُول الإِنْسان يَوْمئذٍ : أيْنَ المفر » ؟ (الآيات ٧ — ١٠) .
إن هذه الآيات الكريمة تتحدث عن حالة الدنيا عند خرابها ، قبل
بداية العالم الآخر ، فتذكر أن البصر حينئذ يزيغ ويتحير ، ويذهب
ضوء القمر ويظلم ، حينما يتأذن الله بخراب هذا العالم ، وتغيير نظامه ، ونسخ
أحكامه ، وهناك لا تصير الأرض أرضاً ، ولا السماء سماء ، فتخرج الشمس
عن أفلاكها ، وينتثر القمر ، وتضطرب الجاذبية القائمة الآن بين الشمس
والقمر ، فإذا هما يتهاويان فيلتقيان ويجتمعان ، وهذا تصوير لنهاية الدمار

والاضطراب ، ولذلك يفزع الإنسان غاية الفزع قائلا : أين المفر ؟

إن القمر عظيم كبير بالنسبة إلى مخلوقات أخرى كثيرة ، ولكنه أمام عظمة الله صغير ضئيل .

ولهذا نبه القرآن الكريم إلى أن القمر مع الشمس ، مع كل من فى السموات والأرض ، يخضع لعظمة الله جل جلاله ، ويخشع لعظمته وجبروته ، ولذلك يقول القرآن فى سورة الحج : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ ، والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجومُ والجبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ ، ومَنْ يُهِنِ اللهُ فما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » (الآية ١٨) .

وأكد القرآن المجيد معنى خضوع الكائنات لجلاله وعظمته ، ومعنى سيطرته على ما فى السماء والأرض ، ومن بين ذلك القمر ، فقال فى سورة فصلت : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ ، والشَّمْسُ والقَمَرُ ، لا تسجُدُوا للشمسِ ولا للقَمَرِ ، واسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى خلقَهُنَّ إنْ كُنْتم إيَّاهُ تعْبُدونَ » (الآية ٣٧) .

* * *

وأخيراً نجد القرآن يتخذ من نظام النجوم ، وفى طليعتها الشمس والقمر ، وسيلة للنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وللتدبر فى آيات الله ودلائل عظمته ، وللاهتداء إلى استحقاقه الربوبية دون سواه ، لأن الذى خلق كل هذه الأجرام العظيمة ، وقدر لها منازلها ، وأجراها فى مسالكها ، وهيمن على أمرها ، وقدر على التصرف فيها ، هو الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض .

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : « وَكَذلِكَ نُرِى إبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموات

والأَرْضِ ، وليكُونَ مِنَ الموقِنِينَ . فلمَّا جَنَّ عليْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكباً ، قالَ هـذا رَبِّى ، فلمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فلمَّا أفَلَ قالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّين . فلَمَّا رأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قالَ هَـذا رَبِّى هـٰذا أَكْبَرُ ، فلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مما تُشْرِكُونَ ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمواتِ والأَرْضَ حَنِيفاً وما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين » (الآيات من ٧٥ – ٧٩) .



من قصص الحبّ فى القرآن

تقول اللغة إن « الحب » هو الوداد ، ونقيضه : البغض . وتقول : الحب والمحبة ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيراً . وحب الله لعباده هو رضاه عنهم ، ويتبع ذلك إحسانه إليهم . ومحبة العبد لربه هى تعظيم الله تعالى ، وطلب الزلفى لديه ، والتقرب إليـه بالطاعة والعبادة .

والله – جل جلاله – يحب أصنافاً من الناس – كما يحدثنا القرآن الكريم – فهو سبحانه يحب المتقين ، والمحسنين ، والمتطهرين ، والتوابين ، والمتوكلين ، والصابرين ، والمقسطين .

وهناك أصناف من الخلق لا يحبها الله عز شأنه ، فهو لا يحب المعتدين ، ولا الظالمين ، ولا الكافرين ، ولا المفسدين ، ولا المسرفين ، ولا الخائنين ، ولا المستكبرين ، ولا الفرحين .

والحب وصف مشترك بين الله والأخيار من عباده ، والقرآن الكريم يقول فى سورة آل عمران : « قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يحْبِبْكُمُ اللهُ ، ويغْفِرْ لكُم ذُنُوبَكُمْ ، واللهُ غفورٌ رَحِيمٌ » . (الآية ٣١) . فمحبة العبد لله طريقها محبة الإنسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتباع سنته ، والاقتداء بهديه ؛ ومحبة العبد لله

كما يقول الصوفية حالةٌ لطيفة يجدها من نفسه ، تحمله على موافقة أمره سبحانه برضاً لا تصحبه كراهية ، وتقتضى منه إيثار الخالق على كل شىء ، وعلى كل أحد .

ومحبة الله تعالى لعبده هي إرادته الإحسان إليه واللطف به ، أو هي ثناؤه سبحانه على العبد .

و « الحب » كما يقول الصوفية حرفان : حاء وباء . و « الحاء » إشارة إلى « الروح » و « الباء » إشارة إلى « البدن » ، فالمحب الصادق لا يدخر عن محبوبه قلبَه ولا بدنه .

ويقول القرآن الحكيم فى سورة المائدة : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ ، أذِلَّة عَلَى المُؤْمِنِينَ ، أعِزَّة عَلَى الكَافِرِينَ ، يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ولا يخافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ، واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ » (الآية ٥٤) .

ونفهم من هذا النص الكريم أن من يصدق فى حبه لربه ، لا يرتد عن دينه ويقينه ، فالحب دائم ، واليقين قائم ، والله يحب عباده الطائعين بالرحمة واللطف والإحسان والثناء . كما يحب العبد ربه بموافقة أمره فى كل الأحوال . .

وقد نقلوا عن الخضر قوله : « إن الزاهدين فى الدنيا قد اتخذوا الرضى عن الله لباساً ، وحبه دثاراً » . وقيل : لا تطمع فى حب الله مع محبة المال والشرف .

وقال حاتم الأصم : « من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، ومن ادعى حب النبي صلى الله عليه وسلم من غير محبة الفقر فهو كذاب » .

ويقول الله تعالى فى سورة طه مخاطباً موسى عليه السلام : « وألْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحبَّةً مِنِّى ، ولتصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » (الآية ٣٩) . أى أحببتك ، وطرحت

فى قلوب الناس محبة لك .

وقد حدثنا كتاب الله المجيد عن ألوان من الحب ، منها الحب الأبوى المتمثل فى حب يعقوب لولده يوسف ، عليهما السلام . ويعقوب يعبرٍ عن هذا الحب ، حين يطلب إخوة يوسف لأبيه أن يرسله معهم ليرتع ويلعب : « قال : « إنِّي ليحزُنُني ، أنْ تَذْهبُوا به وأخافُ أنْ يأْكلَه الذِّئبُ وأنْتُم عنْهُ غافِلُون » (يوسف ١٣) .

ويعبرٍ يعقوب عن هذا الحب فى هذه الآيات : « وتَولَّى عَنْهمْ وقالَ : يا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ، وابْيضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الحزْنِ فَهوكظِيمٌ ، قالُوا : تاللهِ تَفْتأُ تَذكُرُ يُوسُفَ حتَّى تَكُونَ حَرَضاً أوْ تكُونَ منَ الهالِكِينَ . قالَ إنَّما أشْكُو بَثِّى وحُزْنِى إلَى اللهِ ، وأعْلَمُ مِنَ اللهِ مالَا تعْلَمُونَ ، يا بَنِىَّ اذْهَبُوا فتَحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأخِيهِ ، ولا تيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إنَّه لا ييْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلَّا القوْمُ الكافِرُونَ » . (يوسف ٨٤ — ٨٧) .

ويعبرٍ يعقوب عن هذا الحب الذى اشتد أواره بعد فراق يوسف ، وغيبته التى امتدت وطالت . فذلك حيث تقول الآيات : « ولَمَّا فَصَلتِ الْعِيرُ قالَ أبُوهُمْ إنِّى لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لوْلا أنْ تُفَنِّدُونِ . قالُوا تاللهِ إنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ القَديمِ ، فَلَمَّا أنْ جاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وجْهِهِ فارْتدَّ بَصِيراً ، قالَ : أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ إنِّى أعْلَمُ مِنَ اللهِ مالاَ تعْلَمُون » (الآيات ٩٤ — ٩٦ من سورة يوسف) .

والقرآن المجيد يحدثنا عن حب الأنصار لإخوتهم المهاجرين الذى سما إلى مرتبة الإيثار ، فيقول فى سورة الحشر : « والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ ، ولا يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حاجةً مِمَّا أُوتُوا ويؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ ، ولَوْكانَ بِهِمْ خصَاصَةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ » (الآية ٩) .

وفى كتاب الله الجليل أنواع أخرى من الحب ، لا تبلغ درجةَ الحب المحمودِ عند اللهِ تبارك وتعالى ، ففى سورة القيامة يحدثنا القرآن عن حب الدنيا حيث يقول : «كلاَّ ، بلْ تحبُّون العاجلة ، وتذرُون الآخِرَة » (القيامة ٢٠ – ٢١) . وهناك حب المال الذى يقول عنه القرآن فى سورة الفجر : « وتأكُلونَ التُّراثَ أكلًا لَمًّا ، وتحبُّون المالَ حُبًّا جمًّا » (الفجر ١٩ ، ٢٠).ويقول فى سورة العاديات أيضاً : « إنَّ الإنْسانَ لربِّه لكَنُودٌ ، وإنَّهُ علَى ذلِكَ لشَهِيدٌ ، وإنَّهُ لحبِّ الخيرِ لشديدٌ » (الآيات ٦ – ٨) والخير هنا يراد به المال .

وهناك حب الشهوات والملذات والرغبات ، حيث يقول القرآن فى سورة آل عمران : « زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المسَوَّمَةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ذلِكَ متَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ » (الآية ١٤) .

والقرآن العظيم يخبرنا فيما يحدثنا به من حديث الحب أن الإنسان قد يحب ما فيه شر له ، أو ماهو مكروه لديه . يقول فى سورة البقرة : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون » (البقرة : ٢١٦) .

وأن الإنسان قد يحب من يريد له الشر ويتربص به الدوائر ، فالقرآن يخاطب المؤمنين فى شأن فريق من اليهود أوالمنافقين، فيقول فى سورة آل عمران: « يأيُّهـا الَّذين آمنُوا لا تتَّخِذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ لا يَأْلُونَكُم خبالًا ، ودُّوا ما عَنِتُّمْ ، قد بَدتِ البغْضاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ، وماتُخْفِى صُدُورُهُمْ أكْبَرُ ، قدْ بيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ ، ها أنْتُم أُولاءِ تحبُّونَهُمْ ولا يُحبُّونكُم ، وتُؤمِنُون بالكِتاب كلِّه ، وإذا لَقُوكُم قالُوا آمنَّا وإِذَا خلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُم الأنامِلَ من الغَيْظ ، قُلْ مُوتُوا بغَيْظِكُم إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ، إنْ تَمسَسْكُم حَسنةٌ تسؤْهُم ، وإنْ تُصِبْكُمْ سَيئَةٌ

يَفْرَحُوا بِها ، وإنْ تصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يَضرُّكم كَيْدُهم شيئاً ، إنَّ اللهَ بمَا يعْملُون مُحيطٌ » (الآيات ١١٨ — ١٢٠) .

* * *

ولو أردنا تفصيل القول عن حديث القرآن عن الحب لامتد المجال وطال .

ولكن هناك فى القرآن المجيد « قصة حب » عجيبة رائعة ، هى قصة حب امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، ولقد أفرد القرآن لهذه القصة معظم السورة التى سميت « سورة يوسف » . وقد صدَّر كتابُ الله العلى الأعلى قصة يوسف بآية تدل على روعتها ، يقول فيها الحق جل جلاله : « نَحْنُ نقصُّ عليْكَ أحْسَنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنا إليْكَ هذَا القُرْآن وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ » (الآية ٣) .

وقصة يوسف — فوق ما فيها من العبرة والعظة والتوجيه — تجتمع فيها الخصائص الفنية للقصة كما يعبرون ، فهى حافلة بالحركة ، والصراع ، والأحداث ، وفيها عناصر الانفعال ، والتشويق ، والمفاجأة . . . إلخ

هذا يوسف الفتى الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، ينشأ جميلا باهر الجمال ، طاهراً كامل الطهر ، أثيراً عند والده ، حتى يعصف الحسد بإخوته لأبيه ، فيكيدوا له كيداً ، ويتخلصوا منه بإلقائه فى البئر بعيداً نائياً ، ويزعموا لأبيهم أن الذئب قد أكله .

ثم يلتقطه بعض السيارة المسافرين ، وفى مصر يبيعونه بالبغى والظلم عبداً رقيقاً إلى كبير وزراء الملك فى مصر ، ويتفرس كبير الوزراء فى يوسف أصدق الفراسة ، ويتوسم فيه النبوغ والخير ، فيوصى زوجته الجميلة الفاتنة بيوسف خيراً ، ويوصيها راجياً بأن تحسن معاملته ، وأن تكرمه قدر استطاعتها ، رجاء أن يشب ويكبر ، فيكون للوزير المحروم من الذرية عوناً على بعض شئونه الخاصة أو العامة ، أو يكون لكبير الوزراء وزوجته ولداً يقوم لهما مقام الولد ،

فتقرَّ به أعينهما ، ويكون من بعدُ وارثاً لهما .

وينمو يوسف الجميل الوسيم ويشب ، وهو يزداد مع الأيام جمالا وشباباً ، وتشاء له عناية الله تبارك وتعالى أن يكون – فى قابل أيامه – صاحب تمكين وطيد ، ومنزلة عالية ، بطهارته وذكائه وعلمه ، ومعرفته حقائق الأمور وعواقب الأحداث ، وإرادة الله فوق كل شىء : « واللهُ غالبٌ عَلَى أمْرِهِ ولكنَّ أكْثَرَ الناس لا يَعْلَمُون » (سورة يوسف الآية ٢١) .

ويبلغ يوسف رشده وقوته ونموه فيما بين الخامسة والعشرين من عمره والثلاثين ، ويؤتيه الله سبحانه بصراً بالأمور ، وحكمة فى التصرف ، وإلهاماً وتوفيقاً فى معالجة ما يعرض من المشكلات والنوازل .

يقول الحق جل جلاله فى ذلك :

« وقالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأتِهِ ، أكْرِمِى مَثْوَاهُ ، عَسَى أنْ يَنْفَعَنا ، أوْ نَتَّخِذَهُ ولداً . وكذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الأرْضِ ، ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ ، واللهُ غالِبٌ عَلَى أمْرِه ، ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون . ولما بَلَغَ أشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكذلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِين » (الآيتان ٢١ ، ٢٢) .

هذا فصل تمهيدى من القصة ، أو مقدمة أحداثها ، أو مرحلة أولى من مسيرتها .

* * *

وأخذت امرأة العزيز ، وهى الأنثى الناضجة التى جاوزت الثلاثين فيما يظهر ، أخذت تنظر إلى فتاها وخادمها ورقيقها ، نظرة أخرى غير النظرة التى نظرها زوجها إلى يوسف . لقد أراد كبير الوزراء – كما رأينا – أن يكون يوسف عوناً له ، أو قائماً مقام الولد المحروم منه ، وأراد الله تعالى – من قبل ومن بعد – أن يكون يوسف رفيع الشأن ، عالى المكانة ، صاحب السيادة ، ولكن امرأة

العزيز أرادته عشيقاً لها ، فهى مفتونة ببهائه ، مبهورة بجماله ، فسيطرت عليها غرائز الحس ، ووساوس الشيطان والنفس .

ولعلها قدرت فى نفسها أن بلوغها ما تريد من هذا الفتى الرقيق الخادم ، أمر سهل ميسور ، سيسارع الفتى إليه ويحرص عليه ، ولكنه فى واد آخر ، فهو لا يتأثر ولا يستجيب .

وكان الأمر فى أول الطريق تلميحاً وتلويحاً ، لا إعلاناً وتصريحاً ، فأخذت تفتنُّ فى طرق الإثارة والتحريض ، حتى بلغ بها التهالك فى حبها له أن تتبذل أمامه ، وتعرض مفاتنها عليه ؛ وتلطفت فى مخادعته وإثارته لتحمله على إرادتها ، فيستجيب لرغبتها ، والفتى الطهور الأمين لا يزداد إلا اعتصاماً بربه ، وصيانة لثوبه ، وحفظاً لأمانته ، ووفاءً للرجل الذى آواه ورعاه وأكرم مثواه ، وائتمنه على بيته وأهله .

ونفدت حيل المرأة الهلوك ، وفرغ صبرها واحتمالها للمخادعة ، فاستسلمت وأسلمت قيادها ، ولجأت إلى المصارحة والمكاشفة ، بعد أن عجزت أمام حبها الطاغى وشوقها العارم وعاطفتها المتأججة .

فماذا كان منها وهى السيدة المطاعة صاحبة الترف والنعيم ؟

خلت بيوسف ، وأحكمت إغلاق الأبواب ، ووقفت أمامه صريعة هواها الجموح ، ونسيت عزها وجاهها وسلطانها ، وقالت له : هيت لك . . . هأنذا بين يديك ، فهلم أقبل وبادر .

وهنا يشمخ يوسف بعزة الفضيلة ، وأنفة العفة ، وكبرياء الطهر ، ونور الإيمان . . .

فلا يستجيب للإغراء وإنه لقوى قادر ، ولا للإثارة وإنها لشديدة ، بل يقول فى عزم وإباء مستعيذاً بربه : معاذ الله ، إنه إلهى وخالقى ، الذى كرمنى فأحسن

مقامى بين الناس ، ووفقنى للاعتصام به ، والتمسك بالأمانة والصيانة ، وحفظنى من الإثم والخيانة .

ولعله أراد بالرب هنا صاحب الدار ومالكها ، وهو العزيز الذى أحسن معاملة يوسف ، وأوصى به خيراً ، فلا يجوز فى شرعة يوسف أن يخونه مهما كان الإغراء ، ومهما كان التحريض ، فإن الخيانة عاقبتها الندامة والخسران .

ولم تكفَّ المرأة الهلوك عن تهالكها برغم إباء يوسف ورفضه ، فواصلت المحاولة لبلوغ رغبتها ، وكأن يوسف قد أراد أن ينجو بنفسه وطهره ، ففرَّ إلى الباب يريد الخلاص من الموقف المزلزل الذى لا يعرف ما بعده ، وجرت المرأة الهلوك وراءه ، تحاول رَجْعه بكل حيلة ووسيلة ، وجذبته من قميصه فانشق من خلفه .

وهنا حدثت المفاجأة المذهلة ...

ما كاد يوسف وامرأة العزيز يبلغان الباب فى هذه المطاردة الثائرة ، حتى وجدا « العزيز » عند الباب ... ويوسف فى خوف وفزع ، خشية الاتهام والافتراء ، والمرأة فى دهشة وخوف خشية الافتضاح ...

ولكنها تماسكت وضبطت أعصابها ، ولم تعدم حيلة ...

سرعان ما لجأت إلى مكرها وخداعها لزوجها ، فانقلبت بسرعة من امرأة مغرمة،تتهالك على أن ترضى رغبتها مع خادمها ورقيقها وفتاها « يوسف »،إلى زوجة تتظاهر أمام زوجها المفاجئ لها فى وضع غيركريم وغير لائق ، بأنها حريصة على شرفه ، ثائرة من أجل كرامته ، وطالبت بالسجن أو العذاب الأليم ليوسف الذى ادعت أنه أراد الاعتداء عليها .

وذُهل يوسف لهذا الافتراء الجرىء ، ولكنه تماسك ، وقرر الحقيقة المؤسفة ، فى حماسة الصادق وقوة المؤمن .

ووقف الزوج حائراً لا يدرى ما يصنع !

ولكن شاهداً من أهلها لفت الأنظار والأفكار إلى البرهان والدليل :

إن كان قميص يوسف قد انشق من أمام ، عن جهة صدره ، فهى صادقة فى دعواها ، وهو كاذب ، لأنها تكون قد دافعت عن نفسها وعرضها وهو يهجم عليها - كما زعمت - حيث أخذت بتلابيبه لتدفعه عنها ، فحاول أن ينتزع قميصه منها ، فانشق وهما يتنازعان أو يتصارعان ... وكان الانشقاق - لذلك - من أمام.

وإن كان القميص قد انشق من خلفه فهى كاذبة فى دعواها ، وهو صادق فى أنه فرَّ منها ، فلاحقته ، وجذبته من ورائه ، فانشق القميص . وكان الانشقاق - لذلك - من خلف .

واستبان الصبح لذى عينين . إن الانشقاق من خلف ! ...

وأدرك الزوج جريمة زوجته ، ولكنه لم يثر ، ولعله كان ضعيف الغيرة ، أو ضعيف الإرادة أمام زوجته ، فأراد أن يطوى الخبر ، وأن يستر الفضيحة ، فنصح ليوسف بأن يكتم النبأ ، ونصح لامرأته بأن تستغفر مما ارتكبت .

ويصور القرآن المجيد هذا المشهد الصاخب الثائر الملىء بالأمواج المتلاطمة فيقول :

« وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وغَلَّقَتِ الأَبْوابَ ، وقالَتْ : هَيْتَ لَكَ . قَالَ : مَعاذَ الله ، إنه رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

ولَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وهَمَّ بِها ، لوْلَا أَنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ ، إِنَّه مِنْ عِبادِنَا المخْلَصِينَ .

واسْتَبَقَا الْبابَ ، وقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وأَلْفَيَاسَيِّدَها لَدَى البَابِ قَالتْ : ما جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أنْ يُسْجَنَ أَوْعذابٌ أَلِيمٌ ؟

قالَ : هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى . وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا : إِنْ كانَ قميصه

قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فصَدَقَتْ ، وهُوَ مِنَ الكاذِبِينَ . وإنْ كان قميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، فكَذَبَتْ وهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

فَلمَّا رَأى قميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبرٍ قالَ : إنَّه مِنْ كيْدكُنَّ ، إنْ كيْدكُنَّ عظِيمٌ . يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ ، إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئِينَ » ! .
(الآيات ٢٣ – ٢٩) .

ولقد وقف أهل التفسير طويلا عند قوله تبارك وتعالى : « ولقد همت به ، وهمَّ بها ، لولا أن رأى برهان ربه » . وذهبوا فى فهم هذا النص مذاهب ، وخلاصةُ حديثهم أن جمهور المفسرين يقولون : إن المعنى أنها همت به همَّ فعلٍ ، وهم بها همَّ النفس ، ثم تجلى له برهان ربه ، وتجلى له إيمانه ، فترك وانصرف .

ويرى صاحب « المنار » أن المعنى هو أنها همت به كى تضربه جزاء تأبيه وتمنعه ، وهم هو بالدفاع عن نفسه ، وردِّ العدوان بمثله ، ولكنه فكر وتدبر ، فآثر الهرب ، لأنه لا يعرف عواقب الموقف لوحدث اعتداء ودفاع .

ويرى صاحب « ظلال القرآن » رأياً آخر يصوره بهذه الكلمات :

« الذى خطر لنا أن قوله تعالى : « ولقد همَّتْ بِهِ وهَمَّ بِها لوْلَا أنْ رأى بُرْهَانَ ربِّه » هو حكاية عن ماضٍ قبل واقعة المراودة وتغليق الأبواب ، وموقف التأبى الكامل الذى لا لين فيه ولا اتجاه ؛ وأنها همت به قبل ذلك . وقد يكون ذلك مرات ، وهى تغريه إغراء المرأة الصامت ، الذى لا يصرح كما صرحت أخيراً .

وهمَّ بها همَّ ميلٍ نفسى فى لحظة من لحظات الضعف البشرى – قبل أن يؤتى الحكم والعلم – ثم جاءه برهان ربه فيما أوتى ، وعُصِم من تأثير الإغراء الأنثوى . وهذا ما يقول عنه القرآن : « كذلِكَ لِنَصْرِفَ عنْه السُّوءَ والفَحْشاءَ إنَّه مِنْ عِبادِنا المخْلَصِينَ » .

والسوء هو الاستجابة النفسية للإغراء ، والفحشاء هى الفعل الذى ينتهى إليه .

فلما كان الموقف الأخير ، كان يوسف محصَّناً تجاهه بما رأى من قبل من برهان ربه ، فكان رده حاسماً قاطعاً ، لا يقع معه هم ولا ميل فى أية صورة من الصور .

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص ، ونتصور الظروف ، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية ، فقبل إيتاء الحكم والعلم ما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار ، ومن ثَمَّ لم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات ، فأما بعد الحكم والعلم فقد رأى برهان ربه ، ولم يعد للضعف البشرى فى مثل هذا الأمر سبيل .

ولا داعى لتكلف تفسير الهم بأنه همُّ الضرب ، حيث لا يوجد من النص دليل . وكذلك لا داعى لتفسير الهم بأنه ميل نفسى فى تلك الواقعة ، مع أنه قال : « مَعاذَ اللهِ ، إنَّه ربِّي أحْسَنَ مَثْواى ، إنَّه لا يُفْلح الظَّالمُون » .

فكان برهان ربه حاضراً معه ، فلم يكن ليهم بعد هذا ولو بالميل النفسى كما قال الجمهور .

وموقف المرأة معه هكذا داعية جاهرة ، أقرب إلى التنفير منه إلى الإغراء الذى يضعف معه ، فيحتاج إلى ما يوقف اندفاعه ، ولو كان اندفاع الميل النفسى لا الحيوانى » .

* * *

لكن الرواية لم تتم فصولا ...

كان ما كان ، وحاول الزوج الضعيف الغيرة أن يطوى الخبر ، وأن يعفِّى الأثر ... ولكن هيهات ، فللقصور آذان ، ولجدرانها عيون ... فسرى النبأ إلى

طائفة من نساء المدينة ، وأخذن يتحدثن به ، ويزخرفن فيه ، ويستنكرن على امرأة العزيز هذه المراودة ، بعد أن سيطر عليها حبها ليوسف ، واخترق شغافَ قلبها ، واستبد بها .

وسمعت امرأة العزيز بأحاديث النسوة واستنكارهن ، فأرادت أن تكيد لهن ، وفى الوقت نفسه تدافع عن تصرفها ، وتجعل لها عذراً فيما ارتكبت ، حتى تقيم الدليل على أنها مقهورة ، وأنهن لو وقفن موقفها . لعذرنها وأشفقن عليها ، فدعتهن إلى مأدبة فى دارها ، وأجلستهن جلسة لينة مترفة ، وقدمت إليهن ألواناً من اللحم والفاكهة ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً تقطع بها ما بين يديها ، ولعلها راعت أن تكون السكين قاطعة مرهفة الحد .

وبينما النسوة مشغولات بالطعام واستعمال السكاكين ، أمرت امرأةُ العزيز فتاها يوسف الجميل الفاتن الجمال ، أن يخرج عليهن فجأة ببهائه وروعته ، فإذا الدهشة تذهلهن ، وإذا هن بسبب هذا الحسن الرائع والجمال البارع — يفقدن اتزانهن ، أووعيهن ، فيجرحن بالسكاكين الماضية المرهفة أيديهن ، بدلا من تقطيع ما يأكلن ، ذاهلات عما يفعلن ، واندفعن يقلن — كأنهن قد تواصين بالقول — : حاشا لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ! ! . .

وانتهزت امرأة العزيز الفرصة ، وسخرت منهن قائلة : فذلك الذى لمتننى فيه ! . وأنتن الآن بعملكن هذا قد شهدتن لى ، فقد أوتى يوسف — كما يعبر صاحب المنار — من روعة الجمال ما خلب ألبابكن فى الوهلة الأولى من ظهوره أمامكن ، فما قولكن الآن فى أمرى معه ، وافتتانى به ، وقد ترعرع فى دارى ، وبلغ أشده واستوى أمام سمعى وبصرى ، أشاهد جماله ليلى ونهارى : فى قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وطالما تراءيت له فى زينتى ، وعرضت عليه ما ظهر وما خفى من محاسنى ومفاتنى ، وهو لا يزداد

إلا إعراضاً عنى ، واحتقاراً لتصرفى !

وواصلت امرأة العزيز الاستجابة لطيش عاطفتها ، فهددت يوسف — إن لم يستجب لها — بأنها ستسجنه وتذله وتقهره . ولكن يوسف لم يبال بهذا الوعيد بل اتجه إلى ربه يرجوه ويدعوه ، ويقول له فى نجواه : إن السجن أحب إليه من الاستجابة لذلك النداء الأثيم : نداء الشهوة المسعورة العارمة ، وسأل ربه أن يصرف عنه كيد هؤلاء النسوة ، حتى لا يضعف أو يلين — ذات مرة — أمام الكيد الموصول والتحريض المستمر والإثارة المزلزلة ، فاستجاب الله دعاءه ، وحقق رجاءه .

وتصوّر السورة الكريمة هذه المرحلة من القصة بهذه الكلمات :

« وقالَ نِسْوَةٌ فِى المدينَةِ امْرأةُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فتَاهَا عَنْ نَفْسِه ، قَدْ شَغَفَها حُبًّا إنَّا لَنَراهَا فى ضَلالٍ مُبينٍ ، فلمَّا سَمِعَتْ بمَكْرِهِنَّ أرْسَلَتْ إليْهِنَّ ، وَأعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتكئاً ، وآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنهنَّ سِكِّيناً ، وقالت : اخرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فلمَّا رَأيْنَه أكْبَرْنَهُ ، وقطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ، وقُلْنَ : حَاشَ للهِ ، ما هذا بَشراً ، إنْ هذَا إلَّا مَلَكٌ كرِيمٌ .

قَالَتْ : فَذٰلِكنَّ الَّذِى لُمتنَّنِى فِيهِ ، ولقَدْ راوَدْتُه عن نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ ، ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ .

قالَ : ربِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إلَيْهِ ، وإلَّا تصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أصْبُ إلَيْهِنَّ ، وأكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ .

فاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ » (الآيات ٣٠ — ٣٤) .

* * *

ثم بدا لأهل العزيز أن يسجنوا يوسف إلى أجل غير معيَّن ، لإخفاء

القصة ، وكفّ ألسنة الناس عن الخوض فيها ، ونسبوا إلى يوسف ما نسبوا من اتهام ملفق ، لتسويغ سجنه ؛ والزور قديم العمر .

وقضى يوسف فى السجن ما قضى ، وهو يبشر بدعوة التوحيد ، ويظهر من علمه وتعبيره الرؤى ما يظهر ، وبعد بضع سنوات هيأت الأقدار ليوسف أن يستشيره ملك مصر حينئذ فى رؤيا رآها ، ويفتيه يوسف فيها بعلم وفهم وفطنة ، ولا يغيب ذلك كله عن ذهن الملك .

ويرسل الملك إلى يوسف يستدعيه لمقابلته ، فيأبى يوسف أن يخرج من السجن ، حتى يحقق الملك فيما صنع النسوة من كيد وافتراء ، حتى لا يلقاه ورقبته معلقة بتهمة هو منها برىء .

إنه لا يفرح بالحرية الظنينة ، ولا يسارع إلى الخروج من السجن قبل أن تظهر براءته واضحة معلنة على رءوس الأشهاد . إنه يطلب إلى الملك أن يستجوب أولا هؤلاء النسوة اللواتى قطعن أيديهن ، حتى يمحص تلك المكايد التى أدخلته السجن ، ويعلن براءته ونزاهته على الملأ .

واستجاب الملك لطلب يوسف هذا الإنصاف ، وجمع النسوة ، وسألهن حقيقة الأمر ، فجهرن ببراءة يوسف ، وقلن : حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء .

وهنا تقدمت امرأة العزيز فى قوة وجرأة ، وأخذت تنفى عن يوسف الإثم ، وتنزهه عن العيب ، وتعترف بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، وذكرت أن اعترافها هذا ، تريد منه أن يعلم يوسف أنها لم تسمح لنفسها أن تطعن فى شرفه وهو غائب فى السجن ، وها هى ذى الآن – على رءوس الأشهاد – تشهد بطهارته وبراءته ، وتشهد على نفسها بأنها أساءت إليه ، وأساءت إلى نفسها ، وتسأل ربها تبارك وتعالى العفو والمغفرة .

تقول السورة الكريمة عن هذا المشهد من مشاهد القصة :

« وقالَ المَلِكُ : ائتُونِي بِهِ فلمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ : ارْجعْ إلَى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ : ما بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عليمٌ .

قَالَ : ما خَطْبُكنَّ إذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ : حَاشَ للهِ ، ما عَلِمْنَا عَـلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ، أنا رَاوَدْتُه عَنْ نَفْسِهِ ، وإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِين ، ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغَيْبِ ، وأنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الخائِنِينَ ، وما أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ، إلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إنَّ ربِّي غَفُورٌ رحيمٌ » (من ٥٠ — ٥٣) .

ورجعت امرأة العزيز إلى الحق ، واعترفت بالحق ، واعتصمت بالحق ، فأثنت على يوسف وشكرته ، وعادت إلى ربها تائبة مؤمنة .

وكان لابد من المصير الكريم العظيم ، ليوسف التقى الأمين ، فإذا الأقدار تجعله صاحب الرأى والسلطة . وإذا الملك يقدّر يوسف قدره ، ويرفع ذكره :

« وقَالَ المَلِكُ : ائتُونى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لنَفْسِى ، فلمَّا كلَّمَهُ قالَ : إنَّكَ اليَوْمَ لدَيْنَا مَكِينٌ أمِينٌ .

قال : اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

وكذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ ، يَتَبوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمتِنَا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِينَ ، ولأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ للَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ » (الآيات ٥٤ — ٥٧) .



حديث السخرية فى القرآن

السخرية تفيد معنى الاستهزاء . تقول العرب : هزئ به واستهزأ به ، مثل قولهم : سخر منه . وقيل : الهزء مزحٌ فى خفة . والاستهزاء : الاستخفاف ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره .

وكثيراً ما يصحب ذلك السخرية منه ، وهى الضحك الناشئ عن الاستخفاف والاحتقار .

وتقول العرب : سخر منه ، وسخر به : أى هزئ به واحتقره . وسخر الله منهم : أهانهم . واتخذه سخرياً : أى مثار استهزاء . واستسخره : بالغ فى السخرية به . وقد يطلق الضحك بمعنى السخرية ، ومن ذلك قولهم : ضحك به ، أو سخر ، ويراد منه التعجب . وقد يطلق أيضاً على هذا المعنى كلمةُ : التفكه .

وللسخرية فى القرآن الكريم حديث يساق :

ولما كانت السخرية – فى الغالب – لوناً من التطاول على الإنسان ، والاستخفاف بالغير ، لم يرتض الإسلام – وكتابه القرآن المجيد – أن تكون صفةً من صفات المؤمنين ، اللهم إلا فى حالة الانتصاف ورد الكيد إلى أهله

لأن القرآن يقول : « والَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » (الشورى ٣٩) .

وجعل القرآن رذيلةَ السخرية المتطاولة الجاهلة صفة غالبة على الكافرين المجرمين ، ولذلك قال عنهم فى سورة الصافات : « وإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُون » (الآية ١٤) . أى يدعو بعضهم بعضاً إلى أن يسخر ، كأنهم يتنافسون فى السخرية ، أو يتواصون بها ، للتسابق فى الشر .

ويحدثنا القرآن بأن شر أنواع السخرية هو سخرية الكافرين بالرسل ، وذلك لأن الرسل هم النماذج العليا للبشر ، وهم الدعاة الهداة بأمر الله وتوجيهه ، وطاعة الرسول من طاعة الله ، ومحبته من محبة الله ، فإذا تطاول عليهم متطاول ، أو استهزأ بهم مستهزئ ، فكأنه يتطاول بذلك على مقام ربه سبحانه وتعالى .

ونحن نجد القرآن فى سورة « هود » عليه السلام ، يقص لناقصة نوح عليه السلام مع قومه فيما يتعلق بالسفينة والطوفان ، فيقول فيما يقول :

« ويَصْنَعُ الفُلْكَ وكُلَّما مَرَّ عليْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قالَ إِنْ تَسْخَرُوا منَّا فإِنَّا نَسْخَرُ منْكُم كَما تَسْخَرُونَ . فَسوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ويَحِلُّ عليْهِ عذابٌ مُقِيمٌ » (الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .

أى يأخذ نوح — عليه السلام — فى صنع السفينة التى ستحمل المؤمنين لإنجائهم من كارثة الطوفان ، ويصنع نوح ذلك استجابةً لأمر ربه القوى القادر ، وانتظاراً لوعده الكريم المأمون بالنجاة والفوز ؛ ويمر عليه قومه ، جماعة بعد جماعة ، وفوجاً إثر فوج ، وكلما مرت عليه جماعة سخرت من عمله ، واستهزأت به ، وتندرت عليه .

لقد حسبوه فى زعمهم مجنوناً ، أو مصاباً بهوس ، وعلى الرغم من أنهم يرون بأعينهم ما يصنعه ، يسألونه فى استهزاء واستخفاف : ماذا تصنع يا نوح ؟

فيجيبهم : أصنع بيتاً على الماء ! . . .

وهو صادق كل الصدق فى إجابته ، لأنه يصنع سفينة تسير فوق الماء ، ولكن لعل السفن لم تكن مألوفة لديهم ، أو لم يكن عندهم دقة النظر التى تمكنهم من فهم جوابه .

وحينما يوجهون سخريتهم إلى نوح يرد عليهم قائلا فى انتصاف : إن تسخروا منا – لجهلكم فائدة ما أصنع ، فإنا – نحن المؤمنين – سنجازيكم من جنس عملكم ، فنسخر منكم اليوم لجهلكم ، ونسخر منكم غداً ، لما يحل عليكم من انتقام الله عز وجل .

وسوف تعلمون غداً من يصيبه عذاب يذله فى الدنيا ، ثم يصيبه فى الآخرة عذاب دائم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ويرصد صاحب « ظلال القرآن » هذا المشهد من مشاهد قصة نوح ، ويلحظ مافى كلمة « يصنع الفلك » من حيوية فيقول : « التعبير بالمضارع – فعل الحاضر – هو الذى يعطى المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التعبير ... يصنع الفلك ، وترى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون ، يسخرون من الرجل الذى كان يقول لهم : إنه رسول ، ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً . إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر ، شأنهم دائماً فى إدراك الظواهر ، والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير .

فأما نوح فهو واثق عارف ، وهو يخبرهم أنه يبادلهم سخرية بسخرية : « قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله ، وما ينتظركم من مصير : « فسوف تعلمون من

يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

أنحن أم أنتم ، يوم ينكشف المستور عن المحذور » ! !

* * *

وإذا كانت سخرية هؤلاء الطغاة المجرمين بنبى الله نوح مثالاً لفسق الإنسان وفجوره حين يسخر بداعية ربه ورسول خالقه ، وقد وقع هذا الإثم الفاجر فى الزمن القديم ، فإن الإنسانية – ممثلة فى بعض أبنائها الطغاة – لم تكف عن هذا الإثم الآثم ، بل ظل رسل الله عليهم الصلاة والسلام يلقون مثل هذه الجريمة – السخرية – ممن كتب الله عليهم الشقوة ، وأعد لهم سوء العذاب

وهذا هو القرآن يوثق ذلك النبأ حين يقول فى سورة الأنعام :

« وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فحاقَ بالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (الآية ١٠) .

فأهل الكفر والضلال قد استهزءوا برسل كرام عظام من رسل الله قبلك يا محمد – عليك الصلاة والسلام – وربك بالمرصاد ، فألحق بأولئك الساخرين ما يستحقونه من عقاب ، وتاريخ هؤلاء يحدثك عن ألوان البلاء والهلاك التى نزلت بهم ، وهذا جزاء عادل مقابل استهزائهم بالرسل عليهم الصلاة والسلام .

وكأن هذه الآية الكريمة نوع من التسلية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وتبشير له بأن الله سينصره على أولئك الساخرين ، وينتقم له منهم بعذابه وعقوبته ، وإذا كان المشركون قد طغوا وبغوا على رسول الله محمد ؛ بألوان من التكذيب والاستهزاء والإيذاء ، ويحسبون أنهم بمنجاة من السوء والعذاب ، فقد كان الذين سبقوهم من طغاة الحياة أشد منهم قوة ومالا ، وكانوا يحسبون كما يحسب المشركون أنهم آمنون لا تنالهم عاقبة طغيانهم ، ولكن الانتقام أحاط

بهم كما سجل القرآن وصادق التاريخ .

وهؤلاء المشركون الذين يسخرون منك – يا محمد – سيلاقون ما لاقى أسلافهم . .

لا تحزن . . . إنهم على الطريق ، وبئس الطريق !

* * *

ويعود القرآن المجيد ليعرض علينا مشهداً من مشاهد سخرية المجرمين بخيرة الناس أجمعين .

يتحدث القرآن إلى الرسول فى سورة « الصافاتِ » عن المشركين المنكرين للبعث والحساب ، فيقول له فيما يقول : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ، وإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرونَ ، وإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ » (١٢ – ١٤) .

إنك قد عجبت يا محمد من حماقة هؤلاء وسفههم ، حين كذَّبوا البعث ، وأنكروا القيامة ، وأنت موقن بصدقه وحقه ، وهم مع ذلك يسخرون من هذا الحق المبين ، وكلما شاهدوا دلالة على صدقك أعرضوا عنها واستهزءوا بها .

وحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم – كما يعبر صاحب ظلال القرآن – أن يعجب من أمرهم ، فإن المؤمن الذى يرى الله فى قلبه كما يراه محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب لاشك ويدهش : كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ، وكيف يمكن أن تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب منهم هذا العجب ، إذ هم يسخرون من القضية الواضحة التى يعرضها عليهم ، سواء فى وحدانية الله ، أو فى شأن البعث والنشور ، وإذا هم مطموسون ، لا تتفتح قلوبهم للتذكير ، وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجيب ممن يريهم إياها ،

واستدعاء أسباب السخرية ، وطلبها طلباً كما يوحى لفظ « يستسخرون » !

* * *

وبعد سخرية المجرمين بالمرسلين تأتى جريمة السخرية من الكافرين بالمؤمنين . . .

يقول الله جل علاه فى سورة البقرة :

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، والَّذِين اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بغَيْرِ حِساب » (الآية ٢١٢) .

إن الذين لا يؤمنون بالحق الثابت ، والحقوق المشروعة لله وللناس ، بل يفضلون زينة الدنيا على ما عند الله سبحانه من النعيم المقيم الدائم ، جعلوا هذه الزينة أكبر همهم وغاية قصدهم ، وهم يهزءون بالمؤمنين الصادقين ، ويسخرون من فقرائهم ، لأنهم محرومون من زينة الدنيا بسبب فقرهم ، ويسخرون من أغنياء المؤمنين ، لأنهم – فى زعم الكافرين – لا يتمتعون بأموالهم وغناهم فى مباذل الحياة وشهواتها ووجوه إسرافهم ، بل يستعدون للقاء ربهم ، ويحلون أنفسهم بمكارم الأخلاق ومحامد الفعال .

وأغنياء المؤمنين يرون لذتهم فى خدمة غيرهم ، والقيام بحقوق الأفراد والجماعات ، وكلما أنفق المؤمنون فى سبيل الخير مغنماً ، عده أولئك الكافرون مغرماً ، وزادوا فى سخريتهم ، ولبئس ما يفعلون .

وفى هذه الآية يخبر الله تعالى – كما يذكر ابن كثير – عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمرهم الله بها ليرضى عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجهه ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك فى

محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين ، وخلِّد أولئك فى الـدركات فى أسفل سافلين .

* * *

ويقدم القرآن الحكيم لوناً آخر من سخرية الكافرين بالمؤمنين :

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة التوبة عن المنافقين :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المطَّوِّعِينَ منَ المُؤْمِنِينَ فى الصَّدَقَاتِ ، والَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُم ، ولَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الآية ٧٩) .

تتحدث الآية الكريمة عن أولئك المنافقين الآثمين ، الذين يعيبون المؤمنين المتطوعين بالخير والإنفاق ويطعنون فيهم ، لا لعيب عندهم ، ولا لسيئة منهم ، بل لأنهم يتطوعون ، ويتبرعون بأموالهم وأشيائهم لمن يستحقّون المعاونة ؛ وكذلك يعيب أولئك المنافقون اللؤماء ، على الفقراء المؤمنين الذين يتصدقون بالقليل الذى يدخل فى وسعهم وطاقتهم .

والله المنتقم العادل يسخر من أولئك الساخرين ، ويعذبهم بما أجرموا ، وسمى عذاب السخرية هنا سخرية على طريق « المشاكلة » والجزاء من جنس العمل ، فجازاهم بمثل ذنبهم ، فجعلهم بقدرته سخريةً للمؤمنين وللناس أجمعين ، حيث فضح نفاقهم ، وكشف صغارهم ، ثم توعدهم بعذاب أليم من بعد ذلك .

ولقد جاء فى صحيحى الإمامين البخارى ومسلم عن أبى مسعود البدرى رضى الله تعالى عنه قال :

لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (أى يحمل بعضنا لبعض بالأجرة) فجاء أبو عقيل الحباب بنصف صاع ، وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياءً ، فأنزل الله تعالى قوله :

« الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات . . .) إلخ .

وجاء فى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة ، فجاء عمر بصدقة ، وعثمان بصدقة عظيمة ، وبعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم – يعنى عبد الرحمن بن عوف – ثم جاء أبو عقيل بصاع من تمر .

فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكِّر بنفسه ، فنزلت الآية الكريمة .

وعن عكرمة قال :

حثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة – يعنى فى غزوة تبوك – فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، فقال : يارسول الله ، مالى ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها ، وأمسكت نصفها .

فقال له الرسول : بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعَطيت .

وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يارسول الله ، أصبتُ صاعين من تمر . صاع أقرضه لربى ، وصاع لعيالى .

فلمز المنافقون فقالوا : ما الذى أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا عن صاع أبى عقيل . ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟

* * *

وإذا كان الحق جل جلاله لا يرتضى للمؤمنين أن يتدنسوا بدنس السخرية الجاهلة المتطاولة ، لأنها رذيلة من شأن الكافرين والفاسقين ، فإن الله عز شأنه يتيح للمؤمنين فرصة السخرية المنتصفة المنتقمة ممن يستحقون الانتقام ، لأن المؤمنين لو استناموا للسخرية تزحف إليهم وتتطاول عليهم من هنا وهناك ، لكان من وراء ذلك شر كبير وبلاء مستطير .

ومن هنا أخبر الله جل جلاله أنه سبحانه يستهزئ بالمجرمين ويجازيهم على

سفاهتهم ، وأن المؤمنين لهم موقف مشهود يسخرون فيه من الفاجرين والكافرين ، ويضحكون منه ، وما أعدل السخرية حين تأتى رداً على طغيان ، أو قهراً لكفران .

يقول الله تعالى فى سورة المطففين :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يضْحَكُونَ ، وإذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وإذَا انْقَلَبُوا إلى أَهْلِهِم انْقَلَبُوا فكِهِينَ . وإذَا رَأَوْهُمْ قالُوا إنَّ هؤُلاءِ لَضَالُّونَ ، وما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فاليَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرونَ ، هَلْ ثُوِّبَ الكفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ » : (الآيات من ٢٩ — ٣٦) .

إن الأستاذ الإمام يعلق على هذا المشهد بتلك الكلمات .

« من شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ، ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً .

كذلك كان شأن جماعة من قريش — كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأشياعهم — وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان ، متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع ، وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجُهل أمر الدين ، وأزهقت رُوحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن ، وحركات أركان لا تشايعها السرائر ، وتحكمت الشهوات ، فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل ، إلا ما تعلق بالطعام والشراب ، والزينة والرياش ، والمناصب والألقاب ، وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب ، وأحب كل واحد أن يُحمد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل ، واستوى فى ذلك الكبير والصغير ، والأمير والمأمور ، والجاهل والملقب بلقب العالم . . .

إذا صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدرى السامعون منهم بالداعى إليه ، وانطبق عليهم نصُّ الآية الكريمة . وإذا مروا بأحد من أهل الحق يغمز بعضهم بعضاً هزؤًا به .

وإذا انقلب هؤلاء الضالون إلى أهلهم ، ورجعوا إلى بيوتهم ، رجعوا إليها فكهين ، ملتذين بحكاية ما يعيبون به أهل الإيمان ، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل ، كأن يقولوا : عجباً ، هذا فلان يقول لا تدعوا إلا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بالطلب فيما يفوق طاقتكم إلا إلى الله وحده خالق السموات والأرض . فأين الأولياء والشفعاء ؟ . وكم فعلوا وتركوا ، وضروا ونفعوا . . . وهو ينكر جميع ذلك ، كأن الناس جميعاً فى ضلال ، وهو وحده يعرف الحق ! ! . . . ونحو ذلك مما يعدونه فكاهة يتلذذون بحكايته » .

ثم يضيف الأستاذ الإمام :

« ذلك ما كان من معاملة المجرمين للمؤمنين فى الدنيا : يهزءون بهم ، ويضحكون منهم ، ويجعلونهم أحاديث لهو ولغو .

فانظر ما تكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة . . .

« فاليوم » ... أى يوم الدين والجزاء ... « الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .. لا ضحك الجاهل المغرور ، بل ضحك الموقن المسرور ... ضحك من وصل به يقينُه إلى مشاهدة الحق فسُرَّ به ، وانكشف لهم بالعيان ما كانوا يرجونه من إكرام الله لهم ، وخذلانه لأعدائهم ، فسُرُّوا بذلك وفرحوا ، وضحِكوا من أولئك المغرورين الجحدة ، الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم ، وفساد أقوالهم ، فنكِّست أعناقهم لخزيهم وذلهم .

فما أعظم مجد المؤمنين فى ذلك اليوم . . . « على الأرائك ينظرون » إلى

صنع الله بأعدائهم ، وتذليله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاءً وفاقاً » .

قيل إن الله تبارك وتعالى يهيئ الفرص أمام المؤمنين فى الدار الآخرة ، لكى يضحكوا من هؤلاء الكافرين الساخرين ، وقيل إن هناك كُوًى مفتوحة بين الجنة والنار ، يطلع منها أهل الجنة ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا ، اطلع من كوة من هذه الكوى ، فذلك قول الله تعالى : « فاطلع فرآه فى سواء الجحيم » .

وذكر ابن المبارك أنه يقال لأهل النار – وهم فى النار – : اخرجوا . فتفتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله تعالى : « الله يستهزئ بهم » . ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم ، فذلك قوله سبحانه : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

* * *

والقرآن المجيد الذى حدثنا فيما سبق أن السخرية المتطاولة رذيلة فاحشة ، وأن شر أنواع هذه الرذيلة ما كان موجهاً إلى مقام رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وأن الرذيلة التى تليها هى سخرية الكافرين بالمؤمنين ، يحدثنا بأن عاقبة السخرية – وخيمة ذميمة ، وأن عاقبة المسخور بهم المظلومين فى هذه السخرية عاقبة عظيمة كريمة ، فالعذاب يتوعد الساخرين ، والفوز ينتظر المسخور بهم المؤمنين .

يقول الحق جل جلاله فى سورة « المؤمنون » عن الكافرين وهم فى النار : « قالَ اخْسَئُوا فِيهَا ولا تُكَلِّمونِ ، إنَّه كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يقُولُونَ ربَّنا آمَنَّا فاغفِرْ لَنَا وارْحَمْنا وأَنْتَ خيرُ الرَّاحِمِين ، فاتَّخَذْتُمُوهُم سِخْرِيًّا حتَّى أنسَوْكُم ذِكْرِى

وَكُنْتُم مِنْهُم تضحَكُونَ ، إنِّى جَزَيْتُهم اليَوْمَ بما صَبَرُوا أنَّهم هُمُ الفائِزُون » .
(الآيات ١٠٨ - ١١١)

إن الكافرين يحاولون يوم العذاب أن يخرجوا من النار ، ويرجون ذلك ، فيكون الجواب من قبل الحق جل جلاله : « اخسئوا فيها » ... امكثوا فيها. صاغرين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فلن تجابوا إليه .

ويذكرهم الله سبحانه بإحدى جرائمهم الشنيعة ، وهى سخريتهم بفريق المؤمنين الطائعين المستغفرين ، حتى حملهم إسرافهم فى السخرية على نسيان الله عز شأنه ونسيان حقوقه الواجبة .

ويؤكد الكتاب العزيز أن السخرية بالإيمان ، والاستهزاء بالدين وأوامره ، مما يفضى إلى الخسار والبوار ، وها هوذا يقول فى سورة الزمر :

« أنْ تَقُولَ نفْسٌ يا حَسْرَتَا عَلَى ما فَرَّطْتُ فى جَنْب اللهِ وإنْ كنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِين . أو تَقُولَ لَوْ أنَّ اللهَ هَدانِى لكنْتُ مِنَ المتَّقِينَ . أو تقُولَ حِينَ تَرَى العَذابَ لَوْ أنَّ لِى كَرَّةً فأكُونَ مِنَ المحْسِنِينَ . بَلَى قدْ جاءَتْك آياتِى فكذَّبْتَ بِهَا واسْتَكْبَرْتَ وكنْتَ مِنَ الكافِرِينَ . ويَوْمَ القِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ألَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للمتكبِّرِينَ ، ويُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحْزَنُون » . (الآيات من ٥٦ - ٦١) .

وفى سورة « ص » يقول القرآن عن الكافرين : « وقَالُوا مالَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِن الأشْرارِ ، أتَّخَذناهُمْ سِخْرِيًّا أمْ زَاغَتْ عنْهم الأبْصَارُ » ؟ (الآيتان ٦١ ، ٦٢) .

وهذا مشهد من مشاهد الآخرة يعرضه علينا ربنا الجليل فى كتابه ، حيث نرى أهل النار يفتقدون من حولهم رجالا كان الكافرون يعدونهم من الأشرار ، وهم المؤمنون الذين يزعم الكفار أنهم أهل الضلال ، ويقول الكافرون حينئذ :

مالنا لا نراهم معنا هنا فى النار ؟

ثم يتبلبلون فى الرد على أنفسهم الضالة ، فيقولون : أكنا نسخر بهم فى الدنيا أم هم موجودون معنا فى النار ، ولكن أبصارنا لا تراهم ؟

وكذبوا وضلوا وخابوا ... إن هؤلاء المؤمنين ليسوا هنا ، إنهم هناك فى الدرجات العلى ، حيث الثواب العظيم والنعيم المقيم ، وليدرك أهل الضلال الآن إدراك المعاينة أن عاقبة السخرية وخيمة .

* * *

ومن حقنا أن نؤكد أن الله الحكيم العليم الذى حرم السخرية الجاهلة المتطاولة ، قد أباح السخرية المنتصفة من أهل البغى والطغيان ، ولذلك قال القرآن على لسان نوح للكافرين من قومه : «إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » . أى إن تستجهلونا – أى تحملونا على الجهل على سبيل الهزء – فإنا نستجهلكم كما تستجهلوننا ، وذلك على حد قول الأول :

ألا لا يجهلن أحد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد سبق قوله عز من قائل : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » :

لقد كان المجرمون يسخرون بالمؤمنين فى الدنيا بغياً وعدوانا ، فلما انطوت صفحتها ، وأقبلت الآخرة الباقية ، انقلب الوضع ، وتغيرت الحال ...

لقد ذل الكفار اليوم وهانوا ، وضاعت كرامتهم تحت أقدام العذاب ، واعتز بالله عباده المؤمنين ، وتهيأت أمامهم الفرصة لينتصفوا وينتقموا ، فهم اليوم من الكفار يضحكون ، وشتان ما بين ضحك وضحك ، وما بين سحرية وسخرية .

* * *

هذا ولقد ذكر الله تعالى النهى عن السخرية صراحةً بلا غموض

ولا إجمال ، حيث قال فى سورة الحجرات :

« يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خيراً مِنْهُمْ ، ولا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أنْ يكُنَّ خيراً مِنْهُنَّ ، ولا تَلْمِزُوا أنْفُسكُمْ ، ولاَ تنَابَزُوا بالألْقابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمان ، ومن لَمْ يَتُبْ فأولئِكَ همُ الظَّالِمُونَ » (الآية ١١) .

وهذا نهى صريح للمؤمنين عن السخرية بغيرهم — رجالا كانوا أم نساء — لأنها حرام ، وربما كان المسخور به أكرم عند الله من الساخر المتطاول ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول :

« الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »

وبطر الحق هو أن يتجبر المرء عند الحق فلا يراه حقًّا ، وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله ؛ وغمط الناس هو الاستهانة بهم والاحتقار لهم .

وكذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

والمجتمع المؤمن مجتمع يترفع عن الدنايا ، ويحرص على تكريم الأخوة الإنسانية الموجودة بين كل فرد وفرد ، وتكريم الأخوة الإيمانية القائمة بين كل مؤمن ومؤمن . فكرامة هذا الفرد — سواء أكان رجلاً أم امرأة — مصونة معززة لا يجوز أن تمس ، وهذا الفرد يمثل كل الأفراد ، فاحترامه احترام لكل الأفراد ، والتطاول عليه يعد تطاولا على كل الأفراد : « إنَّما المُؤْمِنُون إخْوةٌ » (الحجرات الآية ١٠) .

فلا يليق — والأمر كذلك — أن تصدر سخرية أو تطاول أو استهزاء من فرد على فرد .

ولقد يزن الشخصُ غيره بميزان لا يستقيم وزنُه عند الله ، فلله ميزان إلهى عادل ، أساسه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فليس الغنى والفقر ، ولا الجمال والقبح ، ولا نحو ذلك ، بميزان مرضى لدى الله أعدل العادلين .



حديث السحر في القرآن

كلمة « السحر » لفظة تكاد تسحرنا بكثرة معانيها ، وتلون مغازيها ، فقد تطلق على دقة الفعل . وقد تطلق على قوة التأثير ، فقد قالوا : إن الطبيعة ساحرة ، وتحدثوا عن سحر العيون وسحر الجمال ، وسموا الغذاء سحراً لأنه يلطف تأثيره ، وقال سيد البلغاء رسول الله عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحراً » أى منه ما يصرف قلوب السامعين إليه ، وإن كان غير حق ، وقيل : معناه إن من البيان ما يكتسب به صاحبُه من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره ، فيكون بمعرض الذم ، وقيل : يجوز أن يكون فى معرض المدح ، لأنه يستمال به القلوب ، ويُترضى به الساخط ، ويُستنزل به الصعب .

ويقال : سحره ، أى صرفه عن وجهه وخدعه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف : « وقالُوا مَهْما تأتِنَا بِه مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بها فما نَحْنُ لَكَ بمؤْمِنينَ » (الآية ١٣٢) . وقوله فى سورة المؤمنون : « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ وهُوَ يُجِيرُ ولا يُجارُ عَلَيْه إنْ كنْتُم تعْلَمُون ؟ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فأنَّى تُسْحَرُونَ » ؟ (الآيتان ٨٨ ، ٨٩). أى فكيف تصرفون عن الحق وتُخدعون ؟

وأصل السحر هو صرف الشيء عن وجهه ، أى صرفه عن حقيقته إلى غيرها ، وكأن الساحر لما أرى الناس الباطل فى صورة الحق ، وخيل الشيء على غير حقيقته ، فقد سحر الشيء عن وجهه ، أى صرفه .

والسحر – عند العلماء – عمل يتقرب فيه صاحبه إلى الشيطان ، ويستعين بالشيطان فيه ، لإخراج الباطل فى صورة الحق ، بدقة صنع ولطف مأخذ ؛ وقد ورد ذكر « السحر » فى القرآن الكريم كثيراً بمعنى الخداع والتخييل ، ومن ذلك قول الله تعالى فى سورة الأنعام : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كتاباً فى قِرْطاسٍ فَلَمسُوهُ بأَيْدِيهِمْ لقَالَ الَّذِينَ كفَرُوا إنْ هذَا إلاَّ سِحْرٌ مبينٌ » (الآية ٧) . أى تخييل لا حقيقة ، وخداع للبصر والحواس .

ويقول القرآن فى سورة يونس : « فلمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبين » (الآية ٧٦) . وفى سورة هود : « ولئِنْ قُلْتَ إنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ منْ بَعْدِ المَوْتِ ليقولَنَّ الَّذِينَ كفَرُوا إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ مُبينٌ » (الآية ٧) .

ولأن السحر يقوم على التمويه والتضليل قال القرآن فى سورة طه : « ولا يفلح الساحر حيث أتى » ويعلق أحد المفسرين بقوله : إن الساحر لا يفلح أنى ذهب ، وفى أى طريق سار ، لأنه يتبع تخييلا ويصنع تخييلا ، ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية ، شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق .

ويعرِّف مفسرو القرآن السحر بأنه قول أو فعل يترتب عليه أمر خارق للعادة ، ويعتمد على وسائل من الرُّقَى والعزائم ، وما أشبهها . ولقد تحدث الرازى المفسر المشهور عن أنواع السحر ، فذكر منه سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، وسحراً يستعين أصحابه بالأرواح الأرضية . ويقصد بها الجن ، وسحر التخيلات والأخذ بالعيون ، لأن المشعبذ الحاذق يظهر عمل

شيء يشغل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه ، عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة ، فيبقى ذلك العمل خفيًّا ، لتفاوت الشيئين : اشتغالهم بالأمر الأول ، وسرعة الإتيان بهذا العمل الثانى ، « حينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه ، فيتعجبون منه جدًّا ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه،لفطن الناظرون لكل ما يفعله ؛ فهذا هو المراد من قولهم إن المشعبذ يأخذ بالعيون ، لأنه بالحقيقة يأخذ بالعيون إلى غير الجهة التى يحتال فيها ، وكلما كان أخذه للعيون والخواطر ، وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى ، كان أحذق فى عمله .

وكلما كانت الأحوال التى تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد ، كان هذا العمل أحسن ، مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع مضيء جدًّا ، فإن الضوء الشديد يفيد البصر كلالاً واختلالا ، وكذا الظلمة الشديدة ، وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالا واختلالا ، والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها » .

ويضيف الإمام الرازى ما يسميه سحر الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية الخاصة ؛ وهناك سحر الاستعانة بخواص الأدوية ، كاستعمال بعض الأدوية المزيلة للعقل ، أو التى تسبب تبلد الذهن ؛ وهناك سحر « تعليق القلب » . بأن يوهم الساحر مسحوره بأنه يعرف « الاسم الأعظم » فيعتقد المسحور الضعيف العقل بذلك ، ويتعلق قلبه به ، فيتحكم فيه الساحر ، ويوجهه إلى ما يشاء ؛ وهناك سحر السعى بالنميمة والوقيعة بوجوه لطيفة خفيفة .

وإذا كان الإمام الأصفهانى يجعل أنواع السحر ثلاثة فى كتابه « مفردات

القرآن » ، وهى أولا الخداع والتخييلات ، وثانياً استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه ، وثالثاً ما كان بقوة تغير الصور والطبائع ، ولا حقيقة لذلك عند المحققين..إذا كانت أنواع السحر عند الأصفهانى ثلاثة ، فإن المفسر الجليل ابن كثير يجعلها ثمانية ، هى :

١ – سحر الكذابين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة السيارة ، ويعتقدون أنها مدبرة العالم ، وأنها تأتى بالخير والشر .

٢ – سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، لأن الوهم هو الذى يؤثر فى الإنسان ، فيجعله يعتقد أنه يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض ، ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه ، والنفوس خلقت مطيعة للأوهام .

٣ – سحر الاستعانة بالأرواح الأرضية ، وهم الجن ، ومنهم كفار ومؤمنون ، واتصال النفوس الناطقة بهم أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية : لما بينهما من المناسبة والقرب ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

٤ – سحر الشعبذة والأخذ بالعيون ، وإذهال أذهان الناظرين ، مع الاعتماد على السرعة الشديدة ، ومن هذا النوع ما ذكره القرآن الكريم فى قوله : « فلمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أعْيُنَ الناسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ وجاءُوا بسِحْرٍ عَظيم » (الآية ١١٦ من سورة الأعراف) وقوله : « يُخَيَّلُ إليْه مِن سِحْرِهِمْ أنَّها تَسْعَى » . (طه الآية ١٦)

٥ – سحر الأعمال العجيبة القائمة على استخدام خواص المواد ، واستغلال تركيب الآلات الخاصة بنسب هندسية خاصة ، ومن هذا القبيل ما ذكره المفسرون فى قصة سحرة فرعون ، حيث عمدوا إلى حبالهم وعصيهم فحشوها زئبقاً . وجعلوا من أسفلها حرارة خاصة ، فصارت تتلوى بسبب ما فيها

من ذلك الزئبق ، فيخيل إلى الرائى أنها تتحرك وتسعى باختيارها .

٦ – سحر الاستعانة بخواص الأدوية فى الأطعمة والدهون الخاصة .

٧ – سحر تعليق القلب ، حيث يدعى الساحر المخادع أن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور ، عن طريق معرفة « الاسم الأعظم » فإذا اتفق أن السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز ، تعلق قلبه بذلك وحصل فى نوعه نوع من الرعب والمخافة . فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فيتمكن الساحر حينئذ أن يفعل ما يشاء

٨ – سحر السعاية والنميمة ، عن طريق التحريش بين الناس ، ويتوقف هذا النوع على مدى ذكاء القائم به .

ونخلص من هذه التقسيمات والتفريعات إلى أن أصل السحر هو التمويه بالحيل والتخاييل ، بأن يفعل الساحر أشياء يخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى به ، كالذى يرى السراب من بعيد ، فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب القاطرة السريعة يخيل إليه أن ما يقابله من الأشجار والجبال يسير بسرعة .

فنى السحر إذن معنى الخداع والخفاء ، والاستمالة والتمويه بالكذب ، وهو إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ، وإما تأثير نفس إنسانية فى نفس أخرى ، يقول « تفسير المنار » : « وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة وسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مُبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان ، وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ، ويكونون مسخرين للداعى . ولمثل هذا الكلام تأثير فى إثارة الوهم عُرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقائله ويطيعون أمره ؛ ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير ، وليس فيه خاصية ، وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل فى النفس الواهمة

ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته ، وهذا هو السبب فى اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب » .

* * *

ويرى فريق من السلف أن السحر لا أصل له ، ويرى البعض أنه وسوسة وأمراض ، ويرى بعض آخر أنه حق وله حقيقة ، يخلق الله عنده ما يشاء ، ومنه ما يكون بخفة اليدين ، ومنه ما يكون كلاماً محفوظاً ، ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ومنه ما يكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

ومذهب أهل السنة أن السحر ثابت وله حقيقة ، ومذهب المعتزلة بخلاف ذلك ، وهو أن السحر لا حقيقة له ، بل هو إيهام لكون الشيء على غير ما هو به ، واستدلوا بقول القرآن : « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » ، حيث لم يقل : تسعى حقيقة ، بل قال : « يخيل إليه » وبقوله : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » .

ويميل « تفسير المنار » — وهو تفسير عصرى عقلى يمثل مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده — إلى تكذيب السحر ، وأنه شيء منتحل ، يستخدمه أصحابه ليفتنوا العامة ، ويضلوهم عن طلب الأشياء بأسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة ، وهؤلاء الدجالون ما زالوا يتلون أقساماً وعزائم ، ويخطون خطوطاً وطِلَّسمات ، ويسمون ذلك خاتم سليمان ، ويزعمون أنها تحفظ حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريت .

وترى هذه المدرسة العقلية فى تفسير القرآن الحكيم أن السحر أعمال غريبة من التلبيس والحيل ، تخفى حقيقتها على الجماهير لجهلهم بأسبابها ، فمتى عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه .

ويستوى فى هذا أنواع السحر الثلاثة : ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعالم بها ، المجهولة عند المسحورين ، كاستعمال الزئبق فى تحريك الحبال والعصى الذى روى أن سحرة فرعون قد استخدموه فى سحرهم .

أو ما يقوم على الشعوذة القائمة على البراعة وخفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض آخر .

أو ما يقوم على تأثير النفوس ذوات الإرادة القوية فى النفوس الضعيفة صاحب الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعالات .

وفى كتاب « فى ظلال القرآن » أن القوى المجهولة فى الكون كثيرة ، وقد نحس بها أو نشاهد بعض آثارها ، ولكننا لا نستطيع تجلية حقائقها أو طرائقها أو كنهها . فالتنويم المغناطيسى مثلا ، والتخاطب على أبعاد ومسافات طويلة (التلباثى) ، وأحلام التنبؤ التى تقع فيما بعد كما رئيت ، من هذا الوادى . والسحر من قبيل هذه الأمور ، وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور ، وقد تكون صورة من صور القدرة على الإيحاء والتأثير ، إما فى الحواس والأفكار ، وإما فى الأشياء والأجسام ، ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه ، وبين الصديق وصديقه ، فالانفعالات تنشأ من التأثرات ، وإن كانت الوسائل والآثار ، والأسباب والمسببات ، لا تقع كلها إلا بإذن الله .

وعلى الرغم من اختلاف الأئمة فى حقيقة السحر نراهم يجمعون على أن السحر لا يؤثر بذاته فى نتائج أو عواقب ، وإنما يخلق الله تعالى الأشياء المتعلقة بالسحر عند وجوده ، كما يخلق الشبع عند الأكل ، والرى عند شرب الماء .

وكما تكلم السلف عن حقيقة السحر تكلموا عن حكمه :

يقول الإمام القرطبي فى تفسيره : « من السحر ما يكون كفراً من فاعله ، مثل ما يدعون من تغيير صور الناس ، وإخراجهم فى هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر فى ليلة ، والطيران فى الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه » .

وجمهور العلماء يرى قتل الساحر ، لأنه كالمدعى للنبوة ، وكافر بالأنبياء .

ويرى الإمام مالك والأئمة ابن حنبل والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم ، أن المسلم إذا سحر بنفسه ، بكلام يكون كفراً،يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته ، لأن الله تعالى سمى السحر كفراً ، كما يقول عن الملكين المعلمين للسحر : « وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر » .

واستدلوا على ذلك بحديث – ضعَّفوه – يقول : « حد الساحر ضربة بالسيف » .

ويقول ابن المنذر : « وإذا أقر الرجل أنه سحر بكلام يكون كفراً وجب قتله إن لم يتب ، وكذلك لو ثبتت به عليه بينة ، ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً .

وإن كان الكلام الذى ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله . فإن كان أحدث فى المسحور جناية توجب القصاص اقتص منه إن كان تعمد ذلك ، وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك » .

ويروى أنه كان عند الوليد بن عقبة ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله ، يحيى الموتى .

ورآه رجل من صالحى المهاجرين ، فلما كان الغد جاء الساحر مشتملا على سيفه ، وأخذ يلعب لعبه ذلك ، فرفع المهاجر سيفه ، وضرب به عنق الساحر ، وقال عنه : « إن كان صادقاً فليحى نفسه » . وتلا قول الله تعالى : « أفتأْتُون السِّحْر وأنْتُم تُبْصِرُونَ » ؟ ! (الأنبياء الآية ٣)

* * *

وحين يدور حديث السحر فى القرآن ، يرد سؤال له أهميتـه فى هذا المجال :

أصحيح ما يزعمه بعض المفسرين أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الله جل جلاله شفاه من هذا السحر ؟

إنهم يوردون هذه القصة عند قول القرآن الكريم فى سورة الفلق : « ومِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فى العُقَدِ » (الآية ٣).وبعض المحققين يطعنون فى ذلك الخبر ، ويرون أن تمكن ذلك الشخص من سحر الرسول لا يليق بمكانة الرسول،وهو المعصوم المؤيد من ربه سبحانه ، وعلى رأس هؤلاء المنكرين لقصة سحر الرسول الأستاذ الإمام محمد عبده ، وله فى ذلك الموضوع بحث يفيض بالحرارة والغيرة على مكانة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومما جاء فيه :

« قد رووا هاهنا أحاديث فى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم ، وأثر سحره فيه ، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله ، أو يأتى شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأُخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ، ونزلت هذه السورة (سورة الفلق) .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام ، حتى يصل به الأمر

إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ، ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية ، بل هو ماس بالعقل ، آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رجُلاً مسْحُوراً » (الإسراء ٤٧)

وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله ، وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع ، فيخيل إليه أنه يوحى إليه ولا يوحى إليه .

وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ، ولا ما يجب لها : إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح ، فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين ، لأنه ضرب من إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر .

فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة ! . نعوذ بالله ، يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم ، وعده من افتراء المشركين عليه ، ويؤوِّل فى هذه ولا يؤوِّل فى تلك ، مع أن الذى قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه عليه السلام . وملابسة الشيطان تُعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نُسب إلى لبيد ، فإنه قد خالط عقله وإدراكه فى زعمهم .

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم . فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه . وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذن هو ليس بمسحور قطعاً .

وأما الحديث – على فرض صحته – فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد ، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون .

على أن الحديث الذى يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصِّل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة ، وعلى أى حال فلنا – بل علينا – أن نفوض الأمر فى الحديث ، ولا نحكمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فإنه إذا خولط النبى فى عقله – كما زعموا – جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه ، أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه . . والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان

ثم إن نفى السحر عنه لا يستلزم نفى السحر مطلقاً ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه ، لأن الله عصمه منه » .

وإذ كان السحر حقيقة عند من يقول من الأئمة بوجوده ، فما الحكم فى علاج المسحور من السحر ؟

أجاز بعض العلماء أن يقوم الإنسان بعلاج المسحور ، عن طريق ما يسمونه « النُّشْرة » ، وهى ضرب من الرقية يعالج به من كان يظن أن به مسًّا من الجن . ويقرر الإمام ابن كثير فى تفسيره للقرآن العظيم أن أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر هو ما أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله فى إذهاب ذلك ، وهما المعوذتان : أى سورة الفلق « قُل أعوذُ بربِّ الفَلَق . من شَرِّ مَا خلق . ومن شر غَاسق إذا وَقَبَ . ومن شَرِّ النفاثات فى العُقَدِ . ومن شَرِّ حاسدٍ إذا حَسَد » .

وسورة الناس : « قُلْ أَعوذُ بربِّ الناسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إلٰهِ النَّاس ، من شَرِّ الوسْواسِ الخنَّاس . الذى يُوَسْوِسُ فى صُدُور النَّاس . مِنَ الجِنَّة والنَّاس » .

ويذكر الحديث النبوى الشريف : « لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما » .

وكذلك قراءة آية الكرسى ، فإنها طاردة للشيطان .

هذا وقد فرق مفسرو القرآن الكريم بين السحر والمعجزة ، بما يلى :

١ – السحر يمكن أن يقع من الساحر ومن غيره ، والمعجزة مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام .

٢ – المعجزة لا يمكِّن الله أحداً أن يأتى بمثلها أو يعارضها ، بخلاف السحر .

٣ – السحر لا يكون معه ادعاء للنبوة ، والمعجزة تكون مقترنة بادعاء الرسول أنه رسول من عند الله .

٤ – المعجزة حق يجريه الله على يدى رسول ، والسحر تمويه وخداع غالبـــاً .

* * *

ولقد ذكر القرآن الكريم موقفين من مواقف السحر ، أولهما يتعلق بالسحر فى عهد سليمان ، ويتعلق بقصة هاروت وماروت ، والموقف الآخر يتعلق بسحرة فرعون فى قصة موسى عليه السلام .

الموقف الأول جاء فى شأنه قول الله تعالى فى سورة البقرة : « واتَّبعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ ، وما كفَرَ سُلَيْمانُ ولكنَّ الشَّيَاطِينَ كفَرُوا يُعلِّمونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وما أُنْزِلَ عَلَى الملَكَيْن ببَابِلَ هَارُوتَ ومارُوتَ ، وما يُعلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يقُولَا إنَّمَا نحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تكْفُرْ ، فيتعلَّمُون منْهما

ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وزَوْجِهِ وما هُمْ بضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بإِذْنِ اللهِ ، ويتعَلَّمُونَ ما يَضرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهم ، ولقَدْ عِلمُوا . لمنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فى الآخِرَة مِنْ خَلاقٍ ، ولبئْسَ ما شَروْا بِهِ أَنْفُسَهُم لوْ كانُوا يَعْلمُون » . (الآية ١٠٢)

يخبر الله تعالى بأن من سيئات اليهود أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وأعرضوا عنه ، واتبعوا كتاباً صنعه « آصف » كاتب النبى سليمان ، واتبعوا سحر هاروت وماروت ، وهما ملكان كانا يعلمان الناس السحر اختباراً وابتلاء ، ووصفوا سليمان بأنه ساحر وليس نبياً ، فكذبهم الله فى ذلك ، وأبان أن الشياطين هم الذين افتروا على سليمان وموهوا على الناس بالتلبيس والخداع فكانوا من الكافرين .

وكان هاروت وماروت يقولان للناس : « إنما نحن فتنة فلا تكفر » ، وكانا يعلمان الناس السحر تعليم من يحذر منه ، لا تعليم من يدعو إليه ، ويقولان للناس : لا تفعلوا كذا ولا تحتالوا بكذا ، لتفرقوا بين المرء وزوجه .

ويرى الإمام محمد عبده أن قوله تعالى : « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » لا مانع أن يكون المراد منه تلك الطرق الخبيثة التى تصرف الزوج عن زوجته ، والزوجة عن زوجها ، ولا يبعد أن يكون مثل هذه الطرق مما يتعلمه الناس ، ويطلبون له الأساتذة ، ونحن نرى أن كتباً ألفت ، ودروساً تلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس ، لمن يريد أن يكون من عمال السياسة فى بعض الحكومات .

وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل ، وإظهار الأمر فى أقبح صورة : أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الإفساد ، أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه ، وسياق الآية لا يأباه ، وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك . بعد أن سمى الله خبثاء الإنس المنافقين بالشياطين .

قال : « وإذا خلوا إلى شياطينهم » . وقال : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض » .

وينفى القرآن الكريم أن يقع شىء فى هذا الكون إلا بإذن الله ، فيقول فى الآية السابقة : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » .

ويرى الإمام الرازى عند تعليقه على عمل هاروت وماروت أن تعلم السحر أمر لا غبار عليه ؛ إذا لم يسبب ضرراً لأحد. وقد اتفق المحققون أن العلم بالسحر غير قبيح وغير محظور ، لأن العلم لذات العلم أمر شريف ، ولعموم قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، ولأن السحر لو لم يكن معلوماً لما أمكن أن نفرق بينه وبين المعجزة ، والعلم بكون المعجزة معجزة أمر واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، وهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً ، وما يكون واجباً كيف يكون حراماً أو قبيحاً ؟ !

والموقف الثانى الذى عرضه القرآن عن السحر ، هو موقف سحرة فرعون مع موسى عليه السلام ، وقد تحدث القرآن عن هذا الموقف فى سورة الأعراف ويونس وطه والشعراء والقصص ، وغيرها ، وبحسبنا أن نذكر الآيات التى وردت فى سورة الأعراف عن هذا الموقف فهى تقول : « وجاءَ السَّحرةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إنَّ لَنَا لأَجْرًا إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ ، قالَ نَعَمْ وإنَّكم لمنَ المقرَّبِينَ ، قالُوا يا مُوسَى إمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإمَّا أَنْ نكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ ، قَالَ أَلْقُوا فَلمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ وجاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ، وأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذَا هِى تَلْقفُ ما يَأْفِكُونَ،فَوَقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ » (الآيات من ١١٣ – ١١٨) .

وقوله : « استرهبوهم » أى حاولوا إرهاب الناس ، وإلقاء الخوف

فى قلوبهم ، بما فعلوه من تخييل ، وبما موهوا عليهم ، حتى خيل إلى الناس أن عصيهم وحبالهم تسعى ، وإنما الأمر فى الحقيقة تلبيس واحتيال .

ولعل من أدق ما يصور موقف القرآن الحكيم من السحر والسحرة ، ما جاء فى سورة طه على لسان موسى وهو ينصح السحرة : « قالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى » (الآية ٦١).وقول القرآن بعد ذلك : « إنما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أتَى » (الآية ٦٩). وقوله فى سورة يونس عن السحرة مع موسى : « فَلمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسَى : ما جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إنَّ اللهَ سيُبْطِلُه : إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ . ويُحقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكلماتِهِ ، ولَوْ كَرِهَ المجْرِمُونَ » (الآيتان ٨١ ، ٨٢) .



من حديث النفس فى القرآن

حينما تتعرض الأمم والشعوب للنكبات تزلزلها وتبلبلها ، يكون من الواجب على أفرادها أن يعودوا إلى أنفسهم ، ليتبينوا مواضع أقدامهم ، ومواقع خطواتهم ، لأنهم يكونون حينئذ فى أشد الحاجة إلى عملية تجديد أو بناء جديد ، حتى تعود نفوسهم لبنات صالحةً لإقامة صرح الأمة المشيد .

ولذلك يقول الحق جل جلاله فى سورة الرّعد : « إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقَوْمٍ حتَّى يُغيِّروا ما بأنْفُسِهم » (الآية ١١) ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « عليك بنفسك » .

ولو رجعنا إلى كتاب ربنا « القرآن الكريم » لوجدناه يحدثنا عن خمسة أنواع من النفوس ؛ فهو يحدثنا عن النفس الأمارة بالسوء ، والنفس المسوِّلة للشر ، والنفس الموسوسة بالإثم ، والنفس اللوَّامة على التقصير ، والنفس المطمئنة بالرضى واليقين .

والنفس الأمارة بالسوء هى التى تدعو صاحبها إلى ارتكاب الذنوب والسيئات ، وتحرضه على الانحراف والفجور ، وتدفع به إلى مهاوى الضلال والخبال ، لأن كلمة « أمَّارة » صيغة مبالغة من الأمر ، وفيها يقول التنزيل

الحكيم فى سورة يوسف : « وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رَحِمَ ربِّى » . (الآية ٥٣)

ويقول الإمام الرازى : « اختلف الحكماء فى أن النفس الأمارة بالسوء ما هى ؟ . والمحققون قالوا : إن النفس الإنسانية شىء واحد ، ولها صفات كثيرة ، فإذا مالت إلى العالم الإلهى كانت نفساً مطمئنة ، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء . وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة ، والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات ، والتذت بها ، وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه ، فذلك لا يحصل إلا نادراً فى حق الواحد فالواحد ، وذلك الواحد ، إنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره فى الأوقات النادرة . فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسدانى ، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً ، لاجرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء ؛ ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة النطقية ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية » .

وحدثنا القرآن الكريم عن النفس المسوِّلة ، وهى النفس التى تزيِّن القبيح ، فتعرضه فى صورة الجميل ، وتسوِّغ أهواءها بمكر وبراعة ، فترسم الشر وكأنه خير ، وتقيم الدليل بعد الدليل — من وهمها وزعمها — على أن شهواتها معقولة مقبولة. وجاء هذا المعنى من أنه يقال : سولت له نفسه كذا تسويلا : أى زينته وحببته إليه ليفعله . وسوَّل فلان لفلان كذا : أى زينه وحببه إليه ليفعله .

وفى هذه النفس يقول القرآن المجيد فى سورة يوسف : « قال بَلْ سَوَّلَتْ لكُمْ أنْفُسُكمْ أمراً فصبرٌ جَميلٌ ، واللهُ المسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ » . (الآية ١٨) أى زينت لكم أنفسكم أمراً ، من التسويل وهو تقدير معنى فى النفس

مع الطمع فى إتمامه ، وكأنه أمنية للنفس تطلبها فيزينها الشيطان لها . ويقول أيضاً فى سورة يوسف : « قالَ بلْ سَوَّلَتْ لكُمْ أنفسُكُم أمراً فصبرٌ جميلٌ ، عَسَى اللهُ أنْ يأْتينى بِهِم جَمِيعاً ، إنَّه هُو العَلِيمُ الحَكيم » (الآية ٨٣) . ويقول فى سورة طه : « وَكذلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسى » . (الآية ٩٦) . ويقول فى سورة محمد : « إنَّ الَّذِين ارْتَدُّوا عَلَى أدبارِهِمْ مِنْ بعْدِ ما تبيَّن لَهُم الهُدَى الشَّيْطانُ سوَّل لَهُمْ وأمْلَى لَهُمْ » . (الآية ٢٥)

وحدثنا الكتاب المجيد عن النفس الموسوسة ، وهى التى تهمس إلى صاحبها بالصوت الخفى الذى لا يكاد يُسمع من الأعماق ، لتذكره بخواطر الإثم ومشاعر المنكر ، لأن الوسوسة فى الأصل هى الصوت الخفى ، ويقال لحديث النفس : وسوسة ، وهو ما يخطر بالبال ، ويهجُس بالضمير ، والوسواس هو الشيطان الذى يوسوس لغيره ، ولهذا جاء قول الله تعالى فى سورة الناس ، « قُلْ أعُوذُ بربِّ الناسِ ، مَلِك النَّاسِ ، إلهِ الناسِ ، منْ شرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاسِ ، الَّذِى يُوسْوِسُ فى صُدور النَّاسِ ، مِنَ الجِنَّة والنَّاس » .

وفى النفس الموسوسة يقول القرآن المجيد فى سورة ق : « ولقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ونحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيد » . (الآية ١٦) وقد أشار القرآن إلى موقف المؤمنين المتقين إذا عرض لهم الشيطان بشيء من وسوسته ، فقال فى سورة الأعراف : « إنَّ الَّذِينَ اتَّقوْا إذا مَسَّهُم طائفٌ مِن الشيطانِ تذكَّروا فإذَا هُمْ مُبْصِرُون » . (الآية ٢٠١)

ويتحدث « تفسير المنار » عن معنى الآية الكريمة ، فيذكر أن هؤلاء المتقين – وهم خيار المؤمنين – إذا ألَمَّ بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية ، تذكروا أن هذا من عدوهم الشيطان ومن إغوائه .

واستعاذوا بالله ، فإذا هم أهل بصيرة تربأ بأنفسهم أن تطيع الشيطان ، فوسوسته إنما تؤثر فى الغافلين عن أنفسهم ، الذين لا يحاسبونها على خواطرها ، الغافلين عن ربهم لا يراقبونه فى أهوائها وأعمالها . ولا شىء أقوى على طرد الشيطان وإفساد وسوسته من ذكر الله تعالى بالقلب ، ومراقبته فى السر والجهر ، فذكر الله تعالى بأى نوع من أنواعه يقوى فى النفس حبَّ الحق ودواعى الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر ، حتى لا يكون للشيطان مدخل إليها ، وهو إنما يزيِّن لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأى نوع منهما ، فإن وجد بالغفلة مدخلا إلى قلب المؤمن التقى لا يلبث أن يشعر به ، لأنه غريب عن نفسه ، ومتى شعر ذكر فأبصر ، فخنس الشيطان وابتعد عنه ، وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب .

ومثل المؤمن المتقى المتجنب لوسوسة الشيطان كمثل المرء الصحيح المزاج ، القوى الجسم ، النظيف الثوب والبدن والمكان ، لا تجد ميكروبات الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه ، وإصابته بالأمراض ، فهى تظل بعيدة عنه ، فإن مسه شىء منها بدخوله فى معدته أو دمه ، فتكت بها قُوى الصحة والعافية ، فحالت دون فتكها به وهذا ما يسمى فى عرف الطب بالمناعة أو الحصانة أو المقاومة .

وكذلك يكون قوى الروح بالإيمان والتقوى ، غير مستعد لتأثير وسوسة الشيطان فى نفسه ، فهو يطوف بها يراقب غفلتها ، وعروض بعض الأهواء النفسية لها ، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، فيقاومها ويدفعها عنهـــا . . .

* * *

وحدثنا القرآن المجيد عن النفس اللوامة ، وأهل اللغة يقولون إن اللوَّام

صيغة مبالغة فى لائم ، فهو من يشتد فى لومه ، أو من يكثر اللوم ، وهى لوامة ، والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها لوماً شديداً على ارتكاب الشر ، أو التقصير فى عمل الخير ، وربما تكون هى « الضمير » بحسب التعبير المعاصر .

وفى اللوم معنى المؤاخذة والتأنيب ، وفى هذه النفس يقول القرآن الكريم فى سورة القيامة : « ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » (الآية ٢) . وقال أهل التفسير إنها النفس التى تلوم صاحبها لوماً شديداً موصولا ، على ارتكابه السيئ أو تقصيره فى العمل الطيب ، وتندم على ما فات ، وتحاسب عليه .

والإمام الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدماً لا يحاسب نفسه » .

فالنفس اللوامة إذن نفس متيقظة حذرة خائفة ، تتلفت حولها ، وتتدبر أمرها ، وتسائل ذاتها بين الحين والحين : أين أنا من الطريق ؟

ولقد تحدث « تفسير المنار » عن قوله تعالى : « ولقد هَمَّتْ بِهِ وهَمَّ بهَا لوْلاَ أنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّه » (يوسف الآية ٢٤) . وتعرض لموقف الإنسان من ترك المعصية فقال : « هاهنا مرتبتان : إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس ، وكبحاً لها خوفاً من الله تعالى ، وهى مرتبة الصالحين الأبرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها ، حياء من الله ومراقبة له واستغراقاً فى شهوده ، وهى مرتبة الصديقين والنبيين الأخيار ، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع بالصورة المحرمة فى الشرع ، عارضها من وجدان الإيمان ، وتجلى الرحمن ، ما تغلب به روحانيتهم الملكية ، على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين

قلوبهم ، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم . . .

ولهذه المرتبة درجات ، منها فقد الشهوة الطبيعية فى هذه الحال ، أو فقد الشعور بالقدرة على وضعها فى الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع ، فتغلب أقواها أضعفها ، حتى إن من الإباحيين والإباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك فى مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها ، لا خوفاً من الله ولا حياء منه ، لأنه غير مؤمن به أو بعقابه ، بل وفاءً لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه » .

* * *

ثم تأتى النفس المطمئنة . . . تأتى فى الذروة وعلى القمة ، والطمأنينة هى السكون وعدم الانزعاج ، واليقين بلا ارتياب ، والرسوخ بلا اضطراب ، لأنها نفس آمنت بالله ، واعتصمت بحبل الله ، ولجأت إلى حمى الله ، ومن كان كذلك فقد استوى على صراط مستقيم : « الَّذِينَ آمَنُوا وتطْمئِنُّ قُلُوبهُم بِذكْرِ اللهِ ، ألاَ بذِكْر اللهِ تطمئن القلُوب » (الرعد الآية ٢٨) .

وهذه النفس المطمئنة المؤمنة الموقنة ، الراضية بالله ، والراضية عن الله ، يناديها ربها أكرم نداء ، ويدعوها ألطف دعاء ، ويستقدمها إلى أعظم أمل وأحلى رجاء ، فيقول لها فى سورة الفجر : « يَاَيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمئِنَّةُ ، ارْجعِى إلَى رَبِّكِ راضِيةً مَرْضيَّةً ، فادْخُلِى فِى عِبادِى وادْخُلِى جَنَّتِى » ! ! . . (الآيتان ٢٧ - ٣٠) .

ومتى يناديها ربها هذا النداء الحلو الجميل النبيل ؟ .

إنه يناديها به عند الهول الأكبر ، وفى موقف الكرب الأعظم ، ومن ثنايا الرعب المزلزل ، الذى يصوره صوت الحق جل جلاله بقوله

قبل الآيات السابقة : « كلاً إذا دُكَّت الأرْضُ دكًّا دكًّا ، وجاءَ ربُّكَ والملَكُ صَفا صَفًّا ، وجيء يوْمئذٍ بجَهنَّمَ ، يومئذٍ يتَذكَّرُ الإنْسانُ ، وأنَّى لَهُ الذِّكْرى ، يقُول : يا ليْتَنى قدَّمْتُ لحياتى ، فيوْمئِذٍ لا يُعَذِّبُ عذابه أحدٌ ، ولا يُوثِقُ وثاقَه أحَدٌ » . (الآيات ٢١ — ٢٦)

ومن خلال تلك الأهوال الثقال ينبعث ذلك الصوت الإلهى الرحيم العظيم ، يردد على مسمع النفس الواثقة بربها ، المعتزة بدينها ، الحريصة على قيمها ، الراضية بقَدرَها . يَـأَيَّتُهَا النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » ! ! . .

* * *

هذه خمسة أصناف من النفوس ، ذكرها القرآن كتاب الحق ودستور الصدق ، وكل صنف منها له طعم وله مذاق. ولا شك أن شر هذه النفوس كلها هى تلك النفس الأمارة بالسوء الداعية إلى الضلال ، المحرضة لصاحبها على الانحراف والاعتساف ؛ ولا شك أن خير هذه النفوس هى النفس المطمئنة الموقنة ، الثابتة الراضية . وبينهما مراحل ومنازل ودرجات ، فالإنسان الغافل الضال حينما تدركه الرحمة بعد طول شقاء ، ينازع نفسه ويقاومها ، ليقتلعها من منبت السوء إلى منبت الخير قدر طاقته ، فهو ينقلها من منزلة الأمر بالسوء — مثلا — إلى أخف منها ، وهى منزلة التسويل بالشر ، ثم يعود فينقلها إلى منزلة أخف ، وهى منزلة الوسوسة بالإثم ، ثم يعود فيزكى هذه النفس ، ويوقظ فيها صوت الضمير ، فإذا هى نفس لوامة ، تفكر وتدبر ، وتعتبر فتنزجر ، ثم تبلغ القمة ، فإذا هى النفس المطمئنة التى لا تزلزلها الأهوال ، ولا الشدائد الثقال ، بل تأخذ لها مثلها الأعلى من الإنسان الكامل الذى ثبت فى أحرج المواقف ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان ومعه

أبو بكر فى الغار ، فذلك حيث يقول القرآن المجيد فى سورة التوبة : « إلاَّ تَنْصُروهُ فقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إذْ أخْرجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ ، إذْ هُمَا فِى الغارِ ، إذْ يَقُولُ لصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وأَيَّدَهُ بِجُنودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . (الآية ٤٠) .

هذه نفوس خمس : نفس أمارة بالسوء ، ونفس مسوِّلة للشر ، ونفس موسوسة بالإثم ، ونفس لوامة على التقصير ، ونفس مطمئنة برضوان الله العلى القدير ، فليت كل واحد منا يسأل ذاته : أين نفسى بين تلك النفوس ؟ وفى أى طريق تسير ؟ . . أهى فى المقدمة أم فى المؤخرة ؟ . أهى تعلو أم تسفل ؟ . أهى صالحة للاستقامة أم أنها فقدت الأمل والرجاء ؟ . .

لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يضرب القدوة فى الحرص على إصلاح النفس ، فيدعو ربه قائلاً : « اللهم اجعل فى نفسى نوراً » . ويستعيذ بالله من انحراف النفس ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » . ويقول : « اللهم إنى أعوذ بك من نفس لا تشبع » !

فإذا كان هذا هو شأن رحمة الله للعالمين ، فما يكون شأن الراتعين فى الضلال المبين ؟ .

« عليكم أنفسكم » . هذا صوت القرآن ، وهذا ميدان جهاد لا يحتاج إلى جيش أو طائرات أو دبابات ، ولكنه يحتاج إلى همة وعزيمة ، ولابد لنا من معركة مع أنفسنا ، لنصلح للقيام بمعركة مع أعدائنا ، ولنتذكر على الدوام قول ربنا : « يَوْمَ تَجدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ أمداً بَعِيداً ، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، واللهُ رَءُوفٌ بالعِبَادِ » . (آل عمران الآية ٣٠) .

حديث المشرق والمغرب فى القرآن

من عيوبنا أننا لا ننال القسط الكافى من الثقافة الإسلامية ، ولذلك يظل كثير منا على جهل بمعظم أمور الدين ، وبخاصة ما يتعلق منها بالقرآن الكريم ، مع أنه فى أمة الإسلام هو العماد والسناد ومصباح الرشاد ، ومع أنه الكتاب الذى قال فيه رب العالمين : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » . (الجن الآية ١) .

وقال فيه خاتم المرسلين : « هو حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق (أى لا يبلى) على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » .

أقول هذا بمناسبة أن شابًّا مسلماً جاءنى يقول : « إن القرآن يتناقض مع نفسه » ! !

هكذا عبَّر الشاب فى قلق وارتياب .

فسألته : وكيف كان ذلك يا بُنى ؟

فقال : إنه فى سورة يقول : « ربّ المشْرِق والمغْرِب » (المزمل الآية ٩) ،

وفى سورة أخرى يقول : « ربّ المشْرِقَيْن وربّ المغْربيْن » (الرحمن ١٧) ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ .

قلت له : هوِّن عليك ، فالعيب منا وليس من القرآن الكريم ، لأننا لم نقرأه ، وحين قرأناه لم نتدبره ، ولو فعلنا ذلك على وجهه لما سألنا مثلَ هذا السؤال ، والله تعالى يقول : « أفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، ولوْكانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً » (النساء الآية ٨٢) .

ثم قلتُ له : إن القرآن لم يذكر المشرق والمشرقين فقط ، ولم يذكر المغرب والمغربين فقط ، بل ذكَر المشرق ، والمشرقين ، والمشارق ؛ وذكر المغرب ، والمغربين ، والمغارب ، ومع ذلك لا تعارض ولا تناقض ولا اختلاف .

لقد قال القرآن الكريم فى سورة البقرة : « ولله المشْرِقُ والمغْرِبُ فأيْنَما تولُّوا . فَثَمَّ وجْهُ اللهِ إنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (الآية ١١٥) وقال فى سورة المزمل : « ربُّ المشْرِق والمغْرِبِ لَا إلـٰهَ إلَّا هُوَ فاتَّخِذْهُ وكِيلاً » . وقال فى سورة البقرة : « قُلْ للهِ المشْرِقُ والمغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ إلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » (الآية ١٤٢) . والمشرق حيث تطلع الشمس ، والمغرب حيث تغيب ، ويكنى بالمشرق والمغرب عن الدنيا كلها ، والمراد بهذه الآيات وأمثالها تقرير أن الجهات كلها لله ، وكلها مخلوقة لله ، وكلها خاضعة لجلال الله : « هَـٰذَا خَلْقُ اللهِ فأَرُونِى ماذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » ؟ (لقمان الآية ١١) .

ويتعرض الإمام الرازى لمعنى قوله تعالى : « وللهِ المشْرِقُ والمغْرِبُ » فيقول فيما يقول : « أى هو خالقهما ومالكهما ، وهو كقوله : « رب المشرقين ورب المغربين » ، وقوله : « بربّ المشَارِق والمغَارِب » (المعارج الآية ٤٠) . ثم إنه سبحانه أشار بذكرهما إلى ذكر ما بينهما من المخلوقات ، كما قال : « ثمّ اسْتَوَى

إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » . (فصلت الآية ١١) .

والله وحده – لذلك – هو المعبود الحق ، وحيثما اتجه الإنسان وجد عظمة الله وجلاله ، ووجد خَلْقه ورزقه ؛ وهو سبحانه الذى يهدى إلى صراط التوحيد والإخلاص ، وعقيدة التنزيه واليقين .

والإشارة إلى المشرق والمغرب فيها تذكير بالشروق والغروب . وفيها تذكير بالليل والنهار يتواليان ويتعاقبان ، ولا شك أن تواليهما فى نظام مطرد واتساق محكم ، دليل أى دليل على قدرة الله عز وجل : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وتُولِجُ النَّهارَ فى اللَّيْل ، وتُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميِّتِ ، وتُخْرِجُ الميّتَ مِنَ الحىِّ ، وتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِساب » (آل عمران ٢٧) .

« لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ ، وَكلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (يس الآية ٤٠) .

* * *

والقرآن المجيد يقول أيضاً فى سورة الرحمن : « رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

والمراد بالمشرقين مشرق الشمس ومشرق القمر ، وبالمغربين مغرب الشمس ومغرب القمر . أو المراد هو مشرق الشمس فى الشتاء ، ومشرقها فى الصيف ، وكذلك مغربها فى الشتاء ومغربها فى الصيف .

ولقد جاء فى الجزء الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » أن الإمام الألوسى يقول : « والمعوَّل ما عليه الأكثرون من مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، ومن مقتضى ذلك أن يكون الله سبحانه ربَّ ما بينهما من الموجودات» واختار ذلك أيضاً كتاب « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » . ويعلق

الخبراء من العلماء على ذلك بقولهم : « قد يكون المراد هنا مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما ، ومن ثمّ تكون الإشارة إلى آية الليل وآية النهار ؛ ويصح أن تكون الإشارة هنا إلى الشمس وحدها ، وهى عماد الحياة فى هذا الكوكب الأرضى ، فيكون المقصود هو مشرق الشتاء ومغربه ، ومشرق الصيف ومغربه كما ذهب كثير من المفسرين .

وترجع هذه الظاهرة إلى ميل محور دوران الأرض على مستوى مدارها حول الشمس بمقدار ٢٣,٥° درجة . لذلك فإن النصف الشمالى من الكرة الأرضية مثلا يميل نحو الشمس فى الصيف ، فيطول النهار ويقصر الليل ، حتى يبلغ ذلك أقصى مداه ، فتظهر الشمس مشرقة أو غاربة على أقصى بُعد شمالى من المشرق والمغرب الصادقين ، ثم تقفل راجعة يوماً بعد يوم حتى تبلغ المشرق والمغرب الصادقين عند الاعتدال الخريفى ، ثم يأخذ هذا النصف فى الميل عن الشمس ، فيطول الليل ويقصر النهار ، وتستمر الشمس فى تأخرها الظاهرى نحو الجنوب ، حتى تبلغ مدى بُعدها إلى الجنوب فى قمة الشتاء .

ثم ترتد الشمس إلى الشمال يوماً بعد يوم ، حتى تبلغ المشرق والمغرب الصادقين فى الاعتدال الربيعى ، وهكذا ...

ويصدق عكس هذا جميعه فى نصف الكرة الجنوبى ، كما أن هذه الظواهر تبدو بصورة متطرفة كلما اقتربنا من أقصى الشمال أو أقصى الجنوب .

ولا شك أن فى هذا التدبير المحكم صلاحاً لأحوال الأحياء على الأرض ، إذ منه تحصل الفصول المناخية ، وما يترتب عليها من مواسم الزرع والحصاد ، وكافة صور التباين الموسمى فى نشاط الإنسان والحيوان والنبات » .

وهكذا يأتى العلم بعد مئات ومئات من السنين موافقاً لما فى القرآن الكريم ، وهذا يذكّرنا بقول الحق جل جلاله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى

يتبين لهم أنه الحق أولم يَكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

وقد يقول قائل :

وما الحكمة فى اختصاص مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف بالذكر ، مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس مشرق ومغرب ، يخالف بعضها البعض ؟

ويجيب الإمام الرازى بقوله : « غاية انحطاط الشمس فى الشتاء ، وغاية ارتفاعها فى الصيف ، والإشارة إلى الطرفين تتناول ما بينهما ، فهو كما يقول القائل فى وصف ملك عظيم : له المشرق والمغرب ، ويُفهم منه أن له ما بينهما أيضاً » .

* * *

وكذلك يقول القرآن الكريم فى سورة المعارج : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون » .

والمراد بالمشارق هنا هو مطلع الشمس كل يوم ؛ لأن للشمس مشرقاً كل صباح ، كما يرى ذلك كل مبصر ، والمراد بالمغارب هو مغرب الشمس كل يوم ، ففى كل مساء تغرب الشمس وتغيب ؛ وكذلك يقال عن القمر المتعدد المشارق والمغارب .

وقيل إن المراد هنا هو مشارق الشمس ومغاربها فى الفصول المتعددة المتوالية فإنها تختلف ما بين شتاء وربيع ، وصيف وخريف .

وقيل إن المراد هو مشارق النجوم والكواكب ومغاربها ، فكل نجم يشرق فيظهر ويتجلى ، ويغرب فيغيب ويحتجب . ويقول الرازى عن هذه الآية الكريمة : « يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو المراد بالمشرق ظهور دعوة كل نبي ، وبالمغرب موته ، أو المراد أنواع الهدايات والخذلانات » .

وكل هذه الأقوال لا يتعارض واحد منها مع الآخر ، لأن كلمتى المشرق والمغرب تشمل كل هذه المعانى وتضمها ، على سبيل الحقيقة أو المجاز : ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

والحديث عن المشارق والمغارب يذكّرنا بأن الله جل جلاله هو المالك لمشرق كل نجم ومغربه ، فهو المتصرف فيه إيجاداً وإعداماً ، وإبداءً وإخفاء ؛ وهو القيِّم المهيمن على ما بين المشارق والمغارب ، أى على أرجاء هذا الكون العريض الوسيع الذى يشمل الأرض والسموات ، وما وراء الأرض والسموات : بيده ملكوت كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

ولو أننا تعمقنا فى تصورنا لحركة الأرض أمام الشمس لأدركنا أنه يحدث — فى كل لحظة — شروق وغروب على بقاع الأرض الممتدة المستديرة ، وذلك أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ، فيطلع مشرق ويختفى مغرب ، وهكذا دواليك دون انقطاع .

ولقد ورد فى الجزء الأول من كتابى « يسألونك فى الدين والحياة » تصوير خبراء العلم للمشارق والمغارب ، ومنه قولهم : « ترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق .

ومن ثَمَّ تبدو لنا تلك الأجرام متحركة فى قبة السماء عكس ذلك الاتجاه ، مشرقة على الأفق الشرقى ، وغاربة من الأفق الغربى ، أو على الأقل دائرة من الشرق إلى الغرب حول النجم القطبى ، فى نصف الكرة الشمالى مثلا .

وإذا كان البعد القطبى للنجم أصغر من عرض مكان الراصد فالنجم لا يشرق ولا يغرب ، بل يرسم دائرة صغيرة وهمية حول القطب الشمالى ، وبذلك تشير الآية كذلك إلى ساعات الليل . وظاهرة الشروق والغروب إشارةٌ إذن إلى دوران كرة الأرض ، وهى نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب ،

فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة ، وحرم من الضوء تماماً النصف الآخر ، وهذا مالا تستقيم معه الحياة كما نعهدها .

وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب على تدبير الشمس وحدها ، دون سائر النجوم والكواكب ، كانت هذه إشارةً إلى التعدد اللانهائى لمشارق الأرض ومغاربها يوماً بعد يوم ، فى كل موضع على سطح الأرض ، أوحتى فى كل لحظة من لحظات الزمان تمر على الكرة الأرضية ، فالشمس فى كل لحظة غاربة عند نقطة ، ومشرقة فى نقطة أخرى تقابلها ، وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته » .

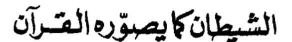
والشروق والغروب ظاهرتان متجددتان كل يوم ، بإحداهما يبدأ النهار ، وبالأخرى ينتهى ، وبين الشروق والغروب . ساعات تقبل ثم تمضى ، وفرص تتهيأ ثم تتفلت ، والمؤمن ابن وقته ، وخير الناس من أخذ من شبابه لهرمه ، ومن قوته لضعفه ، ومن غناه لفقره ، ومن يومه لغده ، ومن دنياه لآخرته .

ولعل الله جل جلاله لم يحدد المراد بكل لفظ من الألفاظ السابقة : المشرق ، والمشرقين ، والمشارق ، ثم المغرب ، والمغربين ، والمغارب ، لكى يثير الأذهان ويحرك العقول إلى البحث والنظر والتأمل والتدبر ، وبذلك يشعر الإنسان بقيمة عقله ، وعلو كرامته عند ربه ، ويصدق عليه قوله سبحانه : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فى البَرِّ والبَحْرِ ، ورَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّباتِ ، وفضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنا تفْضِيلاً » (الإسراء الآية ٧٠) .

والقرآن الكريم يحرض أهله أشدَّ التحريض فى آيات كثيرة ، على استعراض ملكوت السموات والأرض ، لمعرفة الحقائق ، وكشف الدقائق ، واستخدام القُوى والطاقات ، ومن ذلك قوله : « وفى الأرْضِ آياتٌ للمُوقِنِينَ ،

وفِى أنْفُسِكُمْ أَفلا تُبْصِرُونَ ، وفى السَّماءِ رِزْقكُم وما تُوعَدُونَ ، فوَربِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّه لحق مِثْلَ ما أنَّكُمْ تنْطِقُونَ » (الذاريات الآيات ٢٠ – ٢٣) .

آمنا برب المشرق ورب المغرب ، وآمنا برب المشرقين ورب المغربين ، وآمنا برب المشارق ورب المغارب ؛ وآمنا بالقرآن أعلى بيان : « الرَّحْمَنُ ، علَّمَ القرآنَ ، خلَقَ الإنْسانَ ، علَّمَه البَيَانَ » (سورة الرحمن الآيات من ١ – ٤) .



الشيطان كما يصوّره القرآن

ما يكاد الرجل البصير يتذكر « الشيطان » أو يسمع اسمه ، حتى يردد بلسانه أو جنانه : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . فأى دافع يدفعنا – مع رضا واختيار – إلى الحديث عن ذلك الشيطان اللعين ؟ !

لا بأس ، فحديثنا عن الشيطان سيكون كما يصوره القرآن ، فإن كان للشيطان وسوسة وبهتان ، ففى القرآن عصمة وأمان ، والله خير مستعان .

هناك كلمات ثلاث تتردد فى هذا المجال ، هى : الشيطان ، والجن ، وإبليس ، وفى اللغة أن الشيطان هو كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن والحيوان. وقال أبو عبيدة إن الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس ؛ والشيطان مخلوق خبيث لا يراه الإنسان ، يغرى بالفساد والشر. وفى الحديث النبوى الذى رواه مسلم فى صحيحه : « إن الشيطان يبعث سراياه – جنوده – فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة » . والشيطان وإبليس والعفريت بمعنى واحد وهو العاتى المتمرد من الجن ، وبذلك يكون الشيطان من الجن ، وقد فرقوا بينهما بأن الجن منه صالح وخبيث ، والشيطان لا يكون إلا خبيثاً ، فكأنه نوع خاص من الجن .

ويروون أن إبليس كان من الملائكة ، فلما عصى اللهَ ، وأبى السجود ، غضب الله عليه ولعنه ، ومسخه شيطاناً رجيماً ؛ ويروون أن اسمه قبل العصيان كان « عزازيل » ، ثم صار اسمه « إبليس » . ومن أسمائه « الحارث » ، وكنيته « أبو مرة » . ويصفه القرآن الكريم بقوله : « وإنْ يَدْعُونَ إلَّا شَيْطاناً مَرِيداً » (النساء ١١٧) . والمريد هو العاتي المتمرد ، الخارج عن الطاعة ، الظاهر الشر. وقد تكررت مادة « الشيطان » فى القرآن ما يقرب من ثمانين مرة .

وقد يطلق على الشيطان اسم « الجان » أو « الجن » . وفى سورة الأنعام جاء قوله تعالى . « وجَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ » (الأنعام ١٠٠) : أى جعل المشركون لله شركاء هم الجن ، وقد ذكر أهل التفسير أن المراد بالجن الملائكة ، لأن المشركين عبدوا الملائكة ، أو الشياطين ، لأن المشركين أطاعوهم فى أمور الشرك والمعاصى ، أو المراد إبليس بالذات ، فقد عبده أقوام وسموه ربًّا ، ومنهم من سماه : إله الشر.

والظاهر أن الملائكة ليسوا من الجن إلا بالمعنى اللغوى ، أى أنهم مستترون ، أو يكون إطلاق كلمة « الجن » على الملائكة إطلاقاً مجازيًّا ؛ لأن القرآن يقول : « ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ للملائِكَةِ أهَؤُلاءِ إيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدونَ ؟ قالُوا : سُبْحانَكَ أنْتَ وليُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدونَ الجِنَّ أكْثَرُهُمْ بِهِمْ مؤْمِنُونَ » . (سبأ الآيتان ٤٠ — ٤١) .

* * *

والقرآن الكريم يحدثنا عن الشيطان والجن وإبليس وجنوده ، فيقرر وجود خَلْق آخر غير الإنسان ، لا ترى مادته ، ولا نعرف حقيقته ، ومنه الشيطان وقد تكرر ذكره لمعشر الإنس والجن ، وقال فيما قال : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وهما الإنس والجن ، ويكفر الإنسان إذا أنكر وجود الشيطان أو الجن ، لأن

كتاب الله قد صرح بوجودهم ، ويقرر بصراء المفسرين أن هذه المخلوقات من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ، ولا نبحث عنها ، ولا نقول بنسبة شيء إليها ، مالم يرد لنا فيه نص ثابت عن المعصوم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وهناك كثيرون ينكرون وجود الشياطين والجن ، ويعيب هذا الإنكارَ أحدُ بصراء المفسرين بقوله : « أما الذين ينكرون وجود هذا الخَلْق إطلاقاً فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة .

ألأنهم عرفوا كلَّ ما فى هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ . إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن فى هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء فى الأرض وقفت ، أوستقف فى يوم من الأيام .

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة فى هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ . إن أحداً لا يدعى هذه الدعوى ، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ، وهى كانت مجهولة بالأمس ، والعلماء جادون فى التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون فى تواضعٍ قادتهم إليه كشوفُهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول فى هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدءون بعد .

ألأنهم رأوا كل القوى التى استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ... ولا هذه ، فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة ، ولكن أحداً منهم لم ير الكهرب قط ، وليس فى معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهربا من هذه الكهارب التى يتحدثون عنها .

ففيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ، ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشىء ؟

إن القرآن يحدثنا بأن الشيطان مخلوق من النار ، فيقول : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنُونٍ . والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » . (الحجر الآيتان ٢٦ ، ٢٧) ويقول : « وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نَارٍ » (الرحمن الآية ١٥) ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحميَّة الذميمة ، وامتنع من السجود لآدم ، وقال قولة السوء : « خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ولذلك يقول القرآن : « وإذْ قُلْنَا لِلْملائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبْلِيس كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه » (الكهف الآية ٥٠) .

وعمر الشيطان طويل ممتد ، لأنه يمثل قوة الشر فى الكون ، ولأنه ابتلاء واختبار ، ولذلك جاء فى سورة الأعراف عن الشيطان : « قَالَ أَنْظِرْنِى إلى يَوْمِ يُبْعَثونَ ، قالَ إنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ ، قال فَبِمَا أغْوَيْتَنِى لأقْعُدنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِنْ بَيْنِ أيْديهِمْ ومِنْ خَلْفِهِم وعَنْ أيْمَانِهِم ، وعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، ولا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ، قال اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحوراً لَمَن تَبِعَكَ مِنْهم لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أجْمَعِينَ » (الآيات من ١٤ — ١٨) .

وهكذا يظل الشيطان إلى ما قبل البعث والحساب ويظل — كما رووا — إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم ، وقد طلب الشيطان أن يظل إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين ، فأبى الله عليه ذلك .

والشيطان يرى الناس وهم لا يرونه . يقول القرآن : « يا بَنِى آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُم الشَّيْطانُ كمَا أخْرَجَ أبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهمَا لِيُرِيَهمَا سَوْآتِهِما ، إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ، إنَّا جَعَلْنا الشَّيَاطِينَ أولياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُون » (الأعراف ٢٧) .

والشيطان يحاول أن يستميل كل إنسان إلى الشر ، ولكن الذاكر لله يتأبى

على ذلك ، ولذلك يقول الله جل جلاله للشيطان : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ »(الحجر الآية ٤٢). فكأن سيطرة الشيطان تكون على الضعفاء فى الإيمان والعقل والعزيمة ، ولذلك حلا لبعض أئمة التفسير أن يشبه الشياطين بالميكروبات ، فذكر أن قرناء السوء من الشياطين كمثل جراثيم الأمراض ، حيث تمس كل أحد من الناس ، فمن كان قوى المزاج معتدل المعيشة متقياً لها بما يرشد إليه الطب من النظافة واستعمال المطهرات القاتلة لها فإنها قلما تصيبه ، وإذا أصابته فلا تضره ، بل قد تنفعه بتعويد مزاجه على المقاومة ، ومن كان ضعيف المزاج مسرفاً فى المعيشة ، غير متق لها بمثل ما ذكرنا ، فإنها تؤذيه ، ويحدث له بسببها من الأمراض والأدواء ما يكون به على شفا الهلاك أو يكون من الهالكين .

ولكن النفس الزكية التقية المهتدية بالقرآن والسنة ، لا يكاد الشيطان يضلها ، وإذا طاف بها طائف من وسوسته فى حال الغفلة تذكرت فإذا هى مبصرة محاذرة ، فمثلها فى عدم تأثير الوسوسة فيها ، كمثل البدن القوى فى عدم استعداده لفتك جراثيم الأمراض به ، كما أن النفس الفاسدة الفطرة بالشرك أو النفاق والمعاصى وسوء الأخلاق ، تكون مستعدة لطاعة الشيطان ، كاستعداد البدن الضعيف والمزاج الفاسد لتأثير ميكروبات الأمراض . ومن الأرواح والأبدان ماليس فى منتهى القوة ولا غاية الضعف ، فكل منها يتأثر بقدر استعداده ، وتكون عاقبته السلامة إن كان أقرب إلى الصحة والقوة ، أو الهلاك إن كان بضد ذلك .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيما رواه البخارى – : « الشيطان جاسم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وتحدثت السيدة عائشة فقالت : خرج النبى صلى الله عليه وسلم من

عندى ليلا ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع (من أثر الغيرة) فقال : مالك يا عائشة ؟ أغرت ؟

قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟

فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ .

قلت : يارسول الله ، أمعى شيطان ؟

قال : نعم .

قلت : ومع كل إنسان ؟

قال : نعم .

قلت : ومعك يارسول الله ؟

قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم (أى حتى أنجو من شره) .

والشيطان خبيث ماكر ، يحتال بشتى الوسائل وأدق المداخل ليتمكن من الإغواء والإضلال ، ولذلك صورته لنا السنة المطهرة بأنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فقد مرَّ اثنان على رسول الله ومعه زوجته صفية ، فأسرعا ، فقال لهما النبى : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيى (أى زوجتى) . فقالا : سبحان الله يارسول الله . فقال : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءًا .

ولذلك وصف القرآن الشيطان بأنه « الوسواس الخناس » والخناس من خنس يخنس إذا توارى واختفى ، وفى ذلك يقول ابن القيم : « فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس التى هى أصل الذنوب كلها ، فإذا ذكر العبد ربه ، واستعاذ به انخنس وانقبض ، كما يخنس الشيء ليتوارى » .

ويرى بعض بصراء المفسرين أن فى وصف القرآن للشيطان بوصف

« الخناس » لفتة ذات مغزى ، فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه ، حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس ؛ ولكنها من جهة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمى مداخل صدره ، فهوإذا ووجه بالذكر خنس واستتر ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أوكما قال الحديث السابق فى تصويره الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وهذه اللفتة تقوى قلب الإنسان على مواجهة الشيطان الوسواس ، لأنه خناس ، ضعيف أمام عدة المؤمن فى المعركة . ولكنها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهى أبداً ، فهوعلى الدوام قابع خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة لا تغنى عن اليقظات ، والحرب سجال إلى يوم القيامة ، كما صورها الكريم فى مواضع شتى .

ولقد يصل الإنسان التقى درجة يخافه فيها الشيطان ، وذلك كما تحدث النبى عليه الصلاة والسلام إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث قال له: « والـذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجًا (طريقاً) إلا سلك فجاً غير فجك » .

والشيطان – كما يخبرنا القرآن – يُضرب مثلا فى قبح الصورة ، ولذلك قال القرآن عن شجرة الزقوم : « إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » (الصافات ٦٤ ، ٦٥) . والسنة من وراء القرآن الكريم تجعل صورة الشيطان صورة منكرة ، فيروى البخارى قول النبى : « إذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً » . وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير ، وإن الطيور على أشكالها تقع .

والتثاؤب – وهو دليل التراخى والكسل – يأتى به الشيطان ، ولذلك يقول الحديث النبوى : « وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم

فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان » وإنما يضحك الشيطان إذا شهد من الإنسان مشهداً يعاب ويؤخذ عليه .

والشيطان هو الذى يسبب للمرء الإسراف فى النوم حتى تضيع عليه الصلاة ـ يقول النبى مصوراً ذلك : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم — إذا هو نام — ثلاث عُقَد : يضرب على كل عقدة مكانها : عليك ليل طويل فارقد . فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

ولقد ذكروا عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه رجلا نام حتى فاتته صلاة الصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » .

ومن صور الشيطان البغيضة ما جاء فى الحديث : « إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قُضى النداء أقبل » . وإنما يقبل للتشكيك والتضليل .

* * *

وفى القرآن المجيد سورة تسمى « سورة الجن » ، ومن الجن يخرج الشياطين كما عرفنا ليمثلوا عنصر الشر والفساد ، ويبقى فى الجن صالحون وطالحون ، وهذه السورة تخبرنا بجملة من الحقائق .

أولا : الجن حقيقة واقعة ، فهى تقول : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً » .

ثانياً : منهم المؤمنون الذى يصفون القرآن بأنه « يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً » . ومنهم الصالحون والطالحون . « وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً » أى مذاهب متفرقة ، ومنهم المسلمون المهتدون ،

والجاحدون الضالون ، ولكل جزاؤه : « وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (الجائرون عن طريق الحق) فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لجهَنَّمَ حَطَباً » .

ثالثاً : الجن لا ينفعون الناس : « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْس يَعُوذُونَ برجَال مِنَ الْجنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً » .

رابعاً : الجن لا يعلمون الغيب : « وَأَنَّا لَا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بمَن فى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بهمْ رَبُّهُمْ رَشَداً » .

خامساً : أنهم لا قدرة لهم أمام قدرة الله وسلطانه : « وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَنْ نُعْجزَ اللهَ فى الأَرْض وَلَنْ نُعْجزَهُ هَرَباً » .

* * *

ولعل أبرز قصة للشيطان فى القرآن هى قصته مع آدم ، حيث أبى الشيطان أن يسجد لأبى البشر ، واستحق على ذلك التكبر الطردَ من الجنة ، ثم عاد فوسوس إلى آدم حتى أكل من الشجرة ومعه حواء ، وترتب على ذلك نزول آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا ، ونشأت العداوة الدائمة بين الإنسان والشيطان .

يقول الله تعالى عن ذلك فى سورة الأعراف : « وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنا للمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُد إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وخَلَقْتَه مِنْ طِين » (الآيتان ١١ ، ١٢) .

ثم قالَ بعد ذلك بآيات : « ويا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الجَنَّة فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما ولا تَقْربَا هَذهِ الشَّجَرَةَ فتكُونَا مِنَ الظَّالِمينَ ، فَوَسْوَسَ لَهُما الشَّيْطانُ لِيُبْدِىَ لَهُما مَا وُورِىَ عَنْهما مِنْ سَوْآتِهِمَا وقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرة إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْن أَوْ تكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ . وقَاسَمَهُما إِنِّى لكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ

فَدلَّاهُما بِغُرورٍ فلمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهما وطَفِقَا يَخْصِفانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنَّةِ ونَادَاهُما ربُّهما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُما الشَّجَرةِ وأَقُلْ لَكُما إنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبينٌ . قَالَا ربَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ ، قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لبعْضٍ عدوٌّ ولَكُمْ فِي الأَرْضِ مستَقَرٌّ ومتَاعٌ إلى حِينٍ » (الآيات من ١٩ – ٢٤) .

ولقد حاول الشيطان بسبب عداوته الدفينة للإنسان أن يفسد هو وأتباعه عقائد الناس ، وأن يبتدعوا لهم مالم يشرع الله ولم يأذن به ، ولذلك يقول القرآن فى سورة النساء : « إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يشَاءُ ، ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً . إنْ يدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلَّا إناثاً وإِنْ يَدْعُون إلَّا شَيْطاناً مَرِيداً ، لَعَنَهُ اللهُ وقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْروضاً ولأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرَنَّهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ومَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبيناً . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلَّا غُروراً ، أُولئِكَ مأْواهُمْ جَهَنَّمُ ولا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً » . (الآيات من ١١٦ – ١٢١) .

ويبين أهل التفسير معنى هذه الآيات بما خلاصته : إن هؤلاء المشركين لا يدعون لقضاء حوائجهم إلا إناثاً كاللات والعزى ، وهى معبودات عاجزة ، لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعاً ، وما يدعون إلا شيطاناً خبيثاً من عادته الإغواء والإضلال ، أخزاه الله وأبعده عن مواطن فضله ورحمته .

وقال الشيطان اللعين : إنى سأتخذ من الناس نصيباً مفروضاً معيناً ، وهو ما فى النفوس من استعداد للشر ، ليخدعهم ويضلهم . وقال إنه سيعمل على إضلال الناس وصرفهم عن طريق الحق والهدى ، وسيزين لهم الاستعجال إلى اللذات والشهوات والتسويف بالتوبة وبالعمل الصالح ، وسيأمرهم ليقطعوا

آذان بعض الأنعام ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، حيث كانوا يشقون آذان بعض الإبل شقًّا طويلا ، ولا يحملون عليها شيئاً ، وهذا من سخف الجاهلية وسفه الوثنية .

وأنه سيأمرهم أيضاً ليغيروا خلق الله بالتشويه والتمثيل وقطع الأطراف .

ومن يتخذ الشيطان وليًّا له ، ويتبع وسوسته فقد خسر خسراناً ظاهراً فى دنياه وأخراه ، لأنه سيصير أسيراً للأوهام والخرافات ، لأن الشيطان يعد الناس بالفقر إذا هم أنفقوا فى سبيل الله ، ويمنيهم بالأمانى الكاذبة التى لا ثمرة لها ، وهو لا يعدهم إلا بالباطل الذى يغترون به وينخدعون ، وهؤلاء الذين يتبعون الشيطان ويطيعونه ينتهون إلى نار جهنم لا يجدون عنها مصرفاً يفرون إليه .

* * *

هذا ونستطيع أن نتنزع من القرآن مجموعة من صفات الشيطان التى تصور سيئاته ومنكراته ، وهى :

١ – الخديعة ، وتتجلى فى مخادعة الشيطان لآدم وزوجته حتى دفعهما إلى الأكل من الشجرة المحرمة ، ولذلك يقول القرآن : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فأَخْرَجَهُما ممَّا كانَا فِيهِ » (البقرة ٣٦) .

٢ – الوعد بالفقر والأمر بالسوء والفحشاء ، ولذلك يقول الله تعالى : « يَأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حلالاً طيِّباً ، ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إنَّمَا يأْمُرُكم بالسُّوءِ والفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُون »

(البقرة الآيتان ١٦٨ – ١٦٩) .

٣ – إيقاع العداوة والبغضاء : « يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُم العَـداوةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١) .

٤ – تزيين السوء : « وزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُون » . « قالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرضِ ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ » (الحجر ٣٩ ، ٤٠) . « وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ وقالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وإنِّى جارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَراءَتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقالَ إنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إنِّى أَرَى ما لاَ تَرَوْنَ إنِّى أَخَافُ اللهَ واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (الأنفال ٤٨) .

٥ – الإنساء : « وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين » (الأنعام ٦٨) .

٦ – الوسوسة ، وأخطرها الوسوسة فى العقيدة والإيمان : « قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إلـٰهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الوسْوَاسِ الخَنَّاسِ » (سورة الناس من ١ – ٤) . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » .

يقول ابن القيم عن الشيطان :

« ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ، ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه . قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال : « إنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » .

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته ، لتعم الاستعاذة شره جميعه ، فإن قوله : « من شر الوسواس » يعم كل شر ، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرًّا وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً ، وهى الوسوسة التى هى مبادئ الإرادة ، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية ، فيوسوس إليه ، ويُخطر الذنب بباله ، فيصوره لنفسه ، ويمنيه ويشهيه ، فيصير شهوة ، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة ، ثم لا يزال يمثّل ويخيِّل ويمنِّى وينسِّى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا جرهم ، وإن ونوا أزعجهم ، كما قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكافِرِينَ تؤزُّهُمْ أَزًّا » (مريم ٨٣) أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً ، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم .

فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة » .

٧ — المس : « إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تذكَّروا فإذَا هُمْ مُبْصِرونَ » (الأعراف ٢٠١) .

٨ — الاستهواء وهو الإضلال : « كالَّذِى اسْتَهْوتْه الشَّياطِينُ فِى الأرْضِ حَيْرانَ » (الأنعام ٧١)، « ويُرِيد الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُم ضلالاً بَعِيداً »(النساء ٦٠)

٩ — الإباء والاستكبار والكفر : « إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَر وكانَ مِنَ الكافِرِينَ » (البقرة ٣٤) .

١٠ – عداوته العميقة للإنسان : « إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدوًّا إِنَّما يَدْعُو حِزْبَه لِيَكُونُوا من أَصْحابِ السَّعِيرِ » (فاطر الآية ٦) .

* * *

ولهذه السيئات والمقابح والمناكر وغيرها المتجمعة فى الشيطان اللعين كان من الواجب على الإنسان أن يستعيذ منه بالله جل جلاله القائل : « وإِمَّا يَنْزغَنَّك مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (الأعراف ٢٠٠) . أى إذا حاول الشيطان أن يبدأ معك الوسوسة فالجأ إلى الله ، وتحصن به ليصونك منه . والقائل : « وقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ ، وأَعوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضرون » (سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ ، ٩٨) . أى أعتصم بك يا رب من وسوستهم ، وأن يحضرونى فى أمورى ، لأنهم لا يحضرون إلا بالشر والسوء .

والسنة المطهرة تدلنا على أن عبارة الاستعاذة ، هى أن يقول الإنسان بلسانه وجنانه فى إخلاص ورجاء ، « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقد استب رجلان ، فاحمر وجه أحدهما وانتفخت أوداجه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال أعوذ بالله من الشيطان ، ذهب عنه ما يجد » .

والقرآن يرشد الإنسان إلى أن يقول فى الاستعاذة : « أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وبعض الأئمة يتوسع فيوجه إلى الطريقة التى يعتصم بها العبد من الشيطان ويحترز من شره ، فيذكر الأمور التالية :

١ – الاستعاذة بالله .

٢ – قراءة سورة الفلق والناس .

٣ – قراءة آية الكرسى .

٤ – قراءة سورة البقرة ، وخاتمتها وهى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » ، إلى نهايتها .

٥ – قراءة سورة المؤمن من بدايتها حتى قوله تعالى : « لا إله إلا هو إليه المصير »

٦ – أن يقول مائة مرة . لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك والحمد ، وهو على كل شيء قدير .

٧ – كثرة ذكر الله عز وجل .

٨ – الوضوء والصلاة .

٩ – إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس .

وأرى أنه لا موجب لهذا التوسع ، والعمدة على الإخلاص وصدق الرجاء .

* * *

والقرآن يحذر الإنسان أن يصحب الشيطان ، لأن العاقبة لذلك هى الخسران ، ولذلك يقول القرآن : « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً » (النساء الآية ٣٨) . ويقول : « ومَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وليًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً » ، (سورة النساء ١١٩) ويقول : « وكان الشَّيْطانُ للإنْسان خَذُولا » (الفرقان الآية ٢٩) . ويقول : « ألا إنَّ حِزْبَ الشَّيطان هُم الخاسِرُونَ » (المجادلة الآية ١٩) .

وحذر القرآن الإنسان أن يتبع خُطوات الشيطان ، وهى كل أمر يخالف سبيل الحق والخير فقال : « ولا تَتَّبِعُوا خُطُوات الشَّيْطانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدوٌّ مُبِينٌ » (البقرة الآية ١٦٨) . وكرر هذا المعنى فى عدة آيات .

* * *

أما بعد ، فقد طال مدى الحديث ، وجاوز نطاقه ، وما زال حديث الشيطان اللعين ذا شُعب وشجون ، فلنقف عندما كان ، ولنكتف بما سبق ، ولنتحصن بحصن الله ضد الوسواس الخناس ، ولنقل عند النهاية ما قلناه عند البداية : نعوذ بالله العلي العظيم من الشيطان الرجيم .

وقل : سلام .



القرآن وصفحات للمرأة في حياة الأنبياء

يقول الله عز شأنه فى أول سورة النساء :

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » .

وهكذا يخبرنا الحق جل جلاله أنه برأ الإنسانية من ذكر وأنثى ، وسوّى بينهما فيما يقبل التسوية ؛ ولكن الرجل – بظلمه أو جهله – هضم المرأة فى كثير من العصور حقها ، وأنكر عليها شخصيتها ، وانحرف أحياناً بها أو معها.

وجاء الإسلام العظيم فأنصف وعدل ، وأخذت المرأة فى ظلاله الكريمة الرحيمة تظهر بكرامتها ومكانتها . ونحن نتذكر جيداً صفحات المرأة فى حياة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، فهناك « آمنة » التى حملت ووضعت ، و « حليمة » التى أرضعت ورعت ، « وخديجة » التى شاركت ووفت ، و « أسماء » التى أعدت الطعام وحملت الزاد وشقت النطاق ، وهناك جماعة « بنات النجار » التى استقبلت ورحبت ، و « عائشة » التى أحبت وأعزت ، رضوان الله عليهن جميعاً .

وحين نرجع إلى سير الأنبياء والمرسلين نجد للمرأة تاريخها الكريم المجيد ، فى ظل الإيمان بالله ، والاتجاه إلى حماه ، وحسبنا فى مقامنا هذا أن نستعرض ما كان للمرأة من أثر فى حياة كليم الله موسى عليه السلام .

وأول ملحظ لها نلحظه يتمثل فى « أم موسى »[١]، فقد قيل لفرعون المتكبر الجبار إن مولوداً من بنى إسرائيل سيولد ، وسيكون على يديه زوال ملكه ، فأبى فرعون إلا أن يهلك الألوف المؤلفة فى سبيل الإبقاء على حكمه وملكه وسلطانه ، وقرر بجبروته أن يقتل الذكور من المواليد ...

وتحمل أم موسى بوليدها ، وكلما دنا موعد الميلاد زاد قلقها وخوفها ، فلما وضعته كان خوفها عليه أضعاف أضعاف فرحها بقدومه . ولكن الله جل جلاله يلهمها ما يثبت فؤادها : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى اليَمِّ ، ولا تَخَافِى ولا تَحْزَنِى ، إِنَّا رادُّوهُ إِلَيْكِ ، وجاعِلُوهُ من المُرْسَلِينَ » (القصص الآية ٧) .

وتستجيب أم موسى الطيبة الطاهرة ، وتصنع لابنها صندوقاً ، وتلقيه فى ماء النهر ، وكأنها ألقت معه عقلها وقلبها ، فأصبح صدرها خالياً من الهدوء والطمأنينة ، فارغاً من الراحة والاستقرار ، ولولا أن الله سبحانه ربط على قلبها بالإيمان ، وشد عزمها باليقين ، لكشفت السر ، وأفسدت التدبير : « وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارغاً ، إِنْ كادَتْ لَتُبْدِى بِهِ[٢]، لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ » (القصص الآية ١٠) .

ولم يكن أمامها من حيلة أو وسيلة بعد ذلك ، إلا أن تأمر ابنتها —

---

(١) قيل إن اسمها « لوحا بنت هاند » ، وقيل : يوخابذ ، وقيل غير ذلك .

(٢) لتصرح بأنه ابنها .

أخت موسى – بمراقبة الصندوق من وراء ستار : « وقالتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ[١]، فَبَصُرتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (القصص الآية ١١) .

وهنا جاء واجب الأخت الشقيقة فى حياة موسى عليه السلام ، فأخذت تتابع الصندوق ، وبداخله الوليد ، من مكان بعيد ، تعلو به موجة ، وتنزل به أخرى ، وهو لا يغيب عن لحظها ، وإن كانت لا تُشعر أحداً أبداً بأنها تتابعه أو تلاحظه .

* * *

ويمضى الموج بالوليد الضعيف الرقيق ، داخل الصندوق ، حتى يبلغ قصر فرعون ، ويلتقطه أهله ، والأخت ترى وتنظر وتراقب .

وهمَّ جبروت البغى والطغيان أن يعصف بالوليد الضعيف الوحيد ، ولكن رب الأرباب ومهيئ الأسباب يلقى فى قلب « آسية » زوجة فرعون فيضاً من الرحمة والرقة والحنان ، والانعطاف إلى هذا الرضيع الجديد : « وقالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ : قُرَّةُ عَيْنٍ لى ولَكَ ، لا تَقْتُلُوهُ ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ، وهُمْ لَا يَشْعُرون » (القصص الآية ٩) .

فترجو آسيةُ زوجَها أن يُبقى عليه ، وبعد لأى يستجيب الطاغية الجبار لإلحاح الرجاء ، ولكن الطفل المحفوف بعناية الله يفاجئهم بأنه لا يقبل ثدى امرأة ليرضع ، برغم أنهم عرضوا عليه مختلف النساء ومختلف الأثداء : « وحَرَّمْنا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ » (القصص الآية ١٢) .

وهنا تقبل الأخت الشقيقة الكتوم ، فى مظهر الناصح الشفيق : « فَقَالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وهُمْ لَهُ ناصِحُون » ؟ .

---

(١) قصيه : اتبعى أثره .

ففرحوا بذلك ، وطربوا له ، فقد صار هذا الوليد شغلهم الشاغل : « وأَلْقَيْتُ عليْك محبَّةً مِنِّى ، ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » (سورة طه الآية ٣٩) .

ودلتهم الأخت على بيته وبيتها ، على أمه وأمها ، وهكذا تأبى عناية الله القادر إلا أن يحمل آل فرعون بأيديهم موسى الوليد إلى أمه التى خافت عليه منهم كل الخوف : « فَرَدَدْناه إلَى أُمِّه كَىْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ ، ولِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون » (القصص الآية ١٣) .

* * *

ويكبر موسى مع الأيام ، ويبلغ أشده ، وتضطره بعض الأحداث إلى الخروج من موطنه إلى مكان بعيد ، إلى « مدين » ، وهناك شاهد بئراً ازدحم حولها الرجال الأشداء لسقى الدواب والأنعام ، ومن ورائهم فتاتان لا تستطيعان سقى أنعامهما لشدة الزحام ، فتتحرك فيه رجوليته وفتوته ، فيسقى لهما بقوته وعزيمته وأدبه ، وتلمح الفتاتان براءة الشاب الطهور ، وتعودان إلى أبيهما – شعيب أو ابن عمه – وتخبرانه بما حدث ، وتقول إحداهما منوهة بقوته وأمانته وفضيلته : يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين .

وتكون النتيجة أن يتزوج موسى هذه الفتاة الحازمة اللماحة ، وتشاركه أعباء الارتحال والانتقال ، ومتاعب الحياة ، فتكون نعم الحليلة ، ونعم الشريكة ، وتعطى صورةً أخرى من كفاح المرأة فى تاريخ الأنبياء :

« ولَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وجَدَ عليْه أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ . ووجَدَ مِنْ دُونِهِم امْرَأَتَيْن تَذُودَانِ ، قالَ : ما خَطْبُكما ؟ . قالَتَا : لانَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُما ، ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقالَ : رَبِّ إِنِّى لما أَنْزَلْتَ

إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ، فجاءَتْهُ إحْداهُما تَمْشِي عَلى اسْتِحْياءٍ ، قَالتْ : إنَّ أبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا ، فلمَّا جاءَهُ وقصَّ عليْهِ القَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ . قالتْ إحْدَاهُما يا أبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ. قالَ: إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ ، عَلَى أنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ ، فإنْ أتْمَمْتَ عَشْراً فمِنْ عِنْدِكَ ، وما أُرِيدُ أنْ أشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وبيْنَكَ ، أَيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عليَّ ، واللهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ »[1] (القصص الآيات من ٢٣ — ٢٨) .

* * *

وتدور الأيام وتتوالى الأعوام ، ويدعو موسى إلى ربه ، مؤيَّداً بالمعجزات والبراهين ، وتشهد آسية امرأة فرعون – باستقامة طبيعتها وسلامة فطرتها – شواهد الحق والصدق والإخلاص من موسى عليه السلام ، فتؤمن به ، وتتابعه فى دعوته الإلهية الربانية الصافية كما جاءت من عند الله ، وتعلن إيمانها على الرغم من تهديد زوجها الطاغية ، وصبه ألوان العذاب والبلاء عليهـــا .

وهنا يتجلى موقف جديد من مواقف المرأة فى حياة موسى الكليم عليه السلام ، وفضلت آسية ما عند الله على جاه الحياة ، وخلَّد القرآن بطولتها الإيمانية ، فقال فى سورة التحريم : « وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للَّذِينَ آمنوا امْرأَةَ فِرْعَوْنَ ، إذْ قالتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدكَ بيتاً فى الْجَنَّةِ ، ونَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ، ونَجِّنى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِين » (الآية ١١) .

---

(١) تذودان : تمنعان الغنم عن الماء بسبب الزحام . ويصدر الرعاء : يصرف الرعاة دوابهم . تأجرنى : تكون لى أجيراً . وحجج : سنين .

واستجاب الرحمن النداء ، وحقق الرجاء ، وعطر بسيرتها مختلف الأرجاء .

* * *

ثم تدور الأيام وتتوالى الأعوام ، ويشتد الصراع بين موسى وقارون الذى طغى وبغى ، واغتر بأمواله وكنوزه : « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِم ، وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إِنَّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولى القُوَّةِ ، إِذْ قالَ لَـهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ ، وابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، ولَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليكَ ، ولا تَبْغِ الفَسادَ فِى الأَرْضِ ، إِنَّ اللهِ لَا يُحِبُّ المُفْسِدينَ ، قالَ إِنَّما أُوتِيتُه عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً ، ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنوبهمُ المجْرِمُونَ » (القصص من ٧٦ – ٧٨) .

وحاول قارون بكفره وفجوره أن يتخلص من موسى ومكانته وزعامته ، ولو بأحط الوسائل وأخس الطرق ، فاتفق قارون مع امرأة بغى ، على أن تتهم موسى أمام الناس بأنه راودها عن نفسها ، وارتكب معها الفاحشة ، ووعدها على ذلك مالا كثيراً .

ويتجمع الناس ، ويتبجح المجرم الأثيم ، ويتوقح الافتراء الدنىء ، وتقف المرأة لتقول كلمتها ، ويحس موسى بدقة الموقف وخطورته ، فيقبل نحو المرأة بإخلاصه وبراءته وصدقه ، ويناشدها بالله الذى خلقها ، وقدرته التى تحيط بها ، أن تقول الحق ، وتنطق بالصدق .

ويتزلزل كيان المرأة ، وتتذكر ربها وقدرته وسلطانه ، وتستيقظ فيها فطرة الإيمان الغافية ، فإذا هى تعترف بالحقيقة ، وتنوء إلى الحق ، وتقرر أن قارون هو الذى دفعها إلى موقف الافتراء ، ويحق الله الحق بكلماته ،

فتظهر براءةموسى على يد هذه المرأة ، وتعلن إيمانها بدعوته .

وتكون عاقبة قارون أسوأ العواقب :

« فَخَسَفْنا به وبدَاره الأرْضَ ، فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُون اللهِ ، وما كانَ مِنَ المُنْتَصِرينَ ، وأصْبَح الَّذِينَ تَمَنَّوْا مكانَهُ بالأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ كَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لمنْ يَشاءُ مِنْ عِباده ويَقْدِرُ ، لَوْلا أنْ مَنَّ اللهُ علَيْنا لخَسَفَ بِنَا ، وىْ كأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ، تِلْكَ الدَّارُ الآخِرةُ نجْعَلُها للَّذِين لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرْضِ ولافَساداً ، والعاقِبَةُ للْمتَّقِينَ » .

(سورة القصص الآيات ٨١ — ٨٣)

* * *

إن المرأة حين تستقيم طبيعتها ، وتحيا فيها عقيدتها ، تمثل الأمومة بحنانها وعطفها ، كما فعلت أم موسى ، وتسارع إلى الانفعال والتأثر — أكثر من الرجل — كما فعلت آسية امرأة فرعون حين شاهدت موسى الرضيع ، وتتعب فى سبيل أخيها وتسهر عليه . كما فعلت أخت موسى حين قصت أثره ، وأسهمت فى عودته إلى أمه ، وتدرك بسهولة وسرعة أمانة الرجل وأخلاقه كما فعلت بنت شعيب ، وتضحى المرأة فى سبيل عقيدتها ولو بحياتها كما فعلت آسية ، حيث فضلت الموت على ترك الإيمان ، وتخاف وترتدع إذا تذكرت خالقها وبارئها ، كما فعلت المرأة التى تآمر معها قارون .

فهل من سبيل لكى تعود المرأة اليوم فى دنيا الناس إلى صراط ربها العلى الكبير ؟

الجنّ والملائكة في القرآن

قديماً قالوا : « وبضدها تتميز الأشياء » . وشتان مابين « الجن » و« الملائكة » :

فالجن من النار ، والملائكة من النور ، فما الذى يجمع بين النار والنور ؟ . وذكر الجن يرعب ، وذكر الملائكة يفرح ، فما الذى يربط بين الرعب والفرح ؟

لقد عللوا لذلك بقولهم : إن الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده .

وإذا فزع الإنسان من رهبة الجن قاده خياله إلى بهجَة الملائكة ، فلا علينا إذا تعرضنا بالحديث للجن والملائكة معاً ، لنستبين ملامح كل من الصورتين على استقلال ، وإن جمع بينهما المجال ، ولا علينا إذا بدأنا بالجن لنخلص منهم إلى حسن الختام بالملائكة ! .

* * *

أصل المعنى اللغوى لمادة « الجن » هوستر الشيء عن الحاسة ، ولذلك ذكر ابن فارس فى « معجم مقاييس اللغة » أن هذه المادة أصلها السَّتْرُ والتستر ، وكأن الجن سُمُّوا بذلك لأنهم عالم مستتر لا يراه البشر.

والجن جماعة الجن ، والجان هو الواحد منهم .

وبعض العلماء يعرِّف الجن بأنهم الأحياء العاقلَة المكلفة الخفية التى لاندركها نحن البشر بحواسنا ، والأصفهانى فى « مفردات القرآن » يذكر أن لفظ « الجن » يقال على وجهين .

الوجه الأول : للأحياء الروحانية المستترة عن الحواس كلها ، وهذا يشمل الملائكة والشياطين .

الوجه الثانى : لبعض الروحانيين ، لأن الروحانيين ثلاثة أقسام : أخيار وهم الملائكة،وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم أخيار وأشرار وهم الجن.

والقرآن الكريم يخبرنا بأن الله تعالى قد خلق الجن من النار ، فهو يقول فى سورة الحجر : « والجانّ خلقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُوم » . (الآية ٢٧) والسموم هى الريح الحارة القاتلة ؛ ويقول فى سورة الرحمن : « وخَلَقَ الجانَّ منْ مارجٍ من نارٍ » (الآية ١٥) أى من لهيب متموج من النار . ويذكر النووى فى « تَهْذِيب الأسماء واللغات » أنه جاء فى صحيح مسلم هذا الحديث : « خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وصف لكم » .

والجن كما ذكرنا أحياء مستترة ، ولذلك لا يستطيع البشر رؤيتهم على حالتهم الأصلية التى خُلقوا عليها ، وأبصار الناس لا تستطيع أن تدرك كلَّ الموجودات ، فهى لا ترى الهواء مع أنه موجود ، ولا تستطيع أن ترى جرماً للكهرباء مع أنها موجودة ، والجن من عالم آخر غيبى غير عالم البشر . وهم يرون البشر ، والبشر لا يرون الجن ، بدليل قول الله تبارك وتعالى عن إبليس وقومه : «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهم » . (الأعراف الآية ٢٧) .

فإن قيل : إن الآية عن إبليس أو الشيطان ، وليس عن الجن ، قلنا :

إن إبليس يعد من الجن بدليل قول القرآن الكريم : « إلا إبْليسَ كانَ مِنَ الجنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه » (الكهف الآية ٥٠)

وبعض العلماء يرى أنه يحتمل أن تكون « الميكروبات » الدقيقة جداً نوعاً من الجن ، ولعله لوحظ فى هذا الرأى معنى الاستتار فى الكلمة ، والميكروبات مستترة نوعاً من الاستتار ؛ ولكن فات هذا البعض أننا نستطيع أن نرى هذه الميكروبات تحت عدسة المجهر أو المنظار الخاص ، على حين لا يوجد بين أيدينا آلة ننظر فيها فنرى من خلفها الجن ، ولذلك لم يسترح جمهرة العلماء إلى هذا الرأى ، فردوه وفندوه .

والجن مكلَّفون بالإيمان والطاعة ، وسيحاسبهم الله على أعمالهم وسلوكهم بالطريقة التى يعلمها سبحانه ، والقرآن يقرر هذا صراحة ، ويؤكده فى أكثر من آية ، فنراه فى سورة الأنعام يقول :

« يا مَعْشَر الجنِّ والإنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقصُّون عليْكُم آياتِى ويُنْذِرُونكُمْ لِقَاء يَوْمِكُم هذا ؟ قالُوا شهِدْنا علَى أنْفُسِنا ، وغرَّتْهمُ الحياةُ الدُّنيا ، وشَهِدُوا علَى أنْفُسِهمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِين . ذٰلِكَ أنْ لَمْ يَكنْ رَبُّكَ مُهْلكَ القُرى بظُلْم وأهلُها غافِلُون . ولكلٍّ درجاتٌ ممَّا عَمِلُوا وما ربُّكَ بغافِلٍ عمَّا يَعْمَلُون » (الآيات ١٣٠ — ١٣٢) .

ويشير فى سورة الأعراف إلى أن الضالين من الجن سيذوقون — كالضالين من الإنس — عذاب جهنم ، جزاء ضلالهم وغفلتهم عن واجبهم نحو ربهم ، فيقول :

« ولَقَدْ ذَرأْنَا لجهنَّم كثيراً مِنَ الجنِّ والإنسِ لَهُمْ قلوبٌ لا يَفْقهون بها ، ولهمْ أعْينٌ لا يبْصِرُونَ بها ، ولهم آذانٌ لا يسْمعُون بها ، أُولئِك كالأنْعام بَلْ هُمْ أضلُّ »

ويقول فى سورة هود :

« وتَمَّتْ كلمةُ ربِّك لأمْلأَنَّ جَهَنَّم مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِين » . (الآية ١١٩) والجنة – بكسر الجيم – هم الجن .

ويعبر القرآن تعبيراً واضحاً وضوحاً بليغاً دالا على تكليف الجن ومحاسبتهم ، فيقول فى سورة الذاريات :

« وما خلقتُ الجنَّ والإنْسَ إلَّا لِيعْبدُون ، ما أُرِيد منهم منْ رِزقٍ وما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمون ، إنَّ الله هُو الرزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِين » . (الآيات ٥٦–٥٨)

* * *

وإذا كنا قد فرقنا بين الشياطين والجن ، فعرفنا أن الشياطين كلهم أشرار ، وأن الجن منهم الأشرار والأخيار ، فالقرآن الكريم يحدثنا بأن من الجن مؤمنين صالحين ، وأن منهم طائفة سمعت القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى الفجر فى موطن يقال له « نخلة » ، فآمنوا به ، وأبلغوا قومهم عنه .

يقول القرآن فى سورة الأحقاف : « وإذْ صَرفْنَا إليْكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ يَسْتَمِعُون القُرْآن ، فلمَّا حضَرُوهُ قالُوا أنْصِتُوا فَلمَّا قُضِي ولَّوْا إلَى قَوْمِهِم مُنْذِرينَ ، قالُوا يا قوْمَنا إنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إلَى الْحَقِّ وإلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم . يا قَوْمنا أجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ ويُجِرْكُمْ منْ عَذاب ألِيم . ومَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرْضِ ولَيْسَ لهُ مِنْ دُونِهِ أوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » . (الآيات من ٢٩ – ٣٢) .

بل ينزل الله تعالى سورة يسميها « سورة الجن » يفتتحها عز شأنه بقوله :

« قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفرٌ مِنَ الجنِّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ،

يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أحداً . وأنَّه تعَالَى جَدُّ رَبِّنا ما اتَّخذَ صَاحِبةً ولا ولداً » (الآية من ١ – ٣) ، ثم يقول فيها ما يفيد أن الجن منهم صالحون ومنهم طالحون ، « وأَنَّا مِنَّا الصَّالحُون ومِنَّا دُونَ ذَلِك كُنَّا طَرَائِق قدداً» (الآية ١١) أى مذاهب متفرقة .

ثم يقول فيها مؤكداً إيمان هؤلاء المستمعين : « وأَنَّا لمَّا سَمِعْنَا الهُدَى آمنَّا بِهِ فمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّه فلا يخافُ بَخْساً ولَا رَهَقاً ، وأَنَّا مِنَّا المسْلِمُونَ ومِنَّا القَاسِطُونَ (الجائرونَ عن طريق الحقّ) فمن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رشداً ، وأَمَّا القاسِطُونَ فكانُوا لجهنَّم حَطَباً » إلخ (الآيات من ١٣ – ١٥) .

وقد روى – كما أورد النووى فى تهذيب الأسماء واللغات – أن ثواب مؤمنى الجن هو أن يجاروا من النار ، ويقال لهم : كونوا تراباً ، ولا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، ويرى بعض العلماء أنهم كما يعاقبون بالإساءة يثابون بالإحسان : والله تعالى أعلم .

* * *

والله الذى أكرم بنى آدم بما أكرمهم به ، جعل من الجن خدماً للمختارين من عباده ، فهو سبحانه قد سخر طائفة منهم لنبيه رسول الله سليمان عليه السلام ، ويعبر عن ذلك فى سورة النمل بقوله :

« وحُشِرَ لسلَيْمَانَ جنودُه مِنَ الجنِّ والإنْسِ والطَّيْر فهُمْ يوزَعُونَ » (الآية ١٧) : أى يوقف أوائلهم ليلحقهم أواخرهم من الكثرة .

وهذا أحد الجن الخادمين لسليمان يعرض عليه أن يخدمه بإحضار عرش بلقيس ملكة سبأ إليه ، قبل أن يقوم من مجلسه الذى كان يجلسه للحكم والقضاء ، وكان يمتد من الصباح حتى الظهيرة. يقول القرآن عن ذلك فى سورة النمل أيضاً :

« قال يَأَيُّها الملأُ أَيُّكُمْ يأْتِيني بعَرْشِها قَبْلَ أنْ يأْتُوني مُسْلِمينَ ، قال عِفْرِيتٌ مِنَ الجنِّ أنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ، وإنِّي عليْهِ لقوِيٌّ أمِينٌ » (الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .

وتتنوع خدماتُ الجن لسليمان ، خاضعين لأمره بإذن ربه ، فيقول القرآن الحكيم فى سورة سبأ :

« ومنَ الجنِّ مَنْ يَعْملُ بيْنَ يدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ومَنْ يَزِغْ مِنْهُم عنْ أمْرِنا نُذِقْه من عَذاب السَّعِير ، يَعْمَلُونَ لَهُ ما يشَاءُ مِنْ مَحارِيبَ وتَماثِيلَ وجِفانٍ كالْجوابِ وقُدورٍ راسِياتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكراً وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » (الآيتان ١٢ ، ١٣) .

فهم خاضعون لسليمان ، يعملون تحت طاعته بإذن الله ، ومن يتمرد من الجن ، ويعصى أمر الله له بطاعة سليمان ، يصبه عذاب الله الأليم ، فهم خاضعون لخالقهم جل جلاله ، وهم يعملون لسليمان أماكن للعبادة ، وتماثيل من نحاس وغيره ، وقدوراً كبيرة كالأحواض للطعام . والله على كل شيء قدير .

هذا ومن الخرافات التى يربطها أهل الجهل بحديث الجن فى القرآن الحكيم أنهم يتعرضون لقول الله تبارك وتعالى فى سورة الأنفال : « وأعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطعْتُم مِنْ قوَّةٍ ومنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرهِبُونَ به عَدوَّ اللهِ وعدوَّكُم وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهم ، وما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فى سَبيلِ اللهِ يُوفَّ إلَيْكُمْ وأنْتُم لَا تُظْلَمُونَ » (الآية ٦٠) . ويقولون إن الذين « لا تعلمونهم الله يعلمهم » هم الجن ، ويروون فى ذلك حديثاً منكراً لا يصح إسناده ولا متنه — كما ذكر الإمام ابن كثير فى التفسير ، وهذا الحديث المنكر هو : « هم الجن ، لا يخيل الشيطان إنساناً فى داره فرس عتيق » .

وحسبنا هذا المقدار من الحديث عن الجن .

* * *

ويأتى الحديث عن الملائكة . . .

والملائكة جمع مَلَك – بفتح الميم واللام – وهم جنس من خلق الله تعالى ، أصحاب أجسام لطيفة نورانية ، وهم يستطيعون أن يتشكلوا فيما يشاءون من الصور ، ومنهم الرسل المبعوثون إلى الأنبياء بوحى الله تعالى ، ومنهم من ينفذ من الأمور فى هذا العالم ما يؤمر به ، ومنهم من تخصص للعبادة والتسبيح .

وقد عرَّف السلفُ الملائكةَ بتعريف قريب مما سبق فقالوا : الملائكة أجسام لطيفة مخلوقة من النور . أُعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ، ومسكنها السموات .

وهناك تعريف يتجنب التفصيل ، ويميل إلى الإجمال ، وتسليم أمرهم لعلم الله جل جلاله ، فيقول: الملائكة جنود غائبة عنا ، لها خواص ومزايا يعلمها الله سبحانه .

ومن الآراء المهمة فى تصور الملائكة ما ذكره حجة الإسلام الإمام الغزالى ، فقد تحدث فى كتابه « إحياء علوم الدين » عن الخواطر التى تحصل فى القلب ، وأن مبدأ الأفعال هو الخواطر ، ثم يحرك الخاطر الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر منها ما يدعو إلى الشر والضرر فى العاقبة ، وهذا وسواس من الشيطان ، ومنها ما يدعو إلى الخير وما ينفع فى الآخرة ، وهذا إلهام من جهة الملائكة .

ثم قال الغزالى ما نصه :

« لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى

الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذى يتهيأ به لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً ؛ فإن المعانى المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة .

والمَلك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضةُ الخير ، وإفادة العلم ، وكشف الحق ، والوعد بالخير ، والأمر بالمعروف ، وقد خلقه الله وسخره لذلك .

والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر ، والأمر بالفحشاء ، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر .

فالوسوسة فى مقابلة الإلهام ، والشيطان فى مقابلة المَلَك ، والتوفيق فى مقابلة الخذلان ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة » .

هكذا تحدث الغزالى رضى الله عنه ، ويظهر أن الإمام محمد عبده قد تأثر بهذا الكلام ، وهذه الفكرة التى صورها حجة الإسلام ، وانتفع بها فى إبداء رأى له فى تصور الملائكة .

ويظهر أن الرأى رأيه ويدين به ، ولكنه نسبه إلى بعض المفسرين فراراً من متاعب لا يرى من الخير المجاهرة بالتعرض لها .

وهذا الرأى يتلخص فى أن الملائكة أرواح تلهم خواطر الخير ، كما أن الشياطين أرواح توسوس بخواطر الشر ، وكلٌّ من خواطر الخير وخواطر الشر محلُّه الروح ؛ فالملائكة إذن أرواح تتصل بأرواح الناس ، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فإن اتصالها يكون عن طريق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا ،

لا عند الوسوسة بالشر ، ولا عند الشعور بداعى الخير فى النفس ، فالملائكة إذن من عالم غير عالم الأجسام .

والاستناد فى هذا الرأى يعود إلى حديث يقول : « إن للشيطان لمة بابن آدم (واللمة بفتح اللام هى الإلمام بالشىء والإصابة) وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ؛ وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » .

وهناك للحديث رواية أخرى تقول : « فى القلب لمتان : لمة من الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك ، فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ؛ ولمة من العدو : إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ثم تلا قوله تعالى : « الشَّيْطانُ يَعِدُكم الفَقْرَ ويأْمُرُكم بالفَحشاءِ » (البقرة ٢٦٨) .

فلنر معاً كيف يشرح الأستاذ الإمام هذا الرأى بعبارته . إنه يقول :

« وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر فى فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة ، من كونهم موكلين بالأعمال ، من إنماء نبات ، وخلقة حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة ، فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان .

فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص ، تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهى سُمِّى فى لسان الشرع مَلَكاً ، ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعانى القوى الطبيعية ، إذ كان لا يعرف

من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة .

والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكاً ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً ، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ؛ فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب يقول : لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها .

ولا يعلم إلا الله : علام يختلف الناس ؟ وكل يقرُّ بوجود شىء غير ما يرى ، ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه ؟ . وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب ، وقد اعترف بما غيب عنه ، لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدر قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به ، المؤمنون ؟ ! .

يشعر كل من فكر فى نفسه ، ووازن بين خواطره ، عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن فى نفسه تنازعاً ، كأن الأمر قد عُرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع . واحد يقول : افعل ، وآخر يقول : لا تفعل ؛ حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين .

فهذا الشىء الذى أودع فى أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً – وهو فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكنه حقيقتها – لا يبعد أن يسميه الله تعالى

ملكاً ، أو يسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يُحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع » ؟ !

هذا هو رأى الأستاذ الإمام بنوع من التفصيل ، وهو رأى لم يمر بهدوء أو سلام ، وما كان لمثله أن يفلت من المعارضة الشديدة ، لأنه يخالف ما التقى عليه جمهور السلف والعلماء ، ولأن هذا الرأى يؤدى إلى الحكم بأن الملائكة قوى لا تعقل ، ويظهر أن الأستاذ الإمام أحس بقوة المعارضة لرأيه ، فلما عاد إلى الحديث عن الملائكة حرص على وصفهم بالعقل ، كأن يقول مثلا : الملائكة خلق روحانى ، قائم بنفسه ، من عالم الغيب ، وهو خلق عاقل عالم ، يفيض العلم بإذن الله على روح النبى بما هو موضوع الدين ! .

* * *

والقرآن المجيد يرشدنا إلى أن الإيمان بالملائكة أصل للإيمان بوحى الله ورسله ، لأن وحى الله تعالى يصل إلى النبى عن طريق مَلَك من الملائكة ، وهو جبريل ، فإذا جحد الشخص وجود الملائكة فقد جحد إنزال الكتب الإلهية ، وجحد رسالة الرسل ، ولذلك قدم القرآن الكريم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالكتب الإلهية وبالرسل ، فقال تعالى فى سورة البقرة : « آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إليْهِ مِنْ ربِّهِ والمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نفرِّقُ بيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالُوا : سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنا وإِلَيْكَ المَصِيرُ » . (الآية ٢٨٥)

ويقول فى سورة النساء عن الإيمان بالملائكة وعاقبة من يكفر بهم :

« وَمَنْ يَكْفُرْ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً » . (الآية ١٣٦)

ولقد وصف العرب الملائكة بالجمال ، كما فى حديث جرير : « عليه مسحة مَلَك » أى أثر من الجمال ، وقد ضرب نسوة يوسف المثل بالملَك فى الجمال والبهاء : « وقُلْنَ حَاشَ للهِ ما هَذا بشَراً إنْ هَذا إلاَّ مَلَكٌ كرِيمٌ » . (الآية ٣١)

ولكن القرآن الكريم — إلى جوار هذا — يصف الملائكة بالقوة ، فيقول فى شأن جبريل عليه السلام فى سورة النجم :

« علَّمه شَدِيدُ القُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فاستَوى » (الآيتان ٥ ، ٦) .

ويصف بعضهم بالشدة والغلظة ، فيقول فى سورة التحريم :

« يَأَيُّها الَّذِين آمَنُوا قُوا أنْفُسكُمْ وأهْلِيكُم ناراً وقُودُها النَّاسُ والحِجارةُ عَليها مَلائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرهُمْ ويفْعَلُون ما يُؤْمَرُونَ » (الآية ٦) .

ولكن هذا الوصف لا يمنع أن يعرض علينا الملائكة فى صورة تدل على الخضوع من ناحية ، واستمداد العلم من الله من ناحية أخرى . يقول القرآن فى سورة البقرة : « وإذْ قالَ ربُّك للمَلائِكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرْضِ خَلِيفةً ، قالُوا أتجْعلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ، ونحْنُ نسبِّحُ بحمْدِكَ ونُقدِّسُ لك ، قالَ إنِّى أعْلَم مالَا تعْلَمُون . وعلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها ، ثمَّ عرَضَهُمْ على الملائِكةِ فقالَ أنْبِئُونِي بأسْماءِ هَؤُلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنَا إلاَّ ما علَّمْتنا إنَّكَ أنْتَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ » (الآيات ٣٠ — ٣٢) .

* * *

والملائكة كثيرون كثيرون ، « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ولقد جاء الحديث الشريف يقول : « إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ،

أطَّت السماء ، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربعة أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً » . وفي رواية : « ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف ، إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك ساجد ، أو ملك راكع . فإذا كانوا يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ، ما عبدناك حق عبادتك ، إلا أنا لم نشرك بك شيئاً » .

فهم على حق حين قالوا عن أنفسهم كما حكى القرآن في سورة الصافات : « وإنَّا لَنَحْن الصَّافُّون ، وإنَّا لنَحْنُ المسبِّحونَ » . (الآيتان ١٦٦ — ١٦٧) . وهم غير مقصورين على عمل واحد ، بل لهم أعمال كثيرة :

١ — تبليغ الوحي إلى الأنبياء والرسل . يقول القرآن في سورة النحل : « يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ منْ أمْرِهِ علَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أنْ أَنْذِرُوا أنَّه لاَ إلٰه إلاَّ أنَا فاتَّقُون » (الآية ٢) . وفي سورة الحج : « الله يصْطَفِي مِنَ الملائِكةِ رسُلاً ومِنَ النَّاسِ »

٢ — التسبيح والعبادة ، يقول القرآن في سورة الزمر : « وترَى الملائِكةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسبِّحُونَ بحَمْد ربِّهم » (الآية ٧٥) . وفي سورة الرعد : « ويسبِّح الرَّعْدُ بحَمْدِهِ والملائِكةُ منْ خِيفتهِ » (الآية ١٣) . وفي سورة النحل : « ولِلهِ يَسْجُد ما في السَّموٰاتِ وما فِي الأرْضِ مِنْ دَابَّةٍ والملائِكةُ وَهُمْ لا يَسْتكْبِرُونَ » . (الآية ٤٩) .

٣ — تثبيت المجاهدين ، يقول القرآن في سورة الأنفال : « إذْ يُوحِي ربُّكَ إلى الملائِكَةِ أنِّي مَعَكُم فثبِّتوا الَّذينَ آمنُوا . سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِين كَفَروا الرُّعْب فاضْرِبُوا فوْقَ الأعْناقِ واضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بنانٍ » (الآية ١٢) .

٤ — قبض الروح ؛ يقول القرآن في سورة السجدة : « قُلْ يتوفَّاكُم مَلَكُ الموْتِ الَّذِي وُكِّلَ بكُم ، ثمَّ إلَى ربكُم تُرْجَعُونَ » (الآية ١١) .

٥ – الصلاة على النبى . يقول القرآن فى سورة الأحزاب : « إنَّ اللهَ وملائِكَتَهُ يصَلُّون عَلَى النَّبِىِّ يَـأَيُّهَا الَّذِين آمنُوا صلُّوا عليْهِ وسلِّموا تَسْلِيماً » . (الآية ٥٦) .

٦ – الصلاة على المسلمين . يقول تعالى فى سورة الأحزاب أيضاً : « هُو الَّذِى يُصلِّى عَلَيْكُم وملائكتُه ليخْرِجَكُم من الظُّلماتِ إلى النُّور» . (الآية ٤٣) .

٧ – التبشير بالخير. فى سورة فصلت : «إنَّ الَّذِين قالُوا ربُّنَا اللهُ ثُمَّ استَقامُوا تَتنزَّلُ عليهِم الملائكةُ ألاَّتخَافُوا ولا تحزَنُوا وأبْشِرُوا بالجنَّةِ الَّتى كُنْتُم تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أوْلياؤُكُم فى الحَياةِ الدُّنْيَا وفى الآخِرة ولكُمْ فيها مَا تشْتَهى أنْفُسُكُمْ ولَكُمْ فِيها ماتَدَّعُونَ ، نُزُلاً مِنْ غفورٍ رَحِيمٍ » . وفى سورة القدر : « تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيِها بإذْن رَبِّهِمْ مِنْ كُلّ أمْرٍ ، سَلامٌ هِيَ حتَّى مَطْلَعِ الفجرْ» (الآيتان ٤ ، ٥) .

وفى صحيح البخارى جاء هذا الحديث : « إذا أحب الله العبدنادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، فينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » . .

٨ – تسجيل الأعمال على العباد ، فى سورة ق : « إذْ يتَلقَّى المتَلقِّيان عَنِ اليَمِينِ وعنِ الشّمالِ قَعِيدٌ ، ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلاَّ لديْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (الآيتان ١٧ ، ١٨) .إلى غير ذلك من الأعمال والواجبات التى يسندها الله إليهم ، ويوزعها عليهم .

والملائكة أقسام وأصناف ، ومنهم قسم يسمون « بالكَروبيين » ، وهم سادة الملائكة المقربون ، وهم أقرب الملائكة إلى حملة العرش ، وكلمة

« الكروبيين » مأخوذة من مادة « الكرب » بمعنى الحزن ، لشدة خوفهم من الله جل جلاله ، وخشيتهم إياه .

وقيل إن الكلمة مأخوذة من لفظة « الكرب » بمعنى القرب أوالقوة ، وذلك لقوتهم وصبرهم على العبادة ، والشاعر أمية بن أبي الصلت يقول :

ملائكة لايفترون عبادةً كَروبية منهم ركوع وسُجَّد

ومن الكروبيين — كما فى تاج العروس — جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

* * *

وهناك مسألة تتعلق بالملائكة ، ويدور حولها النقاش :

هل حاربت الملائكة بالفعل مع المسلمين ؟

اختلف العلماء فى هذه المسألة ، فمنهم من قال مؤكداً : نعم قاتلوا ، فقد قال القرآن فى سورة آل عمران :

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثلاثَةِ آلافٍ مِن الملائِكَةِ مُنْزَلِينَ » (الآية ١٢٤) .

وقال آخرون : بل كانت مهمة الملائكةِ هى التثبيت ، بدليل قوله تعالى فى سورة الأنفال : « إِذْ يُوحِى ربُّك إِلَى الملائِكَةِ أَنِّى مَعَكُم ، فَثَبِّتُوا الَّذِين آمَنُوا » . (الآية ١٢) .

ويميل « تفسير المنار » إلى تأييد الرأى الأخير ، فيذكر أن الملائكة كانوا مكلفين بتثبيت قلوب المؤمنين والربط عليها وإلهامها روح النصر ، ويورد التفسير عبارة ابن جرير الطبرى فى الموضوع وهى :

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم

بثلاثة آلاف من الملائكة ، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا . لا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم .

وقد يجوز أن يكون الله أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أن الله أمدهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ، ولا خبر به فنسلم لأحد الفريقين قوله » .

ثم قال التفسير : والإمداد بالملائكة يصح أن يكون من قبيل الإمداد بالمال الذى يزيد فى قوة القوم ، وأن يكون من الإمداد بالأشخاص الذين ينتفع بهم ولو نفعاً معنويًّا ، وذلك أن الملائكة أرواح تلامس النفوس ، فتمدها بالإلهامات الصالحة التى تثبتها وتقوى عزيمتها ، ولذلك قال عز وجل : « وما جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُم ولتطمئِنَّ قُلُوبكُمْ بهِ ، وما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ » . (الآية ١٢٦) .

* * *

ويبقى سؤال وارد :

أيهما أفضل : الملائكة أم البشر ؟

قيل إن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة ، لأن الله وصف الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله : « أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ » (البينة الآية ٧) . ولأن الحديث يقول : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ، ولأن الله تعالى يباهى الملائكة بأهل عرفات . . . إلخ .

وقيل إن الملأ الأعلى – وهم الملائكة – أفضل ، وحجتهم فى ذلك وصفهم بأنهم « عبادٌ مُكْرمُون » وأنهم « لا يَعْصُون اللهَ ما أمَرهُم ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرُ ون » (التحريم الآية ٦) .

وهناك من يستدل بقصة آدم والملائكة على أن الإنسان المستقيم خير من الملائكة .

إن القصة تقول : « وإذ قال رَبُّكَ للملائِكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرض خَليفَةً ، قالُوا أتجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيهَا ويَسفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نُسبِّح بحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ؟ قال إنِّى أعْلَمُ مالَا تَعْلَمُون . وعلَّم آدمَ الأسْماءَ كلَّها ثُمَّ عَرضَهُم علَى الملائِكَةِ فقَالَ أنْبِئُونى بأسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، قالُوا سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لنَا إلاَّ ماعَلَّمْتَنا إنك أنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، قالَ ياآدَمُ أنْبِئْهمُ بأسْمائِهمْ ، فلمَّا أنْبأَهُمْ بأسْمائِهِم قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إنِّى أعْلَمُ غَيْبَ السَّموَات والأرْضِ وأعْلَمُ ماتُبْدونَ وماكُنْتُم تكْتُمونَ . وإذْ قُلْنا للملائِكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فسَجَدُوا إلَّا إبْلِيسَ أبَى واسْتَكْبَر وكانَ مِنَ الكافِرِينَ » (البقرة من ٣٠ – ٣٤)

الإنسان الذى خلقه الله بيده ، وعلمه الأسماء كلها ، وأظهر سبقه لهم ، وأسجدهم له تكريماً .

هذا الإنسان فيما يرى الإنصاف أولى بالتقديم .

أما بعد ، فلابد من النص على أن حديث الملائكة لاتزال له فصول وذيول ، على الرغم من أن حديثهم فاق حديث الجن الذى نستعيذ بالله تعالى من أشرارهم : « فاللهُ خيرٌ حافظاً وهُو أرْحَمُ الرَّاحِمِين » (يوسف الآية ٦٤) .

الفهرس

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٤٣٦٣	
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3711 – 6	ISBN

١ / ٩٢ / ١٣٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

مائدة القرآن حافلة بكل كريم وعظيم ، عامرة بكل نافع وممتع ..
وصاحب البصيرة المؤمنة لا يمل الاغتراف من هذا الزاد الطيب ، ولا من ذلك النبع الطهور .

وصاحب هذا القلم – الدكتور أحمد الشرباصى – قد اتخذ القرآن المجيد – منذ عهد بعيد – سميره وأميره ، يرجع إليه ، ويستعين به ، ويستمد منه ، فيما يسجله ببيانه ، أو يردده بلسانه .

وهو هنا يجول بنا ، ليقطف لنا من روضة القرآن الباهرة قطوفاً تعطينا نماذج من الأدب القرآنى ، تجمع بين أدب النفس وأدب الدرس ، وتوائم بين أدب الحس وأدب الروح ، ليكوّن من مجموع ذلك ما يشهد للذكر الحكيم بأنه « مأدبة الله » . . .